دراسات في تاريخ

الإمبراطورية البيزنطية

دكتورة

إسمت غنيم

١٩٩١

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - إسكندرية

ت : ٤٨٣٠١٦٣

دراسات في تاريخ

إمبراطورية نيقية البيزنطية

دكتورة

إسمت غنيم

١٩٩١

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة
الاسكندرية



المحتـــــوى

البحث الأول :

الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية إنحرافها ضد القسطنطينية

البحث الثانى :

إمبراطورية فى المنفى ، ثيـودور لاسكاريس وإحيـاء الامبراطـورية البيزنطية فى نيقية

البحث الثالث :

زواج التحالف فى العصور الوسطى

البحث الرابع :

معركة بلاجونيا ، ونهاية الصراع بين نيقية وإبيروس حول القسطنطينية




مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

يظل الأستاذ الجامعي طوال حياته دائم البحث والتنقيب فى ميدان تخصصه ، وكلما كانت أبحاثه جديدة ومبتكرة ، كلما ازدادت أهميتها وقيمتها العلمية ، وقد كانت حصيلة سنوات عديدة من البحث منذ حصولى على درجة الدكتوراة فى عام ١٩٧٣ ، وحتى هذا الوقت من عام ١٩٩٠ ، مجموعة من الابحاث والدراسات استنفذت منى الكثير من الوقت والكثير من الجهد ، ولكن أحمد الله سبحانه وتعالى ، أن ظهرت فى النهاية فى صورة طيبة • وقد كانت جميعها دراسات جديدة ومتنوعة ، ألقت الضوء على موضوعات هامة فى تاريخ العصور الوسطى •

وقد قامت بعض دور النشر ، سواء فى داخل مصر أو خارجها ، بنشرها ، كما نشر بعض منها فى مجلات علمية ، ولما كان من الصعب الحصول على بعض هذه الابحاث ، فقد رأيت تيسيرا على من يريد الاطلاع عليها ، والاستفادة منها ، أن أقوم بتجميعها فى عدة كتب ، بحيث يضم كل كتاب مجموعة من الأبحاث التى تشترك فى الموضوع الواحد •

ويضم هذا الكتاب مجموعة من الابحاث فى التاريخ البيزنطى ، وأنه



لمن دواعى سرورى أن يكون موضوعها قد تناول تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية،وهو الموضوع الذى لم يتناوله بحث أو كتاب فى المكتبة العربية حتى الآن • فالبحث الذى عنوانه : «إمبراطورية فى المنفى ، ثيودور لاسكاريس ، وإحياء الامبراطورية البيزنطية فى نيقية» يعالج كيفية تأسيس ثيودور الاول لاسكاريس لملكه فى مدينة نيقية فى آسيا الصغرى، بعد فتح الصليبيون للعاصمة البيزنطية القسطنطينية فى ١٢٠٤م• ؛ والبحث الذى يليه يتناول عصر خليفته وزوج ابنته يوحنا فاتاتزيس من خلال عرض موضوع : «زواج التحالف فى العصور الوسطى» • أما بحث : «معركة بلاجونيا ، ونهاية الصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية» فيعرض لحدث من الاحداث التاريخية الهامة فى منطقة شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى فى الفترة السابقة مباشرة على استرداد امبراطورية نيقية البيزنطية للعاصمة القسطنطينية ، ذلك الحدث الذى كان له أثره الفعال فى تغلب ميخائيل الثامن باليولوجوس على منافسيه ، وفوزه بالقسطنطينية دونهم •

ولما كان المدخل الطبيعى لدراسة تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية هو الحملة الصليبية الرابعة ، وما أدت اليه من سقوط العاصمة البيزنطية القسطنطينية فى يد الصليبيين فى عام ١٢٠٤م ، واقامة مملكة لاتينية ، وفرار العائلات الأرستقراطية البيزنطية ، وتأسيسهم لثلاث ممالك ، واحدة فى الجانب الأوروبى خلف جبال بندوس فى منطقة إبيروس ، والثانية فى طرابيزون على ساحل البحر الاسود ، والثالثة فى نيقية فى



آسيا الصغرى ، لذلك كان لابد من عرض أحداث هذه الحملة حتى يكون تسلسل الأحداث واضحا أمام الباحثين والدارسين ، خاصة وأن أحداث هذه الحملة كانت موضوع بحث قمت باعداده ، ونشرته دار المعـارف بالاسكندرية ، وكان أحـد بحثين نلت بهما جائزة جـامعة الاسكندرية للتشجيع العلمى عام ١٩٨٤ ٠

أرجو أن أكون قـد وفقت فى عرض هـذه المجموعة من الابحاث ؛ وأسأل الله التوفيق والسداد ،،،

إسمت غنـيم

لـوران

٧ يوليو ١٩٩٠



البحـــث الأول



الحملة الصليبية الرابعة

ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية

الدكتور

إسمت غنيم

جامعة الإسكندرية



دار المعارف

١٩٨٢



المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة من أغرب الأحداث فى تاريخ الحروب الصليبية ، لما اتسمت به من طابع مميز عن باقى الحملات الصليبية الأخرى ؛ ولما ترتب على إنحرافها من نتائج .

وقد استحوذت هذه الحملة على إهتمام عدد كبير من المؤرخين حاولوا البحث عن أسباب إنحرافها وإتجاهها ضد القسطنطينية ، ذلك البلد المسيحى ، بدلا من اتجاهها ضد مصر لفتحها ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأراضى المقدسة فى فلسطين كما كان مقررا لها .

وقد انقسم المؤرخون الذين عالجوا هذا الموضوع إلى فريقين فريق ارجع هذا التغيير فى اتجاهها إلى (التعمد) ومنهم على سبيل المثال المؤرخون الفرنسيون الكونت ريان Conte Riant وماس لاتيرى Mas—Latrie وهانوتوكس Hanotoux والمؤرخان الألمانيان هوبف Hopf ، وويكلمان Winkelman . وفريق آخر ارجع هذا التغيير فى اتجاه الحملة إلى (الصدفة) ومنهم على سبيل المثال أيضا ، المؤرخ الالمانى نوردن Norden والفرنسى لوشير Luchaire

وقد عالج جميع المؤرخين ، سواء أصحاب نظرية التعمد أو نظرية الصدفة ، هذه الحملة فى ضوء دوافع الغرب اللاتينى وحدها ، وعدائه المتراكم ضد الدولة البيزنطية ، لكن احدا منهم لم يحاول إلقاء الضوء على دور البيزنطيين أنفسهم ومسئوليتهم فى العمل على إنحراف هذه الحلمة ضد عاصمتهم ، وهو

ما أراه أقرب إلى الحقائق التاريخية ، كما سيتضح من خلال هذا البحث .

والجدير بالذكران أهم المصادرالتي امدتنا بالمعلومات التاريخية عن الحملة الصليبية الرابعة هو كتاب المؤرخ المعاصر جيوفرى فيلهاردوين Geoffrey Villehardouin من شامبنى ، والذى شارك فى الحملة الصليبية وكان يشغل منصب ماريشال Marshall وقد دون أحداث الحملة يوما بيوم بأسلوب قوى ، واضح ، ومباشر .

وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن فيلهاردوين كان على مقربة من واقع الأحداث ، فقد كان منصبه يلى مباشرة كل من قائد الحملة الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات (١) والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت (٢) . مما أتاح له المشاركة فى صنع القرارات التى اتخذها المجالس العسكرية للحملة والاطلاع على الوثائق الهامة الخاصة بالحملة ، وكثيرا ما أرسل كرسول من طـرف الصليبين ومتحدثا رسميا بأسمهم إلى مختلف القوى .

وقد أتى فيلهاردوين فى كتابه عن «فتح القسطنطينية بواسطة البارونات الفرنسيين ومشاركة البنادقة فى عام ١٢٠٤» .

la Conqueste de Constantiople par les Barons francais associez aux Venitiens l'an 1204.

بوصف دقيق لكافة أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بداية تكوينها وحتى سقوط العاصمة البيزنطية فى أيدى الصليبين فى عام ١٢٠٤ ثم تتبع الأحداث التالية سواء الخاصة باللاتين أو الأمارات التى أسسها بعض رجال الطبقـة

---

(١) بخصوص الماركيز بونيفيس ومركزه فى الغرب الأوروبى وصلات عائلته ببيزنطة انظر الفصل الثالث من هذا البحث، ص ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) يوجد فى الفصل الرابع من البحث نبذة عن الكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت ، ص ١٠١ .

الارستقراطية البيزنطية حتى عام ١٢٠٧ م :

وقد حاول فيلهاردوين فى كتابه هذا أن ينسب فتح القسطنطينيةللبارونات الفرنسيين وحدهم وأظهر دور البنادقة فى هذا الفتح علىأنهدورثانوىواقتصر على مشاركة الفرنسيين فى هذا العمل الذى يعتبره فيلهاردوين عملا بطوليا قام به بنى جلدته الفرنسيين .

وقد دون فيلهاردوين كتابه بالفرنسية القديمة ، وظهرت ترجمة إنجليزية له هى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا نشرها Sir Marzials فى لندن فى عام ١٩٦٥ .

وأتفق مع د. بيريل سمالى الذى يقول أن فيلهاردوين «لم يكن من مؤلفى الروايات الخيالية ، فقد روى الأحداث الحقيقية والمدهشة فى قصة غزوجيش صغير لمدينة كانت آنذاك قوية بحصونها ، غنية بكنوزها ، ولو أنه استخدم المحسنات اللفظية وقصص المعجزات لكانت أفسدت تأثيره .

كان جيوفرى ذا نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالتفاصيل العسكرية كما أنه يتميز بالقدرة على نقل إنطباعه إلى القارىء مباشرة .

وكانت صياغة الخطب مصدر إزعاج بالنسبة له ، ورغم أنه كانيشارك فى إجتماعات القادة ، إلا أنه كان يقنع بملخص موجز لما قيل فىهذهالاجتماعات دون أن يزينه بالزخارف البلاغية ...... أن مذاكراته قيمة وثمينة كموضوع جديد» . (١)

وهنا مؤرخ آخر هو روبرت كلارى Robert De Clari وهوأحد

---

(١) سمالى : المؤرخون فى العصور الوسطى ، ترجمة د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩١ .

الفرسان إشترك فى الحملة الصليبية الرابعة ودون أحداثها منذ البداية وحتى سقوط القسطنطينية فى أيدى (فرسان المسيح الحجاج) فى عام ١٢٠٤ وإنتهى الكتاب بسرده لموقعة هادريانوبل فى ابزيل ١٢٠٥ . ومعلوماتنا عن روبرت كلارى ضئيلة للغاية وكل ما نعرفه عنه أنه من مقاطعة كلبرى لى بيرنوا Clery Les permoisوقد نسب إليها فسمى كلارى . وقد أسهم روبرت فى الحملة الصليبية الرابعة تحت لواء أحد كبار السادة الاقطاعيين الفرنسيين ويدعى بطرس داميان Pierre D'Amiehs وكتاب روبرت كلارى الذى أطلق عليه اسم «فتح القسطنطينية» Lacoquete deconstantinople مدون باللغة الفرنسية القديمة أيضاً شأنه شأن كتاب فيلهاردوين وقد قام مسيو فيليب لاور Philippe lawer أمين قسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس بنشره فى مجموعة :

les classiques francais du moyen age

و[illegible] هذه الطبعة التى نشرت فى باريس فى عام ١٩٢٤ .

ومن خلال دراستنا لهذا المصدر نستطيع القول أن روبرت كلارى كان يمثل وجهة النظر الشعبية فى الحملة الصليبية الرابعة ورغم أن بعض الأحداث التى ذكرها والخاصة بالتاريخ البيزنطى قبل سقوط القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ فيه الكثير من المغالطات التاريخية والخيال الذى يدل دلالة واضحة على ضئالة معلوماته شأنه شأن معظم الطبقات الشعبية التى اشتركت فى الحملة الرابعة ، ورغم أن تواريخه غير دقيقة ، إلا أنه أتى ببعض التفاصيل لأحداث تعتبر مكملة لتاريخ فيلهاردوين ، كما أنه أتى بوصف تفصيلى للغنائم التى غنمها الصليبيون من القسطنطينية بعد فتحها وكذلك جاء بوصف لا بأس به للقصور الامبراطورية ولبعض الكنائس والأطلال التى رآها بالقسطنطينية مما يساعد .

الباحثين فى التاريخ البيزنطى على الإلمام بما وجد بالقسطنطينية وقتذاك من منشآت ضخمة وكذلك يدل دلالة واضحة على مدى الثراء الذى تمتعت به القسطنطينية آنذاك .

وفى مجال المقارنة بين تاريخى فيلهاردوين وروبرت كلارى ، أرى ان الأول يتفوق على الثانى ، حقيقة أن الأثنين كانا معاصرين واشتركا فى الحملة ولكن فيلهاردوين كان يشغل منصبا كبيرا مما أتاح له أن يكون على إتصال أكثر بالأحداث ، ومن ثمة فان تاريخه أجدر بالثقة .

هذا إلى جانب رسائل البابا اينوسنت الثالث (١) إلى الصليبيين فى مختلف المناسبات ، تلك الرسائل التى ألقت الكثير من الضوء على العديد من الأحداث ، قد حوتها مجموعة Patrologia Látina التى نشرت فى باريس فى عام ١٨٥٥ م .

وبخصوص الأحداث الخاصة بالدولة البيزنطية ، فقد أمدنا بعض المؤرخين البيزنطيين بالمعلومات التاريخية عنها ، وعلى الأخص المؤرخ المعاصر خونياتيس Nicetas Choniates الذى يطلق عليه أحيانا نقيتاس اكوميناتوس Nicetes Acominatus

ولد نقيتاس فى مدينة خوناى Chonae فى اقليم فريجيا فى آسيا الصغرى وتوفى فى عام ١٢١٣ م ، وقد إشتغل بالسياسة وتولى عدة مناصب هامة فى الدولة ، فأثناء حكم الامبراطور اسحاق انجيلوس كان نقيتاس يشغل منصب السكرتير الامبراطورى ، ثم تولى حكم ثيم فيلبوبوليس Philippopolis فى اقليم مقدونيا ، ثم شغل منصب المستشار الاعظم Grand Logothete وبعد

---

(١) فيما يتعلق بالبابا اينوسنت الثالث وجهوده من أجل السمو بالبابوية ، أنظر الفصل الثالث من هذا البحث ، ص ص ٥٣ - ٥٦ .

استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ فر إلى نيقية واستقر فى بلاط الامبراطور ثيودور الأول لاسكاريس ، وكتابه Historia أرخ فيه للفترة الواقعة بين ١١١٨ — ١٢٠٦ .

ونشر هذا الكتاب فى مجموعة :

Corpus Scriptorum Histo- riae Byzantinae

التى نشرت فى مدينة بون عام ١٨٣٥ .

كذلك تمت الاستعانة فى هذا البحث بالعديد من المؤلفات الفرنسية والألمانية والأنجليزية ، لكبار المؤرخين الذين تعرضوا لسرد وتحليل أحداث الحملة الصليبية الرابعة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى عرض وجهة نظرى الخاصة بهذا الموضوع مما يفتح آفاقا جديدة أمام الباحثين فى التاريخ البيزنطى وتاريخ الحروب الصليبية على حد سواء .

والله الموفق ،

اسمت غنيم

لوران

٧ يوليو ١٩٨١

الفصل الأول

الآراء المختلفة حول تغيير اتجاه الحملة

- مسئولية كل من :

البابا اينوسنت الثالث .

الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات .

البنادقة ودوقهم انريكو داندولو .

الملك الالمانى فيليب السوابى .

- معالجة الحملة فى ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الشرق والغرب .



اختلفت الآراء حول مسئولية تغيير إتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية ، وقد أرجع بعض المؤرخين مسئولية هذا التغيير إلى البابا اينوسنت الثالث ، بدافع أساسى هو العداء القديم بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ورغبة البابا فى اخضاع كنيسة القسطنطينية للسيادة البابوية والانتقام من البيزنطيين الذين عرقلوا مرور القوات الصليبية وسببوا لهم المتاعب منذ قيام الحروب الصليبية (١) .

أما المؤرخ الفرنسى تسييه Tessier فقد حمل الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات قائد الحملة ، مسئولية هذا التغيير فى إتجاهها ، وأوضح أنه كان صاحب الدور الرئيسى والأقوى ، وأن فتح القسطنطينية ، كان عملا عظيما ولكنه ليس المانيا أو بندقيا ، وإنما فرنسيا (٢) .

لكن المؤرخون كارل هوبف وماس لاتيرى وادوين بيرز يتفقون على أن البنادقة ودوقهم العجوز انريكو داندولو (٣) هم المسئولون عن هذا التغيير فى إتجاه الحملة ويستندون فى رأيهم هذا على المعاهدة التى أبرمت بين البنادقة وسلطان مصر الملك العادل الأيوبى .

فقد أوضح المؤرخ الألمانى هوبف أن البنادقة غرروا بالصليبيين وأنهم فى الوقت الذى إتفقوا معهم فيه على نقلهم إلى مصر وكان الصليبيون ينتظرون

---

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol II, P. 455.
بخصوص المزيد من التفاصيل عن دور البابا اينوسنت الثالث فى توجيه الحملة ضد القسطنطينة أنظر :
عبيد : روما وبيزنطة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠٤ — ٣٥٣ .

(2) Tessier (Y) : La quatrieme Croisade, La division sur zara et Constantinople, Paris, Laroux, 1884, PP. 174 — 238.

(٣) فيما يتعلق بدوق البندقية انريكو داندولو أنظر الفصل الثالث من هذا البحث ، ص ٦٤ — ٦٥ .

فى الليدو Lido استعدادا للذهاب إلى مصر ، فى نفس الوقت ، كان البنادقة يبرمون معاهدة مع الملك العادل الأيوبى حاكم مصر آنذاك .

ويقول هوبف فيما يتعلق بهذه المعاهدة أن الملك العادل أرسل رسلا إلى البندقية مع هدايا ثمينة للدوق داندولو وقدم له هؤلاء الرسل مشروع معاهدة تجارية فحواها أن يغير البنادقة إتجاه الحملة الصليبية عن مصر مقابل منحهم امتيازات جديدة هى حى خاص بهم فى الاسكندرية ومنحهم الأمان لأنفسهم وبضائعهم والحجاج الذين يفدون معهم لزيارة الأراضى المقدسة وقد أرسل الدوق داندولو رسولين من قبله هما مارينوداندولو Marino Dandolo ودومنيكوميشيلى Domenico Michieli للرد على سفارة الملك العادل ، وتمكنا من إبرام المعاهدة فى القاهرة فى ١٣ مايو ١٢٠٢ ثم عادوا إلى البندقية ومعهم أحد الأمراء المسلمين نائبا عن السلطان للتصديق عليها من جانب داندولو (١) .

وقد بنى المؤرخ الفرنسى ماس لاتيرى رأيه أيضاً على هذه المعاهدة التى أبرمت بين البنادقة والملك العادل ، وأرجع دوافع البنادقة وراء هذا العمل إلى الانتقام بعنف للأضطهاد الذى عانوا منه فى القسطنطينية ومن أمثلته ما تعرض له داندولو ومواطنيه من السجن بناء على أوامر الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس رغم المعاهدات التى بين الطرفين . وهناك دافع آخر هو رغبة البنادقة فى استعادة مركزهم وامتيازاتهم التجارية فى العاصمة البيزنطية ، تلك

(1) Hopf : Geschichte griechenlands von Beginn des Mittelalters lis unsere zeit, in Erschlgruber, Encyclo-pedia vols. 85 — 86, (1867—68), P. 188.

الامتيازات التى حرمهم منها الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس ومنحها لمنافسيهم الجنوية والبيازنة (١) .

كذلك اعتمد المؤرخ أدوين بيرز فى رأيه على هذه المعاهدة وقال بأن التفوق الذى أحرزته جنوا وبيزا على البندقية فى القسطنطينية ، قد عوضته هى فى مصر ، عن طريق الامتيازات التى حصلت عليها هناك ، وأن ثمن هذه الامتيازات كان خيانة المسيحين والقضية الصليبية . ويضيف بيرز سببا آخرا لعداء داندولو للعاصمة البيزنطية ورغبته فى الانتقام منها ، وهو أنه فقدبصره بأمر من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس وذلك أثناء زيارته للقسطنطينية فى عام ١١٧٢ أو عام ١١٧٣ (٢) .

وهناك فريق آخر من المؤرخين حمل الملك الألمانى فيليب السوابى مسئولية إنحراف الحملة ضد القسطنطينية . نظراً لأن فيليب كان مرتبطا بروابط المصاهرة مع الامبراطور المخلوع اسحاق انجيلوس . الذى زوجه من ابنته ايرين وبالتالى فقد وجه فيليب الحملة ضد القسطنطينية حتى يعيد لوالد زوجته عرشه المفقود . ومن جهة أخرى حتى يحرز التفوق على البابوية أثناء صراعه معها بتوجيهه الحملة الوجهة التى يراها ، وبذلك يجرد البابا من سيطرته عليها .

وأول من حمل فيليب السوابى مسئولية إنحراف هذه الحملة ضد العاصمة البيزنطية هو البابا اينوسنت الثالث نفسه فقد جاء فى خطابه إلى الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثالث انجيلوس فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ ما يلى :

---

(1) Mass Latrie : Histoire de l'ile de Chypre sous le regne des princes de la maison de Lusignan, 3 Vols. Paris, 1852 — 61, Vol. 1, pp. 1611 — 164.

(2) Pears : The Fall of Constantinople, Being the Story of the Fourth Crusade, New York, 1975, pp. 263 — 146, P. 259.

«.. أننا لم نعر أى اهتمام مطلقا لاليكسيوس ابن الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، الذى ذهب لفيليب دوق سوابيا لكى يحصل على مساعدته من أجل إنتزاع الامبراطورية منك» .

وفى موضع آخر من نفس الخطاب ، يقول البابا :

.. وحينما أجبناه طبقا لما نراه صالحا ، انسحب من عندنا وتوجه بخطى ريحة نحو فيليب — زوج شقيقته — المذكور آنفا ، وحينما تشاوروا معا ، أرسل فيليب على الفور رسله إلى زعماء الجيش المسيحى ، يلتمس منهم ضرورة أقتحام مملكة القسطنطينية مع اليكسيوس ، وأنهم يجب أن يعيروه النصح والتأييد من أجل استعادتها لأنه ووالده جردا من حقهما فى الامبراطورية ظلما»(١)

كذلك أرجع المؤرخ البيزنطى المعاصر نقيتاس خونياتيس Nicetas Choniates المسئولية إلى فيليب السوابى ، وأوضح نقيتاس أن الامبراطور المخلوع اسحاق انجيلوس قد أرسل وهو فى سجنه خطابات إلى ابنته ايرين زوجة فيليب السوابى ملك المانيا ، يطلب منها أن تنتقم لوالدها ، وقد أجابت ايرين عليه مظهرة استعدادها لتحقيق كل ما يطلب ، وأن الأمير اليكسيوس قد تمكن من الهرب بعد ذلك من السجن ، على ظهر سفينة بيزيه وتمكن من الوصول إلى ألمانيا حيث رحبت به شقيقته ايرين وطلبت من زوجها فيليب أن يبذل له الحماية والمساعدة من أجل استرداد العرش البيزنطى وأن زوجها قد استجاب لذلك(٢)

وهناك أيضا المؤرخ الفرنسى الكونت ريان الذى يرى أن فيليب السوابى

---

(1) Innocentii III : Epistolae, in Patrologia, latina ed Paris 1855 Vol. CCXIV, Cols 1123 — 1124.

(2) Coniates : Historia, ed. Bekker, in Corpus scriptorum Histor iae Byzantinae, Bonn, 1835, p. 710 712.

هو المسئول عن توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وأن هذا العمل من جانب فيليب كان شيء ذا أهمية فى النضال الطويل بين البابوية والامبراطورية الألمانية وأن دوره القيادى فى تغيير إتجاه هذه الحملة كان من أجل أن يعيد إلى العرش البيزنطى حليفه ووالد زوجته اسحاق انجيلوس ، وان ذلك بلاشك سيخدمه فى نضاله مع البابا ومنافسه فى ألمانيا أوتولوف برنسويك oto of Brunswick وأن بونيفيس أوف مونتفرات كان أداة الامبراطور فيليب الذى نفذ سياسته فى الشرق (١) .

أما المؤرخ الألمانى وينكلمان ، فقد دلل على رأيه فى إتهام فيليب السوابى بثلاثة براهين ، أولها أن الامير اليكسيوس إنجيلوس جاء إلى الصليبين يطلب مساعدتهم تحت حماية فيليب السوابى ، والثانى أن العداء بين فيليب السوابى والبابا كان لايزال قائما والنضال بينهما مستمرا ، لذلك رأى فيليب أن يقوم بدور قيادى للحملة الصليبية الرابعة ويوجهها الوجهة التى يراها حتى يبدو العرش الالمانى متفوقا على البابوية . وثالث هذه البراهين ، ان فيليب كان يدرك رد الفعل الذى سيحدث لدى البابا اينوسنت الثالث نتيجة تغيير إتجاه الحملة ، وعدم تنفيذ أوامره الخاصة بإتجاهها ضد المسلمين وإستعادة الاراضى المقدسة ، لذلك كان فيليب حريصا على أن يتضمن الاتفاق الذى تم بين الامير اليكسيوس والصليبيين بندا يرضى البابا ، وكان هذا البند هو الخاص بإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية . وقد أيد وينكلمان رأيه بإدانة فيليب السوابى ومسئوليته عن انحراف الحملة ضد القسطنطينية بما ذكره أحد أصحاب الحوليات الالمان فى القرن الثالث عشر الميلادى ، من أن القسطنطينية قد حوصرت «بأمر

(1) Riant : Innocent III, Philippe de Sovuabe et Boniface de Montferra dans Revue des questions historique, XVII, 1875, pp. 331 — 366, XVIII, 1875, pp. 69 — 72.

الملك فيليب» ، كذلك لحرص فيليب السوابى على حق زوجته فى العرش البيزنطى بعد وفاة والدها وشقيقها (١) .

وقد حلل المؤرخ الألمانى نوردن فى بحثه القيم أسباب تغيير إتجاه الحملة الصليبية الرابعة ، - أوضح أن اتجاهها ضد القسطنطينية كان بمثابة (فك عقدة) الصراع القديم بين الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية ، ذلك الصراع الـذى أصبح حادا منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد بدأ نوردن بإستعراض النضال بين الدولة البيزنطية والنورمان فى جنوب إيطاليا ، منذ أيام روبرت جويسكارد (ت ١٠٨٥) الذى استولى فى عام ١٠٧١ م على مدينة بارى آخر معقل للبيزنطيين هناك ، وحتى أيام وليم الثانى (ت ١١٨٩) . وأوضح أنه بعد مائة عام من تاريخ وفاة روبـرت جويسكارد تمكن النورمان من الاستيلاء على سالونيك التى تلى فى الأهميـة القسطنطينية مباشرة ، وقد تمكن الامبراطور اسحاق انجيلوس من إرسال جيش بقيادة القائد البيزنطى اليكسيوس باراناس Alexius Baranas استطاع أن ينزل الهزيمة بالنورمان عند ديمترياس Demetries فى ٧ نوفمبر ١١٨٥ ، وفى العام التالى تمكن من استعادة كل ما فتحه النورمان من أراضى بيزنطيـة حتى كيفالونيا .

وقد ظل النورمان على عدائهم للدولة البيزنطية وظلوا يطمعون فى تدميرها وحين آل عرش النورمان إلى الامبراطور الالمانى هنرى السادس عن طريـق زواجه من الأميرة النورماندية كونستانس وريثة هذا العرش ، ورث ضمن ما ورث من تركة النورمان عداءهم للدولة البيزنطية ، بالاضافة لما كان يضمره

(1) Winkelmann : Philip Von Schwaben und Otto IV, Von Braunschweig, (Leipzig 1873 — 78) Vol. I, pp. 524 — 28.

الالمان أصلا من كراهية للبيزنطيين ، وكان هنرى السادس يحلم بوضع تاج خلفاء قسطنطين فوق رأسه ، وقد أعد حملة بالفعل وكان فى طريقه للقسطنطينية لولا أن حالت وفاته فى سن مبكرة دون إتمام هذاالمشروع . على أن شقيقه فيليب السوابى الذى خلفه فى حكم المانيا ، لم يستطع أن ينفذ سياسة هنرى السادس الحربية ضد بيزنطة ، وذلك بسبب اشتعال الحرب الأهلية فى المانيا بينه وبين منافسه أوتواوف برنسويك ، لذلك لجأ فيليب السوابى إلى سياسة مصاهرة العائلة البيزنطية الحاكمة ، وكانت هذه السياسة فرعا آخرا من خطط هنرى السادس العظيمة للفتح ، وعن هذا الطريق يؤول للالمان عرش بيزنطة فى يوم ما .

واستعرض نوردن بعد ذلك العداء بين الدولة البيزنطية والصليبيين الذى بدأ منذ تأسيس المملكة الصليبية فى الشام وفلسطين ، وموقف البيزنطيين من الحملات الصليبية حتى الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها امبراطور المانيا فردريك بربروسا ، الذى فكر فى فتح القسطنطينية بعد المتاعب التى أثارها أمامه البيزنطيون . وقد كان استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية مما يفتح الطريق أمامهم إلى الأراضى المقدسة ويساعدهم على الدفاع عن هذه الأراضى .

ثم إنتقل نوردن إلى استعراض العلاقات بين الدولة البيزنطية وجمهورية البندقية ، تلك العلاقات التى بدأت طيبة بعد وقوف أسطول البنادقة إلى جانب الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس أثناء صراعه البحرى مع روبرت جويسكارد ١٠٨١ . وفى العام التالى عقدت معاهدة بين الامبراطور وجمهورية البندقية ، وبمقتضاها حصلت البندقية على أول امتيازاتها التجارية العظيمة فى القسطنطينية ، وذلك عن طريق منحها حيا كبيرا لمواطنيها فى العاصمة ،

واعفائها من المكوس فى الموانى البيزنطية . ثم تطورت العلاقات بين الطرفين بشكل أدى إلى تفوق الجنوية والبيازنة على البنادقة فى القسطنطينية واستعادة البندقية لنفوذها فى عام ١١٨٥ فى عهد اسحاق انجيلوس ثم حرمانها من امتيازاتها فى عهد شقيقه مغتصب العرش اليكسيوس ، ورغبة البندقية فى استعادة هذه الامتيازات باشتراكها فى اعادة حليفها السابق اسحاق انجيلوس إلى العرش عن طريق توجيه الحملة الرابعة ضد القسطنطينية ، وانتقام دوق البندقية داندولو من البيزنطيين الذين تسببوا فى فقدانه بصره .

يضاف لذلك كله ، العداء الدينى بين الغرب اللاتينى وكنيسة روما وبين الشرق الهللينستى وكنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا ناقش نوردن قضية الحملة الصليبية الرابعة فى ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الغرب والشرق ، وأوضح العلاقة الخفية بين اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وبين تاريخ المائة والخمسين سنة السابقة .

من هذا العرض يتضح اختلاف وجهات النظر بين المؤرخين حول هذا الحدث التاريخى الخاص بإتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وفتحها وإقامة مملكة لاتينية بها ، بدلا من إتجاهها ضد مصر ومحاربة المسلمين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين .

وقد دفعت كثرة المناقشات التى ثارت حول هذا الموضوع ، المؤرخ

---

(1) Norden (w) Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zu Bysanz. (Berlin, 1898)- pp. 1 — 47.

الفرنسى أشيل لوشير إلى القول «ان علم التاريخ لديه أشياء أخرى يفعلها أفضل من مناقشات لا تنتهى حول مشكلة لا تحل» (١) .

ورغم أهمية هذه الآراء كلها وقيمتها الكبيرة ، إلا أننى أرى أن الأحوال الداخلية التى مرت بها الدولة البيزنطية فى هذه الفترة من تاريخها ، كانت هى المسئول الأول عن إنحراف الحملة الصليبية الرابعة وإتجاهها ضد القسطنطينية ، وذلك على النحو الذى سيتم توضيحه فى الفصول التالية من هذا البحث .

(1) Luchaire (A) : Innocent III , La question d'orient, Paris, Librairie Hachette, 1907, P. 97.



الفصل الثانى

مسئولية البيزنطيين

- انهيار القوة العسكرية
- انحلال الجهاز الادارى
- الصراع من أجل العرش



لقد عانت الدولة البيزنطية فى هذه المرحلة من تاريخها من عوامل متعددة كانت السبب فى اضطراب أحوالها الداخلية . وأفسحت المجال للغرب الأوروبى للتدخل فى شئونها وتحقيق أحلامه فى القضاء عليها :

وأول ما عانت منه الدولة كان ضعف قوتها العسكرية ، فان الجيش والاسطول اللذين كانا مثار فخر البيزنطيين فى عهودهم السابقة ، وحققت الدولة عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات ، أصبحا الآن على درجة من الاضطراب والضعف .

وإذا سلمنا بتلك العبارة التى وردت على لسان الامبراطور قسطنطين السابع ، والتى قال فيها «ان الجيش للدولة كالرأس للجسد إذا إنتابه الضعف تعرضت الدولة للخطر» ، أدركنا مدى الخطر الذى كان يتربص بالدولة البيزنطية نتيجة لذلك .

وكان الجيش فى العصر الذهبى للامبراطورية ، وأعنى به القسم الأول من عهد الاسرة المقدونية (١٠٦٧ — ١٠٢٥) ينقسم إلى قسمين : القسم الأول هو التاجماتا Tagmata وكان يرابط فى العاصمة وضواحيها . والقسم الثانى هو الثيماتا Themata أو جيوش الولايات : وكان يرابط فى الولايات .

وقد تكون القسم الأول (التاجماتا) من أربع فرق للفرسان هم الاسكلارية Scholas والاكسكوبيتر Excubitor والاريثموس Arithmos ، والهيكاناتاس Hicanatas كما ضم فرقة للمشاة عرفت باسم نوميرى Numeri

وكانت هذه الفرق الخمس تكون قوة الحرس الامبراطورى وتضم الواحدة منها ما يقرب من أربعة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل : وكان يرأس

كل فرقة ضابط برتبة دمستق Domesticus وقد أصبح قائد فرقة الاسكلارية ، القائد العام للجيش فى القرن العاشر الميلادى :

أما جيوش الولايات (الثيماتا) فكان يرأس كل جيش منها استراتيجوس Sterategus يختار من الطبقة العسكرية ، وكان يتولى حكم الولاية أيضا وبذلك جمع فى يديه بين الشئون العسكرية والمدنية .

وكان جيش كل ولاية ينقسم إلى قسمين أو ثلاثة يعرف كل قسم منها باسم تورما Turma ، أو الكتيبة ، ويعهد بقيادة كل منها إلى قائد يعرف باسم آمر الكتيبة Turmarchai ، والكتيبة تنقسم إلى سرايا Moira : وهذه تنقسم بدورها إلى عشر فصائل ، يعهد بقيادتها إلى رائد يطلق عليه اسم قومس Comes .

وبالإضافة لذلك وجدت قوات أخرى أسندت إليها مهمة الدفاع عن الحدود بما فيها من قلاع وابراج وتحصينات أخرى ، وقد أطلق على هذه القوات اسم Acritai كذلك وجدت فرق من المحالفين Foederati كانت تعسكر فى أقاليم الحدود ، وترافق الامبراطور عند الخروج للغزو .

وكانت التاجماتا أو الجيش المركزى يستخدم أساسا فى الهجوم ، فكان يصاحب الامبراطور أو دمستق القوات الاسكلارية عند القيام بحملة ما ، ثم تلحق به قوات من الولايات والحدود . أما جيوش الولايات الثيماتا فكانت تستخدم فى الدفاع شأنها فى ذلك شأن قوات الحدود .

وكانت الجيوش البيزنطية تتكون من الفرسان أولا ثم المشاة وقد انقسم كل منهما إلى قسمين فرق ثقيلة السلاح ، وفرق خفيفة السلاح ، فكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة فولاذية ودرعا من الزرد يكسوه من رقبته إلى

فخذيه ، وقفازا من الحديد ، وأحذية من الفولاذ ، كما تميز الضباط بوضع علامة فولاذية على الجبهة . وكان الفارس يحمل عباءة خفيفة ليرتديها فوق سلاحه أيام الصيف ، وعباءة فضفاضة من الصوف لتقيه برد الشتاء ، وكان سلاحه سيفا عريضا وخنجرا ورمحا وقوسا للرماية وجعبة للسهام ، وان كان ممن يقفون فى الصفوف الأولى ويقومون بالهجوم جعلت لحصانه درعا فولاذيا على صدره وعصابات من الفولاذ على جبهته :

أما الفارس ذو الاسلحة الخفيفة فكان عادة من الرماة ويرتدى سترة من الزرد .

أما المشاة ذوو الاسلحة الثقيلة فكانوا يلبسون دروعا من الزرد وخوذا فولاذية ، وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأسا ذات نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من الناحية الأخرى . وكان المشاة ذوو الاسلحة الخفيفة يلبسون قميصا طويلا من الزرد إلى الركبة أو دروعا خفيفة وكان سلاحهم السهام والحراب .

هذا ، ولم يزد تعداد الجيش البيزنطى عن مائة وعشرين ألف مقاتل ، منهم ما يقرب من السبعين ألفا كان عليهم واجب القتال فى الجبهة الاسيوية ، وكان الجيش يضم إلى جانب المقاتلين مهندسين متخصصين كان عليهم دراسة جميع العقبات الطبيعية التى يمكن أن يصادفها الجنود فى أرض المعركة والعمل على التغلب عليها ، كما كانت تصاحبه فرقة طبية ملكية : وكان هناك فرقة من الفرسان تابعة لقسم الخدمات الطبية مهمتها حمل الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش فى الخلف (١) .

---

(١) فيما يتعلق بالجيش البيزنطى ونظمه وأسلحته أنظر المراجع التاليه : =

كان ذلك عن نظام الجيش البيزنطى الذى خاض به أباطرة الدولةالبيزنطية العديد من المعارك وحازوا عن طريقه الكثير من الانتصارات . على أنه بعد وفاة الامبراطور باسيل الثانى فى ١٠٢٥ م ، خلفه على العرش أباطرة ضعفاء ونساء ، وهؤلاء جميعا لم يوجهوا للجيش ما يستحقه من الاهتمام والرعاية ، كما أنهم حاولوا التغلب على الأزمات المالية التى واجهتهم عن طريق تخفيض عدد الجيش ، الذى سار نتيجة لذلك فى طريق الضعف والإنهيار ، حتى بلغ من إهمال أمره أنه حينما تعرضت بعض المناطق على حدود الامبراطورية فى عصر قسطنطين دوقاس (١٠٥٨ - ١٠٦٧) للغزو تقرر إقامة الصلاة العامة ، والتمس الجميع من الله وقوع المعجزات ، وتبين للأباطرة أن شراء السلام من الأعداء ، أقل تكلفة من إعداد الجيوش لقتالهم (١) .

وقدا سنمرت هذه السياسة الخاصة باهمال الجيش ، وفى ساعات الخطر كان الاباطرة يلجأون إلى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الجنسيات المختلفة وكان لهذه السياسة خطورتها فان هذه العناصر كان لا يمكن الأطمئنان إلى ولائها التام ، فقد كانت على إستعداد دائماً لخدمة من يدفع الثمن الأعلى، دون النظر إلى مصلحة أى فريق من المتحاربين ، يضاف لذلك أن بعض هـذه

= Runciman : Byzantine civilization, pp. 136 — 148.

Guillon (A) : La civilisation Byzantine, Arthand, Pars, 1974, P. 164 — 172

Brehier (L.) : Les institutions de l,empire byzantin, Editions Albin Michel, Paris, 1970, 271 — 322.

(1) Foord : the Byzantine Empire, London, 1911, P. 319.

العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٢٥ .

العناصر كان يرفض القتال فى بعض الاحيان ، وأثناء اشتعال المعركة ، إذا كانت الامبراطورية تقاتل عدوا يربطها بتلك العناصر صلة الاصل الواحد ، كما حدث أثناء معركة منزيكرت فى ١٠٧١ م حين ألتى الجند المرتزقة من الأتراك الغز فى الجيش البيزنطى بأسلحتهم وإنضموا إلى جيش السلاجقة ، وكان ذلك من أسباب هزيمة الامبراطور رومانوس ديوجنيس فى تلك المعركة .

هذا إلى جانب أن أباطرة هذا العهد ركنوا إلى حياة الدعة والترف ، وإبتعدوا عن ميادين القتال ، وبعد أن كان الأباطرة أمثال باسيل الأول ونقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى يقودون الجيوش بأنفسهم فى ساحات القتال ويتحملون مشاق الحرب ، أصبح أباطرة هذا العصر يوكلون مهمة قيادة الجيوش إلى عناصر مرتزقة أيضا .

كان من نتيجة استخدام المرتزقة فى الجيش البيزنطى أن انحطت الروح القومية ، ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين أوف توديلا Benjamin of Tudela الذى زار القسطنطينية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، «ان اليونان يستأجرون جنودا من كل الأمم يطلقون عليهم اسم البرابرة ، ليست لديهم الروح العسكرية ، وهم كالنساء ، غير لائقين للأعمال الحربية» .

حقيقة أن تقاليد ونظم الجيش البيزنطى كانت لا يزال معمولا بها حتى عام ١٢٠٤ ، لكن الروح العسكرية القومية التى صنعت الكتيبة البيزنطية الناجحة التى حققت الانتصارات فى عهود القوة ، كانت قد اختفت (١) .

وقد كان من نتيجة الصراع بين الأسرة الحاكمة فى بيزنطة لمدة ربع قرن

(1) Pears : The Fall of Constantionple, PP. 211 — 212.

سابق على عام السقوط فى ١٢٠٤ أن أصبح الأباطرة عبيدا لجنودهم المرتزقة ، فقد أخذوا فى شراء تحالفهم بعطاءات كبيرة ، وأدى ذلك بالتالى إلى إزدياد قوة هؤلاء المرتزقة وجشعهم . وفى عام ١١٩٥ حين قبض اليكسيوس انجايوس على شقيقه الامبراطور اسحاق ووضعه بالسجن ، أخذ الامبراطور الجديد يغدق بلا حساب على أتباعه من المرتزقة ، وبعد أن فرغت أموال الخزينة الامبراطورية ، لجأ إلى توزيع أملاك الدولة على هذه القوات حتى ينال رضاءهم عنه وحمايتهم له (١) .

وقد بلغ من إنهيار الجيش البيزنطى فى عصر هذا الامبراطور أنه حينما قرر الامبراطور الألمانى هنرى السادس غزو القسطنطينية تحقيقا لأطماعه فيها ، تملك الذعر الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقرر أن يدفع ضريبة سنوية لهنرى عبارة عن مبلغ ضخم من الذهب ، وتحقيقا لذلك فرض اليكسيوس على كافة طبقات الشعب ضريبة الالمان .. German Tax وحينما رفض رجال السناتو ورجال الدين وعامة الشعب دفع هذه الضريبة ، لجأ إلى نهب خزائن الكنائس والذهب والفضة والجوهرات التى حليت بها مقابر الأباطرة الراحلين لكى يستعين بكل ذلك على شراء السلام مع الالمان بدلا من محاربتهم (٢) .

لكى هذا هو الحال بالنسبة للجيش البيزنطى فى الوقت الذى تعرضت فيه العاصمة البيزنطية للخطر من جانب الصليبيين ، ولم يكن الاسطول بأحسن حالا ، خاصة إذا علمنا أن البيزنطيين بصفة عامة وفى عصورهم المختلفة كانوا ينظرون للاسطول على أنه مساعد للجيش لا سلاحا قائما بذاته ، ومن ثمة فلم

(1) Pears : The Fall of Constantionple, P. 212.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 412. Pears : op. cit., P. 213.

يحظ الاسطول قط بنفس الأهمية ولا العناية التى حظى بها الجيش (١) .

وكانت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى عصرها الذهبى ، أى النصف الأول من عهد الأسرة المقدونية ، تتكون من أسطول حربى دائم يضم اسطولا مركزيا امبراطوريا ، وثلاثةاساطيل أقليمية .

وكان الاسطول الامبراطورى يتخذ مركزه عند القسطنطينية وترابط بعض قطع منه عند جزيرة متلين بقصد حراسة مضيق الهللسبونت ، وقد أصبحت هذه الجزيرة أكثر القواعد البحرية أهمية ، إذ كانت عائقا فى وجه نشاط المجاهدين المسلمين من كريت وبحر ايجة .

وكان يتولى قيادةالأسطول الامبراطورى ادميرال عرف باسم Drongarius of the Ploimen كان بمثابة القائد العام للبحرية .

أما الثلاثة الأساطيل الأقليمية ، فكانت أسطول ثيم كبير هايوت ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى المواجه للبحر الأبيض المتوسط ومهمته حماية الشواطىء الجنوبية للاناضول ضد غارات القوات الاسلامية القادمة من طرسوس والشام .

واسطول ثيم بحر ايجة ، ومهمته حماية الشواطىء الأوربية لهذا البحر .
واسطول ثيم ساموس ويتولى حماية الشواطىء الاسيوية لبحر ايجة ضد غارات مسلمى كريت .

---

(1) Runciman : Byzantine civilization, PP. 149 — 155.
لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤٥

وقد وجدت إلى جانب هذه الاساطيل قوات بحرية أقل أهمية من بعض الثغور مثل هيلاس والبلوبونيز وكيفالونيا وبامبلاجونيا .

وقد احتفظ كل اسطول أقليمى بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى ، وذلك على نفقة الاقاليم التى ترابط فيها هذه الاساطيل ؛ وفى أوقات الحرب كان على الثغور البحرية التى تقع فى مناطقها أن تمدها بكل ما يلزمها من سفن النقل والمؤن .

وكانت سفن الاسطول على أنواع منها سفن تدعى (درومونة) وهى سفينة ذات صفين من المجاديف ، وكانت تستخدم لحمل المقاتلين وكانت حمولتها تبلغ الثلثمائة مقاتل . و (البامفيليه) وهى سفينة سريعة الحركة غالبا ما كان قائد الأسطول يتخذ منها سفينته الخاصة . و (الغليون) Galley وبها صفوف مفردة من المجاديف . وكانت توضع فى مقدمة السفن آلات لقذف النار الاغريقية كما كان البحارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوى على نفس تلك المادة الكيماوية القاتلة الشديدة الانفجار .

وقد وجه البزنطيون إلى علم العمليات البحرية اهتماما كبيرا فدرس القادة البحريون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر وخصائص الرياح ، وكانت الاشارات تتم عن طريق الرايات واستخدام الأضواء ليلا ، كما كانوا يفضلون المناوشات المنفصلة على المعارك البحرية الفاصلة . أما حين يضطرون لخوض معركة وجها لوجه مع العدو فأنهم يفضلون حينئذ تنظيم الأسطول على شكل نصف دائرة :

هذا وقد لقى السلاح البحرى البيزنطى عناية كبيرة وذلك فى أواسط القرن العاشر الميلادى ، أثناء حكم الامبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩– ٩٤٤ م) الذى كان قائدا للاسطول البيزنطى قبل أن يثب إلى العرش الامبراطورى . ومن ثمة فقد اهتم بالقوة البحرية للامبراطورية ،وأخذ فى بناء سفن حربية أكثر ضخامة وأعظم قوة عن ذى قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطى الذى أصبح أداة فعالة فى يد نقفور فوقاس . ويمكن ملاحظة ذلك من الوصف الذى جاء لبعض سفن الاسطول الذى صاحب نقفور فى حملته على كريت الاسلامية فى يوليو ٩٦٠ ، فقد بلغت بعض السفن الحربية ان كان عدد المجدفين بها يبلغ ٢٥٠ بحارا ، وكان للسفينة الواحدة أربعة طبقات للمجاديف .

على أن الاسطول البيزنطى لم يلبث أن لقى إهمالا نسبيا وذلك فى الغالب ، لخوف الاباطرة من القوة المفرطة التى قد يبلغها قائد الأسطول حيث وجد رومانوس ليكابينوس فى أمرة الأسطول خير وسيلة يرقى بها إلى العرش .

يضاف لذلك عدم تعرض الامبراطورية لاخطار بحرية كثيرة من جانب القوى المنافسة لها مما جعل الابقاء على أسطول كبير ذى قوة فعالة يبدو اسرافا لا مبرر له فى نظر بعض الاباطرة (١) .

(١) بخصوص الأسطول البيزنطى فى الأزمنة التاريخية المختلفة ، أنظر المراجع التالية :

Runciman : Byzantine Civilization, PP. 149 — 155.

Guillon : La Civilization Byzantine pp. 172 — 175.

Brehier : Les institutions de l'empire byzantine, pp, 323 — 342.

لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ٢٤٢ — ٢٤٥ .

بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . حسين مؤنس ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

حقيقة ان البيزنطيين حافظوا على وجود الاسطول ، غير أنه أصبح على درجة من الضعف لا تسمح له بإحراز نصر بحرى على الاعداء ، وحين تعرضت الامبراطورية لخطر النورمان البحرى فى عهد اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨) لجأ هذا الامبراطور إلى الاستعانة بأسطول البندقية لدفع هذا الخطر ، وتمكن هذا الاسطول من تحطيم أسطول النورمان فى عام ١٠٨٥ م (١).

وقد سار الاباطرة اللاحقون لاليكسيوس على نفس تلك السياسة الخاصة بالاستعانة بأساطيل المدن البحرية الايطالية ، وخاصة البندقية . للدفاع عن سواحل الامبراطورية والقتال البحرى نيابة عن البيزنطيين ، حينما تستدعى الحاجة ذلك . واستمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٢٠٤ حين وقع الهجوم البحرى على العاصمة البيزنطية وكان هذا الهجوم بأسطول البنادقة أنفسهم ؛ أى أن الاسطول الذى تولى الدفاع عن العاصمة البيزنطية فى الفترة السابقة تحول الآن إلى خطر يهددها .

فى ذلك الوقت كان الادميرال ميخائيل ستروفنوس Michael Struphnos شقيق زوجة الامبراطور اليكسيوس الثالث متوليا شئون الاسطول البيزنطى وقد بلغ به الاهمال والجشع وعدم تقدير المسئولية ، إلى درجة أنه باع ذخيرة الاسطول كلها ، وبذلك أصبح الاسطول لا يستطيع القيام بأى دور فعال فى مقاومة الحصار البحرى للعاصمة البيزنطية من جانب اسطول البنادقة فى عام ١٢٠٤ م (٢) .

كان ذلك فيما يتعلق بضعف القوة العسكرية البيزنطية . وقد كانت الآثار

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. P. 358.

(2) Pears : The Fall oF Constantinople, p. 211.

المترتبة على ذلك خطيرة ، فحين تعرضت العاصمة البيزنطية للهجوم من جانب البنادقة والصليبيين فى عام ١٢٠٤ ، لم يتهيأ للعاصمة وجود الجيش أو الاسطول الكفء الذى يستطيع أن يضطلع بواجبه فى الدفاع عنها وإبعاد هذا الخطر الذى يهددها .

يضاف لذلك عامل آخر يتعلق بمسئولية البيزنطيين عما لحق بعاصمتهم على أيدى الحملة الصليبية الرابعة . وهذا العامل خاص بإنحلال الجهاز الادارى فى الدولة نتيجة لعدم كفاءة الاباطرة الذين تولوا العرش البيزنطى فى هذا العصر. ذلك أن عهد الاباطرة العظماء أمثال نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى ، كان قد إنتهى وتولى تصريف شئون الحكم أباطرة لا يتمتعون بأية كفاءة إدارية . ويكفى لإظهار ذلك عمل مقارنة بين أحد الأباطرة العظماء مثل باسيل الثانى وأباطرة عائلة انجيلوس .

يصف المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسيللوس : الذى كان قريب العهد بعصر الامبراطور باسيل الثانى هذا الامبراطور بقوله : أنه إمتاز بالنشاط الوافر والصلابة . كما إشتهر بمهارته العسكرية ، فكان فارسا شجاعا ملما بكل صغيرة وكبيرة فى شئون الحرب وتنظيم الجيوش ، كما إشتهر بالحزم وشدة المراس فى القتال وحرصه على أن يلتزم جنوده وقادة جيشه بتنفيذ أوامره حرفيا ، وكان ينزل أشد العقاب بمن يحيد عن تعليماته حتى وأن حقق للامبراطورية الانتصار عن هذا الطريق .

وقد عرف عن باسيل خروجه على القاعدة التى جرى عليها الأباطرة الذين سبقوه ، فى تحديد أوقات معينة لحملاتهم تقع عادة بين منتصف الربيع ونهاية الصيف ، ثم يعودون للعاصمة لقضاء فصل الشتاء بها ، فأنه لم يلتزم

بهذه القاعدة ، وإنما كانت عودته إلى العاصمة مرتبطة بإنجاز عمله وتحقيق الغرض الذى خرج من أجله . هذا ولم تقل كفاءة الامبراطور باسيل ومهارته الإدارية وتصريفه لشئون الدولة عن مهارته فى ميدان الحرب والقتال (١) .

أما يحيى الانطاكى — المؤرخ المسيحى الذى عاصره — فقدأجمل صفات الامبراطور باسيل الثانى فى عبارة موجزة وأن كانت تحوى الكثير من المعانى قال «أنه لم يزل فى جميع أيام ملكه مقتصرا فى مطعمه ومشربه وزيه لازما الحمية طوال حياته : ناظرا فى سائر أمور مملكته ما جل منها وما صغر ، وخلف من المال ستة آلاف قنطار مسكوكة . وكان جميع ما وجد من المال حين احتوى على الملك أربعة قناطير لا غير» (٢) .

فإذا انتقلنا إلى اباطرة أسرة انجيلوس ، وجدنا أن أولهم وهو اسحاق(١١٨٥ — ١١٩٥) كان من النوع الذى لا يهتم كثيرا بشئون الدولة . وقد أطلق لأتباعه العنان وسمح لهم بالتدخل فى تلك الشئون دون أى مراقبة منه أو إهتمام بما يجرى . وقد أصبح من الأمور العادية أن يتحدث الناس عن الموظفين الفاسدين فى العاصمة والولايات ، وفظاعة جباة الضرائب . وأخبارالرشاوى وبيع الوظائف ، ويقول المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس «ان الامبراطور اسحاق الثانى يبيع وظائف الدولة كما تباع الخضار فى السوق» .

وقد بلغ من حب هذا الأمبراطور للمال وإستهتاره بحقوق رعاياه أنه فرض على المقاطعات ضريبة خاصة لتغطية نفقات زواجه من شقيقة ملك هنغاريا ،

---

(1) Psellus : Chronographie, Traduit du grec par Renauld, Paris, 1926, Tome I, pp. 20 — 22.

(٢) يحيى الأنطاكى : صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ، ص ٢٤٩ .

وقد احتفل بهذا الزواج بأبهة وعظمة نادرتى المثال ، وكان ينظـر إلى الامبراطورية التى أوقعتها الاقدار فى قبضته نظرته إلى مزرعة خاصة يحق له استغلالها واستثمارها لصالحه وصالح أسرته (١) .

أما مائدته ، فإنها كانت يوميا مثالا للاسراف والبذخ ويصفهاخونياتيس بقوله أنها عبارة عن «غابات من الطيور وبحار من الاسماك ، وأنهار من الخمر وجبال من الخبز» (٢) .

وكان يرتدى فى كل يوم حلة جديدة ، ويوما بعد يوم يذهب لعمل ما نطلق عليه فى وقتنا الحاضر اسم «الحمام التركى» مستعملا فيه العطور الاخاذة ، ويخرج منه خروج العروس ، ويمشى مختالا كالطاؤوس . كما أنه كان مولعا بالخمر والنساء ، وأحاط نفسه بالمغنين والمهرجين .

وهكذا فاقت نفقات البلاط كل الحدود ، فى الوقت الذى كان دخل الخزينة الامبراطورية فى نقص مستمر ، وبالتالى لم يعد هناك موازنة بين الدخل والنفقات . ولكى يتغلب الامبراطور على ذلك لجأ إلى التردى فى إبتزاز الشعب عن طريق الضرائب ، والغش فى سك العملة ، وإلى نهب الكنائس ، وحتى الاوانى المقدسة نقلت من الكنائس إلى القصر لاستعمال الامبراطور وحاشيته ، كما جردت الأناجيل من الأحجار الكريمة والحلى النفسية التى استخدمت فى تجليدها (٣) .

أما شقيقه اليكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣) فلم يكن بأكثر كفاءة

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 401 — 402.
(2) Chon.ates (N) : Historia, ed Bonn, p. 579.
(1) Pears : The Fall of Constantinople, pp. 205 — 206.

منه ، فقد كان أبعد ما يكون عن الامبراطور الصالح لتصريف الشئــون الإدارية للامبراطورية ، ويمكن ملاحظة ذلك من هذه الكلمات التى وصفه بها خونياتيس إذ قال : «ان أية ورقة تقدم للامبراطور من أجل توقيعه كـان يوقعها مباشرة لا يبالى إذا كانت هذه الورقة تشتمل على مجموعة من الكلمات الفارغة ، أو ملتمسا يسأل الابحار فى الأرض ، أو الفلاحة فى البحر ، أونقل الجبال إلى وسط المحيطات،أو رفع جبل آتوس من مكانه ووضعه فوق قمة جبل اوليمبوس» (١) .

وهكذا فقد ساءت الأمور أكثر من السابق ، وحل الجوع والخــراب بسكان الريف نظراً لازدياد الضرائب عليهم ، وكثيرا ما كانت نفــس الضريبة تجبى ثلاث مرات فى العام الواحد ، وذلك لمواجهة نفقات البــلاط ودفع الأموال للأعداء لشراء السلام معهم . وقد وجد الأباطرة أن هــذه الطريقة أسهل واجدى من خوض معارك وحروب يعرفون سلفا أنهم لــن يكسبوها . هذا فى الوقت الذى كانت ولايات الامبراطورية معرضة لهجمات الأعداء وشواطئها مفتوحة أمام غارات القراصنة ورغم أن مساحة الأرض الخاضعة للدولة كانت تتقلص بإستمرار لما يستولى عليه الأعداء منها ، فان عدد المقاطعات التى قسمت إليها الامبراطورية قد تضاعف فى القرن الثانى عشر عما كان عليه أثناء حكم الأسرة المقدونية ، وأصبحت الامبراطوريـة مشكلة من وحدات إدارية صغيرة لا تشابه ما كانت عليه فى الماضى إلا فى الاسم فقط ، وقد أدى نمو الاقطاعات الخاصة إلى إزدياد نفوذ كبار مـلاك الأراضى على حساب نفوذ رجال الحكومة فى المقاطعات ، حتى أصبح المالك

---

(1) Chobiates : Historia, pp. 599 — 600.

الاقطاعى هو الحاكم الإدارى الفعلى فى مقاطعته ، وأدى ذلك إلى ظهور نوع من الامارات المستقلة عن الحكم المركزى التى يحكمها أكبر مالك للأرض فيها (١) ؛

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة تعانى من إنحلال جهازها الإدارى ، وإنتشر الشغب فى أنحائها سواء فى الولايات أو فى العاصمة نفسها . وقد زاد من تفشى هذا الشغب المعارك الدامية التى كثيرا ما قامت فى شوارع العاصمة بين الأجانب والأهالى ، وبين الاجانب بعضهم والبعض الآخر مثل المعارك التى غالبا ما كانت تنشب بين البنادقة والبيازنة (٢) .

على أن أهم الأخطاء التى ارتكبها البيزنطيون وتسببوا بها فى العمل على انحراف الحملة الصليبية الرابعة ضد عاصمتهم كان الصراع الذى قام بينهم من أجل الاستحواذ على العرش البيزنطى .

ويرجع ذلك الصراع إلى أواخر عهد الأسرة الكومنينية ، فقد تولى العرش الامبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٢ — ١١٨٠) الذى كان متأثرا إلى حد بعيد بأسلوب الفروسية الغربية ، وأحب العادات الغربية وأدخلها فى تقاليد البلاط البيزنطى . كما أنه تزوج من اميرتين غربيتين هما برتا الالمانية ، ومارى الفرنسية «التى فاقت أفروديت بعينيها الساحرتين ، وشعرها الذهبى ، وابتسامتها العذبة» (٣) الأمر الذى أضفى على قصره مظهراً غربياً وجعله يختلف عما كان عليه الحال زمن أسلافه ، بعد أن ساد فيه جو من المرح والتمتع بالحياة والبعد عن التقاليد ، وأقيمت المبارزات بين الفرسان على النحو الذى كان معروفا

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 402.

(2) Vasiliev : op. cit. p. 349.

(3) Choniates : Historia, p. 15.

فى الغرب الأوروبى فى تلك الفترة من العصور الوسطى ، واشترك الامبراطور مانويل بنفسه فى هذه المبارزات ، الأمر الذى أثار دهشة رعاياه البيزنطيين الذين لم يألفوا مثل تلك التصرفات من أباطرتهم السابقين ، وقد أدى هـذا الاتجاه نحو الغرب إلى إنفتاح حدود الامبراطورية البيزنطية أمام اللاتين الغربيين ، الذين تدفقوا إليها وزادت أعدادهم داخل العاصمة وقد تقلد عدد كبير منهم بعض المناصب العليا فى الدولة مما أدى إلى قلق وتذمر العناصر اليونانية داخل الامبراطورية (١) .

وبعد وفاة الامبراطور مانويل فى ١١٨٠ خلفه على العرش ابنه اليكسيوس الثانى الذى كان فى الثانية عشر من عمره فتولت الوصاية على حسب التقاليد المعمول بها والدته مارى الانطاكية، اللاتينية الأصل، وقد وقع اختيارها على ابن أخ الامبراطور الراحل ويدعى اليكسيوس وكان يحمل لقب Protosebastos (٢) ليساعدها فى تصريف شئون الامبراطورية ، نظراً لما كان يعرف عنه من تعاطف مع اللاتين وتأييد لسياسة التعاون معهم ، ولم يكن هذا اختياراً موفقا من جانب الامبراطورة مارى ، إذ أدى ذلك إلى أثارة المشاكل والانتقادات لسلوكها بين أفراد الأسرة الحاكمة من آل كومنين ، وأفراد الشعب على حد سواء (٣) .

---

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 380.

(٢) معنى هذا اللقب (الجليل الأول) وهو لقب شرف دون لقب قيصر Caeser ، وكان يسمح لحاملى هذا اللقب وزوجاتهم أن يتناولوا الطعام على المائدة الامبراطورية . أنظر عن ذلك :

Runciman : Byzantine Civilization, p. 84.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 394.

Hussey; Tht later macedonians, The comneni, and The Angeli, 1025—1204, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part 1, p.24.

يضاف لذلك أنه كان من الطبيعى أن تعمل مارى ويؤيدها اليكسيوس على التعصب لأبناء جنسها اللاتين مما زاد فى كراهية البيزنطيين للفئة الحاكمة وتطلعهم إلى التخلص منها ، وقد إنحصرت هذه الكراهية بشكل خاص نحو عنصرين منهم هما : التجار الإيطاليون الذين أثروا على حساب الشعب البيزنطى والعنصر الآخر هو الجنود اللاتين المرتزقة الذين اعتمدت عليهم الامبراطورة مارى ومنحتهم ثقتها ودعمها . وقد حاول أفراد أسرة كومنين أن يعملوا على التخلص من هذا الحكم اللاتينى عن طريق التخلص من مارى وصديقها اليكسيوس ، ونتيجة لذلك إندلعت فتنة داخلية فى مايو ١١٨١ ، ولجأت مارى إلى كنيسة آيا صوفيا للاحتماء بها ، وإنتهى الأمر بفشل هذه الفتنة ،لأنه لم يتهيأ لها زعيم له من الصفات ما يجعله أهلا للنجاح من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتدخل البطريرك ثيودوسيوس الذى عمل على إقرار الصلح بين الطرفين ووبخ مارى واليكسيوس على سلوكهما (١) .

عند ذلك بدأ اسم اندرونيكوس كومنين ، يلمع فى سماء الأحداث الجارية وقتذاك ، ويوضح المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس الموقف فى هذه الكلمات « وقبل كل شيء فأنني سوف أتذكر كيف أنه فى وقت الانزعاج والألم فان الامبراطورية الرومانية ، لجأت إلى عزيزها السابق اندرونيكوس العظيم ، لتحطيم إستبداد اللاتين الجائر الذين مثل الاعشاب الطفيلية فرضوا أنفسهم على الفرع الصغير للامبراطورية . جاء سريعا ، ولم يحضر معه أعداد كبيرة من الاتباع أو المشاه أو الفرسان ، ولكنه تسلح فقط بالعدالة ، سائرا دون تردد نحو المدينة الحبيبة ، وأول ما منحه للعاصمة كان

---

(1) Brehier : Byzance, pp. 342 — 343.
Ostrogorsky : op. cit., p. 395.

تخليصها من الطغاه اللاتين المتعجرفين ، وتنظيف الامبراطورية من خليط البرابرة بدافع من حبه الطاهر» .

أما عن اندرونيكوس هذا الذى تركزت حوله آمال البيزنطيين فى ذلك الوقت العصيب ، فهو ابن عم الامبراطور الراحل مانويل كومنينوس ، ويصفه المؤرخون بأنه كان رائع الصفات ، ذا ثقافة عالية . ذكيا فصيحا ، شجاعا فى ميدان الحرب ، على دراية واسعة بالشئون الإدارية للامبراطورية ، وإن كان مما عرف عنه أيضا إسرافه فى المغامرات العاطفية التى كانت مثار أحاديث الناس فى بيزنطة .

وكان التنافس بين اندرونيكوس ومانويل قديما ، فقد وقف الأول من الثانى موقف التحدى والمعارضة لسياسته الخاصة بمحاولات التقرب من الغرب كما كان عدوا للطبقة الارستقراطية الاقطاعية . وقد كان اندروتيكوس يطمع فى العرش ، لذلك تآمر ضد سلامة ابن عمه الامبراطور ، وكان من نتيجة هذا الخلاف كله أن اضطر اندرونيكوس أن يعيش حياة التشرد والترحال والهرب الدائم من وجه الامبراطور ، بعد أن سجنه فى القصر لمدة تسع سنوات وقد لجأ إلى أحد الأمراء الروس ومكث عنده فترة من الزمن ، ثم عاد للعاصمة ونجح فى كسب ود الامبراطور مانويل ، الذى أكرمه ومنحه الكثير من العطايا ، ثم أرسله إلى إقليم قيليقية لجمع خراجه وخراج جزيرة قبرص وقد أنجز اندرونيكوس مهمته بسرعة وبدلاً من العودة للعاصمة توجه إلى انطاكية وخطب فيليبا Philippa شقيقة الامبراطورة مارى زوجة مانويل ، غير أنه تركها دون سبب ظاهر ، وذهب إلى فلسطين فى ١١٦٧ ، حيث قام بمغامرات عاطفية مع ثيودورا أرملة الملك بلدوين الثالث التى كانت تعيش فى عكا بعد وفاة زوجها ، وقد ذهب بها إلى بلاد المسلمين ، حيث أنجبت

له طفلا ، ثم تركا هذه البلاد ، واتجها إلى جورجيا وتحالف اندرونيكوس مع الأتراك ضد الامبراطور مانويل على أنه لم يلبث أن عاد إلى العاصمة البيزنطية تائبا مترا ميا عند قدمى الامبراطور ، الذى عينه حاكما لأقليم بونطس Pontus ورغم تقدمه فى العمر بعدأن تجاوز الستين إلا أنه ظل يحلم بالحكم (١) .

حين علم اندرونيكوس بما عليه الوضع فى العاصمة ، جمع قواته القليلة العدد واتخذ طريقه إلى القسطنطينية ولم يلق مقاومة تذكر ، بل أنه لقى الكثير من التأييد وإنضم إليه كثير من المؤيدين خاصة بعد أن أعلنها حربا قومية دينية بأسم اليونان، والأرثوذكسية. وفى ربيع ١١٨٢ م وصل بقواته ومن إنضم إليه أثناء زحفه إلى خلقيدونية وعسكر فيها . وقد حاول اليكسيوس المسيطر على الأمور فى العاصمة أن يمنع تقدم اندرونيكوس عن طريق إغلاق البوسفور فى وجهه معتمدا فى ذلك على الأسطول الذى كان أغلب رجاله من اللاتين . غير ان قائد الأسطول سرعان ما أتخذ جانب اندرونيكوس وإنضم إليه ، وفى نفس الوقت إندلعت فتنة خطيرة فى القسطنطينية فى سبتمبر ١١٨٢ وقبض الأهالى على البروتوسباستوس اليكسيوس وسملوا عينيه وأودعوه بالسجن ، وقاموا بمهاجمة بيوت اللاتين فى العاصمة ونهبوها وأحرقوا متاجرهم ، واعملوا فيهم يد الذبح ، وكان القتل نصيب كل لاتينى لم يستطع الفرار قبل ان تصل إليه يد الأهالى (٢) .

---

(1) Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manual Comnenus, Translated to English by Chales M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976, Book V, pp. 175 — 176, Book VI, pp. 188 — 189.
Hussey : op. cit., p. 244.
Ostrogorsky : op cit., p. 395.

(2) Hussey : op. cit., p. 244.

وهكذا شق اندرونيكوس طريقه إلى العاصمة وسط مذبحة مروعة سالت فيها دماء اللاتين ، وكانت هذه المذبحة تنفيثا عن كل ما عاناه البيزنطيون من عجرفة وتسلط هذا العنصر على الحكم .

وقد أعلن اندرونيكوس أنه انما جاء ليخلص الامبراطور الشرعى القاصر اليكسيوس الثانى من شرور أمه وآثامها ومن أجل ذلك أجبر الأمبراطور الصغير على أن يوقع بيده على وثيقة إعدام والدته الامبراطورة مارى وشقيقته مارى ابنة مانويل الأول (١) ، وقد لقى حتفه معها عدد كبير من اللاتين الذين اعتمدت عليهم الامبراطورة أثناء فترة وصايتها على العرش البيزنطى (٢)

وفى سبتمبر عام ١١٨٣ م توج اندرونيكوس كامبراطور مشارك فى الحكم للامبراطور اليكسيوس الثانى ، ولم يمضى شهران على تتويجه حتى تخلص من الامبراطور الشرعى بالقتل ، ولكى يضفى على حكمه شرعية أكثر تزوج من أرملة الامبراطور الصغير وكانت تدعى آجنى — آنا Anna-Agnes — وهى ابنة لويس السابع ملك فرنسا — وكانت آنذاك فى الثانية عشر من عمرها أما اندرونيكوس فكان فى الثالثة والستين (٣) .

بعد ان تربع اندرونيكوس على العرش البيزنطى أخذ على عاتقه القيام بالعديد من الاصلاحات الإدارية فى الدولة وكان رائده فى اصلاحاته تلك أنه «ليس هناك اعوجاج لا يستطيع الامبراطور تقويمه ، وليس هناك ظلم لا يستطيع الامبراطور دفعه» (٤) وينقسم عهد اليكسيوس إلى مرحلتين ، المرحلة

(1) Hussey : op. cit., II, p. 244.

(2) Ostrogorosky : op. cit., pp. 395 — 396.

(3) Hussey : op. cit., p. 244.

(4) Ostrogorsky : pop. cit., p. 396.
Vasiliev : op. cit., p. 433.

الأولى : كان يقوم فيها باصلاح الفساد وإنزال العقاب بمسببيه ، وأما المرحلة الثانية : فقد تحول فيها عمله فى الاصلاح إلى تعطش للدماء ولجوءه إلى العنف بدون مبرر . بدأ اندرونيكوس بنشاط إصلاحى كبير ، فزاد رواتب الموظفين حتى يحميهم من إغراء الرشاوى ، وعين قضاة إشتهروا بالسمعة الحسنة ، كما قام بتخفيف أعباء الضرائب وانزل عقابه بمن لا يلتزم الأمانة من جباتها ، والذين يحققون مكاسب شخصية عن طريق إبتزاز الفلاحين ، وكان لذلك أثره فى تحسين الأوضاع فى مقاطعات الامبراطورية ، وجعل الفلاحين يشعرون بالأمان والراحة اللذين حرما منهما زمنا طويلا ، ويقول نقيتاس خونياتيس : «أن الفلاح الذى كان يعطى مالقيصر لقيصر ، كان لا يمس بأى سوء ، وكان لا يحرم ، كما كان الحال من قبل ، من آخر قميص على جسده ، ولا يعذب حتى الموت ، لأنه كان لاسم اندرونيكوس فعل السحر فى إبعاد جباة الضرائب الجشعين عن الفلاحين الضعفاء» . ونتيجة لذلك زادت شعبية اندرونيكوس وألف الشعب أشعارا له يمجدون أعماله ويتغنون بها .

ومن أمثلة ذلك ما قاله ميخائيل اكوميناتوس ممجدا الامبراطور : «منذ زمن بعيد ، ونحن مؤمنون بأنك لطيف مع الفقير ، مرعب الجشع ، لأنك حامى الضعيف ، وعدو للمعتدين ، لأنك لا ترغب فى أن يميل ميزان العدالة يمينا أو يسارا ، ولأنك صاحب الأيدى الطاهرة التى لم تتاوث بالرشاوى قط» .

على أنه بمرور الوقت أخذ عداء اندرونيكوس للطبقة الارستقراطية يزداد عنفا وقد حارب اندرونيكوس كل من ينتمى إلى هذه الطبقة سواء بالمولد أو بالثروة . وتحولت مطاردته لهذه الطبقة إلى مذبحة جماعية ، مما أدى إلى فرار كثيرين منهم إلى إيطاليا ، وهناك حاولوا اشعال نيران العداء بين الإيطاليين وبيزنطة ، كما أن الجمهوريات التجارية الإيطالية التى قاست الكثير

من جراء خسائرها وخصوصا خلال مذبحة عام ١١٨٢ التهب شعور كراهيتها للبيزنطيين وحقدها عليهم (١) .

وقد استغل حاكم صقلية وليم الثانى هذه الظروف المضطربة فى بيزنطة وجهز حملة ضدها فى ١١٨٥ وكان هدفه من هذه الحملة الانتقام لمذبحة عام ١١٨٢ ، وكذلك الاستحواذ على العرش البيزنطى ، وقد استولى وليم الثانى على دورازو Dorazzo ثم اتخذ النورمان طريق Via Egnatia وساروا نحو سالونيك ، وحاصروها برا وبحرا لمدة عشرة أيام وفى اغسطس عام ١١٨٥ سقطت هذه المدينة الهامة فى أيديهم ، فتعرضت للنهب والتخريب واجرى النورمان بها مذبحة مروعة إنتقاما لمذبحة عام ١١٨٢ . وبعد أن مكث النورمان عدة أيام ، إتخذوا طريقهم نحو القسطنطينية .

عندما وصلت انباء استيلاء النورمان على سالونيك واقترب قواتهم من العاصمة البيزنطية ، ثار الأهالى على الامبراطور اندرونيكوس الذى لم يتخذ الاجراءات اللازمة لمقاومة الأعداء، وفى الوقت الذى كان اندرونيكوس خارج العاصمة يقوم برحلة لهو فى جزر الأمراء القريبة منها ، إندلعت فتنة خطيرة فى العاصمة فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥ تزعمها أحد أفراد الطبقة الارستقراطية التى طالما تعرضت لنقمة اندرونيكوس وكان هذا الشخص هو اسحاق انجيلوس الذى استولى على القصر الامبراطورى واعتلى العرش ، وحين عاد اندرونيكوس إلى العاصمة دفع به اسحاق إلى الجماهير الثائرة فمزقه أربا (٢) .

---

(1) Vasiliev : op. cit., Vol. II, pp. 437 — 438.

(2) Hussey : op. cit., 11, p. 438.
Vasiliev : op. cit., Vol. II, p. 438.

لم ينتهى الصراع الداخلى من أجل الاستحواذ على العرش بإنتهاء الأسرة الكومنينية فى ١١٧٥ . وإنما استمر كذلك وبشكل أ كثر خطورة فى عهد أسرة انجيلوس . ففى سنة ١١٩٥ قام اليكسيوس انجيلوس وخلع شقيقه الامبراطور اسحاق وسمل عينيه وقبض عليه هو وابنه الصغير الذى يدعى اليكسيوس أيضا . وسجنهما . واعتلى العرش . ولم يلبث ان فر الابن اليكسيوس على ظهر سفينة بيزيه فى نهاية عام ١٢٠١ م ، ولجأ إلى الغرب الأوروبى طالبا مساعدة اللاتين ضد عمه الذى اغتصب العرش من والده(١)

وهكذا تطور الصراع الداخلى حول العرش بشكل أدى إلى إستعانة البيزنطيين أنفسهم بالغرب اللاتينى ؛ وبذلك مهدوا الطريق لأسقاط عاصمتهم

وصل الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى صقلية ومنها إلى روما ، حيث التمس مقابلة البابا اينوسنت الثالث ، ومثل أمام البابا والكرادلة حيث شرح للجميع مشكلته وطلب تأييد البابا ومعاونته له من أجل إستعادة عرش بيزنطة.

على أن هذه المقابلة لم تحقق للأمير اليكسيوس ماكان يأمل فيه،وكل ما فعله البابا اينوسنت أنه زوده بالنصح والإرشاد ، ويبدو أن البابا حاول أن يثنيه عن عزمه على الالتجاء للقوه من أجل إسترداد حقه ، فأنسحب من أمام البابا عازما على التوجه إلى فيليب السوابى ملك ألمانيا ، الذى كان متزوجا من الأميرة البيزنطية ايرين انجيلوس . ابنة اسحاق وشقيقة الأمير اليكسيوس .

وقد أوضح البابا اينوسنت هذا الأمر فى خطابه إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ بقوله : «.. أن اليكسيوس المذكور ،

---

(1) Choniates : Historia, pp. 710 — 712.
Runciman : A histroy of Crusades, Vol. 3, p. 112.

حينما جاء إلى حضرتنا ، فيما مضى ، مثل إمامنا وإمام أخواننا ، مع كثير من النبلاء الرومان ، وقد تقدم بشكوى خطيرة يؤكد أنك قبضت على والده ظلما وبدون حق الحقت به العمى ، وسجنت كلاهما لمدة طويلة . ولأنه لايستطيع أن يلتمس العون من أحد اسمى منا ، ولأننا مثل الرسول ، مديونون للغبي مثل العاقل ، كان لابد أن نحقق له العدالة » .

وحينما اجبناه ، طبقاً لما نراه صالحا ، انسحب من عندنا متوجها بخطى سريعة إلى فيليب – زوج شقيقته – المذكور » آنفا (١) .

وفى طريقه إلى المانيا ، مر الأمير اليكسيوس ، بمدينة فيرونا فى لمبارديا ، وهناك علم بوجود جيش صليبى كبير مجتمع فى البندقية ، فى طريقه إلى الشرق لأسترداد الأراضى المقدسة من يد المسلمين ، وهنا راقته فكرة الاستعانة بهذا الجيش الصليبى من أجل مساعدته فى استرجاع العرش البيزنطى .

فقد روى مؤرخ الحملة فيلهاردوين ، أنه أثناء مرور اليكسيوس بمدينة فيرونا ، أوضح له أعوانه المرافقون له ، والذين سبق أن يسروا له سبيل الفرار من سجنه ، أن هناك جيش من الصليبيين مجتمع فى البندقية ، وأوحوا إليه بفكرة الاستعانة به فى استعادة ملك أبيه فقالوا له : «مولانا ، هنا فى البندقية ، القريبة منا ، جيش مؤلف من أفضل وأشجع العناصر والفرسان فى العالم ، وهم ذاهبون إلى الأراضى المقدسة ، استنجد بهم من أجل مساعدتك ، أنت ووالدك الذي ابعد عن سلطانه قهرا ، وإذا رغبوا فى مساعدتك فأنهم سيبذلون

---

(1) Innocent III : Epistolae, in Patrologia Latina ed. Paris, 1855, Vol. CCXIV 1123 — 1124.

لك النصح والأرشاد ، ربما أخذتهم . . . ثقة على حانك » (١) .

وقد أعجب الأمير اليكسيوس بالفكرة ورحب بها وبالفعل أرسل رسلا من أتباعه إلى الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات قائد الحملة وللبارونات الآخرين ، وبعد أن استمع هؤلاء جميعا لرسل الأمير البيزنطى ، وماعرضوه عليهم خاصا بمساعدتهم لأليكسيوس فى إستعادة العرش البيزنطى . أجابوا على هؤلاء الرسل بقولهم : «لقد فهمنا جيدا ، ما ذكر تموهلنا ، وسوف نرسل رسولا من طرفنا مع الأمير ، إلى الملك فيليب ، حيث هو ذاهب اليه ، وإذا الأمير رغب فى مساعدتنا فى إستعادة الأراضى المقدسة ، فأننا سوف نساعده فى استرداد عرشه ، لأننا نعلم أنه اغتصب منه ومن والده ظلما» (٢) .

ولم يكن الأمير ، بطبيعة الحال ، ليبخل عليهم ببذل الوعود المغرية من أجل أن يحصل على مساعدتهم له ، وهكذا وضع هذا الأمير البيزنطى أول فصل من فصول المأساة التى حلت بالقسطنطينية على يد الحملة الصليبية الرابعة.

أما قصة هذه الحملة والتطورات التى حدثت وإنتهت بسقوط العاصمة البيزنطية فى يد اللاتين ، فسيتم شرحها بالتفصيل خلال الفصلين التاليين من هذا البحث .

---

(2) Villehardouin : La conqueste de Constanitinople par les Barons Francais associez aux venitiens L'an 1204. English Translatoin by Sir Marzials, London, 1965, p. 18.



الفصل الثالث

الحملة الصليبية الرابعة وبداية انحرافها

- البابا اينوسنت الثالث والدعوة للحملة .
- الاستعانة بأسطول البنادقة لنقل الحملة للشرق .
- تولى بونيفيس أوف مونتفرات قيادة الحملة .
- انحراف الحملة ضد مدينة زارا المسيحية .



فى سنة ١١٩٨ ، تولى كرسى البابوية واحد من المع البابوات الذين تولوا هذا المنصب فى العصور الوسطى ، وهو لوثر اوف سيجنى Lothar of Segni الذى عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمى إلى عائلة رزمانية عريقة هى عائلة Conti سادة مقاطعة سيجنى ، وكان يبلغ السابعة والثلاثون من العمر حين تولى منصب البابوية (١) .

وقد درس اللاهوت فى باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين فى هذا العلم ، كما درس أيضا القانون فى بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون فى ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث فى هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية فى ايطاليا وعبر جبال الالب ، وليحمى السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية ، وفى ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية فى الغرب الاوروبى وادبرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، فبينما خلف البابا جريجورى السابع «مرارة الحزن وعظيم القلق» نجد ان اينوسنت الثالث جعل من البابوية «المركز الاكثر تمجيدا على وجه الأرض» وذلك لأن البابا نائب المسيح ؛ وخليفة بطرس ؛ الذى ليس له نظير بين البشر ، فهو بصفته نائب المسيح يعتبر «ملك الملوك وسيد السادة» ، وهو يجمع فى شخصه بين السلطتين الدينية والدنيوية ، لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الألهى . وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة فى كل شيء وهو ما يعرف باسم ... Plenitudo Potestatis

وكان من رأيه ان ابابا هو القاضى الأعلى فى الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء ، فهو يمثل القانون الجنائى فى الأمور المدنية ، كما يمثل القانون

---

(١) أنظر الصورة رقم (١) للبابا اينوسنت الثالث .

الكنسى فى الأمور الدينية . ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليهـا الناس شكاواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره «تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر» .

ومن اقواله عنها «الابرشيه ، انا املك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الامم والممالك : ترفع وتخفض ، تقهر وتخرب ، تزرع وتشيد» .

وادعى البابا اينوسنت الثالث ، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت البابوية بشيئين هما :ـ Principaliter et finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل : finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الحبر الاعظم ، البابا .

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شيء التى نادى بها اينوسنت الثالث ، كان أول بابا يدعى الحق فى انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط ، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام ، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبى . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءا من اربعين ($\frac{1}{40}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها

واقطاعاتها ، هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التي ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين فى مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية فى القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادىء جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد إلى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية .

والمعروف ان البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثانى ملك انجلترا ، ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه ، التفت اينوسنت إلى البارونات الانجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم ، فضرب بهذا العهد عرض الحائط ، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذى حافظ على حقوق فردريك الثانى فى مملكة صقلية ، واشعل حربا مروعة فى المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشيئة الكنيسة ولصالحها (١) . وحاول جاهدا القضاء على

(١) بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية فى عهده أنظر المراجع التالية :-

Jacob (E) : Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp. 1 — 6.

Barrachough (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112 — 114.

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٩ — ١٠ .

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

الهرطقة الالبيجنسية التى انتشرت فى جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى أهلها (١) .

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه محو اثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبين فى الشرق ، تلك الانتصارات التى توجت بمعركة حطين فى ١١٨٧ م ، والعمل على استرجاع بيت المقدس من يد المسلمين . وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير ، دعا فى منتصف سنة ١١٩٨ إلى الإعداد لحملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة .

---

(١) الالبيجنسية حركة دينية ظهرت فى جنوب فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصحابها ينسبون إلى مدينة البى Albi فى كونتية تولوز فعرفو بأسم الالبيجنسيين Albigensians وأطلق عليهم كذلك اسم الكاثاريين Cathari أى المتطهرين ، كانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين ونادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الاراء التى خالفت تعاليم الكنيسة ، مما جعل الموقف بينها و بينهم مسألة حياة أوموت ، قد حاول البابا اينوسنت الثالث إقناع هؤلاء الهراطقة فى أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة فأرسل بعض الوعاظ على رأسهم مقدم ديرسيستو و مندوب من قبل البابا نفسه الى جنوب فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ، لذلك أخذ البابا يدعو لحملة الصليبية ضد هؤلاء الهراطقة وقامت هذه الحمله بالفعل فى سنة ١٢٠٩ ونجحت فى مهمتها ، مما دفع البابا الى عقد مجمع دينى فى ١٢١٧ قرر منح قائد هذه الحملة وهو سيمون دى مونتفورت أحد أمراء فرنسا ، دوقية تولوز وغيرها من الدوقيات المجاورة مكافاة له على نجاحه فى القضاء على هذه الحركة . عن ذلك المراجع التالية :

Lavise : Histoire de France, Paris, 1911, Tome 3, Premiere Partie, p. 262 — 277.

Painter (s) : A History of the Middle Ages, New York. 1954, p. 306.

سعيد عاشور : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٢ . ج ١ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

وقد أرسل البابا إلى ايمار Aymar بطريرك مملكة بيت المقدس يأمره بارسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف فى بلاد الشام وبصفة خاصة مدى قوة حكام المسلمين (١) .

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع الاباطرة والملوك المسيحيين من أجل دعوتهم للاشتراك فى هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثالث انجيلوس يدعوه للمساهمة فى هذه الحملة وأكد البابا للامبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك فى هذه الحملة خاصة وان قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء فى خطاب البابا اينوسنت إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث قوله : «من يستطيع أن يفعل أكثر منك ؟ أنظر قربك من الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة ، ثروتك وقوتك ، ضع كل الاعتبارات الأخرى جانبا ، وجىء لمساعدة يسوع المسيح ، ووطنه الذى فاز بدمه . أن المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك ، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين فى مساعدة البابوية» .

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على موضوعين ، احدهما موضوع اشتراك البيزنطيين فى هذه الحملة الجديدة ؛ أما الموضوع الآخر فهو اتحاد الكنيستين . وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا باحترام بالغ . لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجد صداطيبا لدى الامبراطور

(1) Luchaire : Innocent III : La queslion d'Orient, p. 15.

كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهى الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين .

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضى البيزنطية منذ سنوات قليلة ، أقسم على عبور تلك الأراضى بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور، ولكنه نقض قسمه ، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين ، وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتدون على الأراضى البيزنطية ، ويرفعون السلاح على المسيحيين بها ، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويجلبون على أنفسهم بذلك غضب الله ، وأن من صميم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال (١) .

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضى المقدسة ، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك .

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين ، فلم تسفر المفاوضات عن شيء ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه فى هذا الموضوع ، وهو أن الاتحاد الأفضل لابد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى ، وأن كنيسة روما تطمع فى أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية ، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية . لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا يخص

---

(١) أشار البابا اينوسنت الثالث فى خطابه إلى الإمبراطور اليكسيوس الثالث فى فى ١٦ نوفبر ١٢٠٢ إلى ماجاء فى خطاب الامبراطور للبابا ، أنظر عن ذلك . :

Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol. CCXIV, Cols. 1123 — 1124.

كنيسة روما ، ولكنه خاص بكنيسة أورشليم ، وبالتالى لا حق لروما ادعاء السيادة على كنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطى للاشتراك فى الحملة الصليبية نجاح يذكر ، أما فى الغرب الأوروبى فقد صادفت الدعوة نجاحا أكثر ، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة ، كما وضع صندوق فى كل كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها .

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشترك فى هذه الحملة ، فقد شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثانى ملك انجلترا بالصراع الذى اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلها الداخلية من جهة أخرى (٢) . أما فيليب السوابى ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على العرش الالمانى أوتو اوف برنسويك ابن هنرى الأسد (٣) .

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة فأشترك فى هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان فى فرنسا مما جعل الطابع الفرنسى يطغى على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من انجلترا والمانيا ،

---

(1) Pears : The Fall of Constantinople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 226 — 227.

(2) Lavise ; Histoire de France, Parie 1911, Tome 3, Premiere partie, pp 112 — 290.

Painter (s) ; A History of the Middle Ag.s, New York, 1954, p. 253.

(3) Austin Lane'Poole ; Philip of Swabia and Otto Iv, in C.M,H. ed Hussey, London, 1975, Vol, VI, Part 1, pp , 44 — 71.

والفلاندرز وصقلية (١) . وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبنى وبرى Thibout Count of Champagne and Brie. الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره آنذاك ؛ كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفرى فيلهاردوين (٢) .

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هى تحديد وجهة الحملة ، وقد انقسموا إلى فريقين ، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها ، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هى مصر ، على أساس أنها الخطر الحقيقى الذى يهدد الصليبيين فى الشام ، بما لها من امكانيات مادية وبشرية ضخمة استعان بها الايوبيون على محاربة الصليبيين . هذا بالاضافة إلى أن اعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين فيما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولا لأنهم عندئذ سيقعون بين فكى الكماشة حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق فى نفس الوقت للقضاء عليهم .

هذا فضلا عن وجود عدد كبير من التجار الايطاليين فى موانىء دلتا النيل وبصفة خاصة فى مدينتى دمياط والاسكندرية ولاشك أن هؤلاء التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية ، فى حالة حصار الصليبيين لبيت المقدس ، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطىء مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين ، ثم بعد ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس ، أما عن طريق القوة ، أو عن طريق المساومة .

---

(١) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التى اشتركت فى هذه الحملة ، أنظر عن ذلك :

Villehardouin : op. cit., pp. 2 — 3.

(2) Ibid : p. 2.

ولهذه الاسباب كلها ، تم الاتفاق على أن تكون مصر هي مقصد الحملة الصليبية الجديدة (١) .

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر . وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول ، وذلك نظرا للمركز الكبير والهام الذى كان للبندقية فى هذه الفترة . فقد كانت آنذاك فى أوج قوتها ومجدها وثرائها . وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم فى عمليات النقل التجارى بين الشرق والغرب ، وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الاسطول يقوم بدور هام فى نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهم البندقية كان هو الكسب المادى الذى تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل ، أما الصالح الصليبى والبابوية والأراضى المقدسة فهذه كلها ألفاظ جوفاء فى نظر البنادقة لن يجنوا من ورائها الافساد تجارتهم وكساد نشاطهم ؛ لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين . وتقديم خدماتهم للجميع ، على الرغم من المنشورات الصريحة التى كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار فى المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته .

---

(1) Grousset (R). : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol. III p. 171.

Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Prat 1, p. 276.

Runciman (S) : A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1966, Vol. 3, p. 113.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن ، وقد روعى فى بناء سفنها التجارية امكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب . وكانت أساطيلها التجارية تجتمع فى شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين فى العام فى مواعيد محددة ثابتة تحت اشراف أحد كبار موظفى الحكومة .

وكان هناك خمس قوافل رئيسية ، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية وقافلة الشام ، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الاسود ، وقافلة الفلاندرز فى شمال أوربا .

وفيما يتعلق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى الاسكندرية مرتين فى السنة ، واحدة فى الخريف والثانية فى شهر يناير ، وتتكون كل قافلة من ثمانى إلى ثلاث عشرة سفينة. وكانت جالية البنادقة بالاسكندرية من أكبر الجاليات عددا وأكثرها ثراء ، وكان لهم حى خاص ينزلون به واشتمل هذا الحى على عدد من الخانات وهى عبارة عن مبانى فخمة مربعة على شكل حصون ، ولها فناء داخلى تجتمع حوله الحوانيت فى الدور الأرضى وأعلاها مساكن التجار .

أما عن التنظيم السياسى للبندقية ، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهورى ، وكان الاسم الرسمى لها هو «جمهورية سانت مارك» نسبة إلى القديس مرقص ، والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية، لكن اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها فى سنة ٨٢٨ م . ونقلوها إلى البندقية ، وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان مارتشياكو Justinian Particiaco كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس ، وعرفت باسم كنيسة سانت مارك ، وأصبحت مركزا للحياة الدينية فى البندقية .

وكان على رأس الجهاز الحكومى للبندقية الدوق Doge الذى يلى

منصبه مدى الحياة ، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدرا لها . وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى ، مثل مجلس العشرة ، والمجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ والمجمع ، ومجلس الدولة . وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة ، حتى يتسنى تنفيذ الأمور فى سرعة وحسم بعيدا عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية .

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مترفة ، ودأب على الاحتفال بمختلف الاعياد الدينية والقومية ، وأقامت الحكومة للشعب مسرحا عظيما شغف بـه الأهالى شغفا كبيرا ، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التى كانت تبهر بها أوروبا بأسرها .

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت فى ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية ، حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوربية للطابع البيزنطى ، وقد تجلى ذلك بوضوح فى كنيستها الشهيرة سانت مارك St Mark التى كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا فى القسطنطينية . وكذلك فى غيرها من المنشآت والمبانى . وقد تمتعت البندقية بمركز خاص فى القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التى حصلت عليها هناك ، ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما .

على أنها بدأت تعانى من المشاكل مع القسطنطينية فى السنوات الأخيرة ، وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستاها جنوا وبيزا فى العاصمة البيزنطية ، وعلى الأخص فى عصر الامبراطور مانويل كومنينوس ، الذى شهد صراعا عنيفا بين الطرفين (١) .

---

(١) أنظر تفاصيل هذا الصراع فى المصدر التالى :-

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manual Comnenus, Trans- =

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية فى ١١٨٧ ومرة أخرى فى ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل أن تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين فى حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم .

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيازنة لقوا الحظوة على حسابهم وذلك فى عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠ سفارة إلى الامبراطور البيزنطى يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية ، وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق .

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل فى مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذى يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التى كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها (١) .

فى ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذى كان من أشهر الرجال فى عصره وكان رجلا مسنا تخطى الستين من

=

sated to English by Chales M, Brand, Colombia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209 — 213.

(1) Diehi : Une Republique patriciene, venise ,different places.
Chcniates : Historia, P. 712.

Cessi (R) : Venice to the Eve of The Fourth Crusade ,in C.M.H. ed. Hussey, Cambridge. 1975, Vol. VI, Palr 1, pp. 251 — 273.

Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade, pp. 231 — 233.

عمره لكنه كان ملىء بالنشاط والحيوية ، طموح إلى المجد ، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته ، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره الا أنه كان بامكانه أن يقود جيشا كبيرا بنفس الكفاءة التى يقود بها أسطولا ضخما (١) .

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسلهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر ، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا :

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdonivlle.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقية فى الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١ ، وبعد أن قضى الرسل بالبندقية أربعة أيام حان موعد لقائهم بالدوق ، الذى استقبلهم بقصره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين : «لقد جئنا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون فى خدمة المسيح واستعادة أورشليم — إذا أراد الله — ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكى يساعدوهم فى هذه المهمة ، لذلك نستحلفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة ، وعار المسيح ، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال» (٢) .

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله ، عرض على الرسل شروطه وكانت تشتمل على أن تقدم البندقية سفنا لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس . وتسعة آلاف مقاتل ، وسفنا أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون الف من المشاة ، وتعهدت البندقية كذلك بتقديم المؤن لرجال

(1) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6, pp. 149 — 150.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 4 — 5.

الحملة وخيولهم لمدة تسعة أشهر ، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركان عن كل رجل ، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقية ٨٥ ألف مارك .

واستطرد الدوق قائلا لرسل الصليبيين : «وحبا فى الله سنضيف إلى الأسطول خمسين غاليا Galleys حربية ، بشرط أن نكون شركاء فى كل المكاسب التى تحققها الحملة من فتوحات أو أموال فى البر أو فى البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر» .

وبعد أن تشاور الرسل ، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه ، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين ، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء فى تنفيذ الاتفاق ، وأرسلوا رسلا إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم (١) .

فى ذلك الوقت توفى تيبوت كونت شامبنى وقائد الحملة ، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائدا آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذى كان قريبا لفيليب السوابى ملك المانيا ، فقد كان وليم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجا من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهى أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابى وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير فى الحروب الصليبية وكان لوليم أربعة أبناء . تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية ، فأكبرهم وهو وليم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج فى ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وتسلم بائنة مدينتى يافا وعسقلان ولكنه توفى بعد شهرين من الزواج . أما

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 6 — 8.

الابن الثانى كونراد الذى أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت ولیم ، فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس على مقاومة حصار القائد البيزنطى الثائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس وأرسل رأسه للامبراطور ، وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق ، ثم ذهب إلى فلسطين فى ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنوات التالية ، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا ، وبعد زواجه من ايزابيلا Isabella وريثة مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد ملك انجلترا ، أتخذ لقب ملك بيت المقدس ، ولكنه قتل فى ١١٩٢ قتله أحد أفراد فرقه الاسماعيلية .

أما رينيه وهو الابن الثالث ، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس ، وتسلم كبائنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن ينجب .

وهكذا لم يتبق من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس الذى صار ماركيز اوف مونتفرات .

وقد ساهم بونيفيس كذلك فى الحروب الصليبية ووقع أسيرا فى يدصلاح الدين ، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى ، وعرف عن بونيفيس دماثة الأخلاق والشجاعة فى القتال . وكان بلاطه فى مونتفرات مزدحما بالفنانين وشعراء التروبادور .

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون Soisson للتشاور معه ، فلبى طلبهم واستقبل فى سواسون باحترام بالغ ، وتوسل اليه البارونات أن يشترك فى الحملة الصليبية وأن يقبل تولى قيادة الجيش الصليبى .

وقد استجاب بونيفيس لرجائهم ، وفى سبتمبر ١٢٠١ أتخذ شارة الصليب فى كنيسة نوتردام فى سواسون . وتسلم قيادة الجيش ، ثم عاد إلى بلده لتدبير بعض الأمور الخاصة به ، وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد ذلك فى البندقية(١).

وفى ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانـــو Peter Capuano نائبا عن البابا فى الحملة .

اجتمع الصليبيون فى جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليـــدو) التابعة للبندقية ، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذى اتفق عليه ، لقاء نقلهم بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ ، وفى النهاية لم يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك .

هنا غضب الدوق أشد الغضب ، واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه فى حالة عدم دفعهم المبلغ كاملا فأنه سيتركهم فى هذه الجزيرة دون طعام أو شراب حتى يهلكوا (٢) .

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا جمع مبلغـا آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفـــع للبنادقة .

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التى تتفق ومصالح جمهوريته . فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع الدين ، مقابل

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 10 — 11.
Nicol : op. cit., pp. 277.
Pears : op. cit., pp. 27 — 273.

(2) Clari (R) : Laconquete de consta ntinople, Editeepar lauer, paris 1924. p. 10.

أن يساعدوه فى الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكى فى اقليم سكلافونيا والتى كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعها منهم ملك هنغاريا .

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله — كما يذكر روبرت كلارى — انهم فى فصل الشتاء ، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الأراضى المقدسة ، التى كان المفروض أن يتخذوا طريقهم اليها قبل حلول هذا الفصل . وأن الصليبيين هم المسئولون عن هذا التعطيل ؛ وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة فى الاستيلاء على زارا التى ستمدهم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال رحلتهم بعد ذلك للأراضى المقدسة .

وقد وافق البارونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق (١).

والجدير . لذكر أن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قائد الحملة لم يكن موجودا مع الصليبين آنذاك ولم يشترك معهم فى الهجوم على زارا (٢)، وذلك لوجوده فى المانيا للتباحث مع فيليب السوابى والامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس (٣) .

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته فى أتخاذ شارة الصليب والانضمام إلى الحملة الصليبية الذاهبة لتحرير قبر المسيح ، وخطب فيهم خطبة مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قـرر أن يصحبهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين واما أن يعيش معهم أو يموت بينهم ؛ وفى كنيسة سانت مارك فى البندقية احتفل باتخاذه شارة الصليب التى وضعت على قبعته

(1) Clari : op. cit., pp. 11 — 12.

(2) Villeharedouin : op. cit., p. 19.

(3) Nicol : op. cit., p. 179.

البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة (١) .

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذه الصليب هو قتال مدينة زارا واهاليها المسيحيين . وفى اكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية المحملة بالصليبيين طريقها إلى زارا ، التى وصلوا أمامها فى ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفى اليوم التالى مباشرة أى فى ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها . وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم «لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته».

أثناء حصار الصليبيين لزارا قام أحدالاخوةالسيسترشيان (٢)cestercians بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما . لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير ، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم ، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فانه سيقوم بالاستيلاء

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 16 — 17.

(٢) الاخوة السيسترشيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو - فى برجنديا - الذى تم تأسيسه فى سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتيين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك . وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية ، وقد أخذ هذا النظام ينمو فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل ميزاته الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) من ناحية أخرى .

للمزيد عن هذا النظام راجع :

Workman : The E volution of the Monastic iedeal, London, 1928, pp. 239 — 244.

على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق وبالتالى فأنهم لن يحصلوا على أية مكاسب مادية . عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار فى المهمة حتى نهايتها . وفى اليوم التالى أخذوا فى مهاجمة أسوار وأبراج المدينة ، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الابقاء على حياتهم . عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم : «سادتى .. لقد تم استيلاؤنا على هذه المدينة بفضل الله ، وبفضل مساعدتكم ، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن ، لأننا فى فصل الشتاء ،ولأننا لن نجد أية أسواق فى أى مكان آخر تمدنا بما نحتاجه ، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء ، ومزودة بكل المؤن ، دعونا نقتسمها بالنصف ، وسنأخذ النصف ، وأنتم النصف الآخر» (١) .

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين ، فأخذ البنادقة النصف الذى به الميناء ، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر ، ونصبوا معسكرهم هناك . على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا فى شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التى معهم واستمر القتال أسبوعا ، وألحق الصليبيين نظراً لتفوقهم فى العدد خسائر كبيرة بالبنادقة . وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا فى اقرار السلام بين الطرفين . وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين ، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات (٢) .

فى ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسى واتجاهها ضد مدينة زارا ،

---

(1) Villehardouin : ip. cit., pp. 20 — 21

(2) Villehardoiun : op. cit., pp. 21 — 22.

وقتـا لأهاليها المسيحيين . فاستشاط البابا غضبا ، وذلك لسببين . أولهما قتال مدينة مسيحية والحاق الاذى بأهاليها المسيحيين ، والثانى لأن معنى ذلك ان السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وانما الت لأشخاص آخرين . لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها (١) . وهنـا اسقط فى يـد الصليبيين ، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا فى هذا العمل .

وقد اجتمع البارونات للتشاور ، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفدا يمثلهم إلى البابا فى روما ليلتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان.واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون ، ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلانـدرز وهينولت : وصحبهما فارسان هما :

Robert of Bones and John of Friaize عـلى أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا ، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط . وحين قابلوا البابا قالوا له :

«ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وآثم ، ولذلك فأنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهـم الطيب ، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك» .

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطـأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين ــ بقصد البنادقة ــ وأنه يأسف أشد الأسف لما

(1) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.
Runciman : The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115. Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Epire Vol. 6, p. 153.

فعلوه . على أنه فى النهاية غفر لهم فعانهم هذه ، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط ، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التى نصت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب . وقد منح البابا كل السلطات لرجلى الدين نيقلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه (١) .

وهكذا تم للبنادقة التغرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة : بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين ، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية .

أما الانحراف الثانى فى خط سير هذه الحملة الغربية فكانت ضحيته العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرض الاحداث فى الفصل التالى .

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 26.
Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.
Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.



الفصل الرابع

الحملة الصليبية والعاصمة البيزنطية

«أيتها المدينـــة .. المدينـــة ...
لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس
غضب الله»

خونياتيس

- الاتصالات بين فيليب والصليبيين .
- وصول الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى زارا .
- خط سير الحملة من زارا إلى القسطنطينية .
- نجاح الصليبيين فى استرداد العرش البيزنطى لحليفهم .
- تطور العلاقات بين الصليبيين واليكسيوس الرابع .
- استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية .



استعرضنا فى الفصل السابق التفاصيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذى لعبته البندقية فى العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الأساسى ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث .

وفى أثناء ذلك كان الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس ، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته إيرين وزوجها فيليب السوابى ، ولاشك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التى تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا . وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية فى المانيا وقتذاك . وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابى . وبالتالى يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب . بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسى الكونت ربان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابى (١) . لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطى اوالدز وجته اسحاق انجيلوس .

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس ، واشترك معهما فى المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا فى أوائل عام ١٢٠٢ ، حول الامتيازات التى سيقدمها اليكسوس للجانب الصليبى مقابل المساعدة العسكرية التى سيحصل عليها من الحملة الصليبية (٢) .

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(2) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 — 275.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

وفى ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين لمدينة زار وصل اليهارسل الملك فيليب. وسلموا لزعماء الحملة رسالة الملك فيليب اليهم وبها الشروط المعروضة عليهم ، وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة وكانت كالتالى (١) :

«سادتى . سأرسل لكم شقيق زوجتى ، وأضعه بين يدى الله — الذى ربما حفظه من الموت — وبين أيديكم .

ولأنكم اتخذتم موقفا نزيها تجاه الله وتجاه الحق ، وتجاه العدالة لذلك أرجو أن تتعاونوا — قدر استطاعتكم — من أجل استرداد ميراثه الذى سلب منه ظلما . وشقيق زوجتى سيقدم لكم أفضل الشروط ، وسيمنحكم المساعدة الأكثر فعالية من أجل استرداد الأراضى المقدسة .

أولا — إذا الله هيأ لكم استرداد ميراثه ، فأنه سيخضع امبراطورية رومانيا (الامبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التى انفصلت عنها طويلا .

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم ، وأنكم فقراء ، لذلك فانه سيمنحكم ٢٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة ، وسيقدم المؤن لكل من فى الجيش ، صغيرا أكان أم كبيرا .

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابليون (مصر) أو اذا رأيتم أفضل من ذلك ، فانه سيرسل إلى هناك ١٠,٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة . وطوال حياته ، فانه سيضع على نفقته الخاصة أيضا خمسمائة فارس فى الأراضى المقدسة لحراستها» .

---

(1) Villehardouin : op. p. 22.

وقد أوضح الرسل أنهم مزودون بكافة السلطات التى تتيح لهم ابـــرام الاتفاق مع الصليبين ، ثم أخذوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التى يقدمها لهم الأمير البيزنطى وانهم اذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالمجد والفتح .

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التـــالى للتفكير والتشار فى هذا الأمر .

وأثناء المشاورات التى جرت بين الصليبين والبنادقة أوضح جـــماعة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض ، وأنهم لم يتركـوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين . وأكدوا على ضرورة التوجه مباشرة لقتال المسلمين فى سوريا . فرد عليهم أحد الصليبيين موضحا بأنهم لـــــن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فى سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطيـة فقط سيتمكنوا من استعادة الاراضى المقدسة ، وانهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط ، فأنهم سوف يندمون كثيرا فيما بعد (١) .

وقد وافق قائد الحملة المركيز بونيفيس اوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الامر كان متفقا عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب . والأمـــير إليكسيوس انجيلوس، وذلك أثناء الاتصالات التى تمت بين هذه الاطراف فى أوائل عام ١٢٠٢ ، كما سبقت الاشارة .

كذلك وافق على العرض باقى البارونات ، وابلغوا موافقتهم لـــدوق البندقية ، فوافق هو الآخر ، وتم ابرام الاتفاق بين الطرفين . وقد مـــثل الصليبيين اثنى عشرة شخصا كان من بينهم الماركيز بونيفس اوف مونتفرات

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والكونت بالدوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس اوف باو اوشارتر (١)

وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية وللمرة الثانية ضد مدينة مسيحية ، ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثانى للحملة ؟

حين وصلت هذه الأخبار إلى روما ، علم البابا بأن فيليب السوابى واليكسيوس نجحا فى التأثير على الصليبين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده ، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا فى روما أن الصليبيين لا يملكون الحق فى التدخل فى الاحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين .

« Vos nullam in greacos Jurisdictionem babientes»(2)

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضى ذلك . وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم . أوضح فى أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة ، وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين وحذرهم البابا بأنهم اذا لم يقسموا على ذلك ويمتثلوا لأوامره فان العفو الممنوح لم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح de facto أى باطلا (٣) .

وقد أعفى الكاردينال بطرس كابوانو من منصبه كنائب عن البابا فى الحملة وحل محله اثنين آخرين هما :

John de Friaise and Mohon Faicete

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة .

أما فيما يتعلق بالقسم . فان بونيفيس اوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد

(1) Villehardouin : op. cit., p. 2·

(2) Innocent III : Epistolae, VIII

(3) Pears : op. cit., p. 288.

للحملة ، وتلاعب فى هذا الموضوع بأن أخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم ، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط ، وأرسل قسمهم بالوعد بعـــدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما (١) .

وفى بداية ابريل ١٢٠٣ ، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين فى زارا ، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين ، الأول : تأكيد بالعفو الممنوح لهم ، والثانى : أمر رسمى من البابا بألا يهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا فى حالة واحدة فقط هى رفضهم امداد الحملة بالمؤن والزاد (٢) .

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين ، أما الجزء الثانى فقد تدخل بونيفيس اوف مونتفرات ومنع اذاعته على الجيش الصليبي (٣) .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية . وفى ٧ ابريـــل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبى عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارهـــا وابراجها ، بينما تخلف فى زارا الماركيز بونيفيس والدوق داندولو فى انتظار وصول الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس الذى سيصاحبهم فى حملتهـم ضد القسطنطينية .

وفى ٢٥ أبريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فأستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفى ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو .

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الامير

---

(1) Pears : op. cit., p. 288.
(2) Innocent III : Epistolae, VI, p. 102.
(3) Pears : op. cit., pp. 289 — 290.

البيزنطي بينهم في المعسكر وقدموا اليه يحيونه ويرحبون به ونصبوا خيمته في وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز بونيفيس الذى أوكل اليه الملك فيليب السوابى مهمة حماية اليكسيوس والاهتمام بأمره (١) .

عسكر الجيش الصليبي في كورفو لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادروها ٤مايو ١٢٠٣ ، واتجهوا إلى جزيرة اندروس فأستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعلنوا خضوعهم للأمير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى ابيدوس فسلمها اليهم الاهالى ووضعوا بها حامية ، وفى ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلوا إلى سانت ستفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية .

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغى عمله ، فأقترح عليهم دوق البندقيةأن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon المواجهة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور ، ليتزودوا بالمؤن ثم بعد ذلك يذهبوا لحصار العاصمة ، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خلقيدونية وبعد أن حصلوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا فى اليوم الثالث إلى سكيوتارى Scutari على مضيق البوسفور ، وبدأوا فرض الحصار البحرى على مدينة القسطنطينية (٢).

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينة لأول مرة ، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة الممزوجة بالاعجاب لهذه المدينة ذات الاسوار العالية والابراج التى تحيط بها من كل جانب ، وقصورها البالغة الثراء وكنائسها الشاهقةواتساع المدينة الذى فاق - كما يقول فيلهاردوين -

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 27.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 29 — 33.

أنظر خط سير الحملة الصليبية الرابعة فى الخريطة رقم (١) .

اتساع أية مدينة أخرى (١) . فان قاعدة المثلث الذى تقوم عليه المدينة كانت تقارب الخمسة أميال ، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلالها السبع ، وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبي .

وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت القسطنطينية (٢) هى المدينة الرئيسية فى العالم الغربى ، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات ، منها موقعها الجغرافى ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى أوروبا وآسيا ، وتحيط المياه بالمدينة من جانبيها ، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممران طبيعيان للتجارة ، مما جعل القسطنطينية مركزا تجاريا فريدا نتيجة لسيطرتها على طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأسود وشواطىء بحر مرمرة .

وكان القرن الذهبي وهو الميناء الطبيعى للعاصمة محميا من أية تيارات عنيفة ، كما كان نصفه عميقا لدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من الوصول إلى الشاطىء بسلام ونصفه الآخر كان ضحلا وفسيحا لدرجة تكفل دخول المراكب الصغيرة . ولما كانت المياه تتدفق فى مضيق البوسفور نحو الشمال ونحو الجنوب ، فقد منح ذلك المدينة الجو الصحى الممتاز نتيجة لاستمرار تجدد الهواء .

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة من المبانى الرائعة ، ومن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة ، وقيل بأنه بلغ من كثرة الكنائس بها أنه وجدت كنيسة على ناصية كل شارع ، ومنها على سبيل المثال كنيسة أيا

(1) Villehardouin : op. cit., p. 31.

(٢) أنظر خريطة رقم (٢) لمدينة القسطنطينية وأهم معالمها .

صوفيا وكنيسة الرسل ، وكنيسة القديسة ايرين ، وكنيسة القديسة مارى ، والقديس سرجيوس . والقديس توماس وغيرها. وكانت قباب هذهالكنائس مغطاة بالذهب ، كما كان بعضها يضم أعمدة من الذهب والفضة وثريات لا تعد من نفس هذه المعادن الثمينة .

أما مجموعة الآثار المقدسة التى حوتها هذه الكنائس فكانت على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للمسيحيين فى كل مكان ، ويقول فيلهاردوين أن مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل فى كثرتها الآثار المقدسة الموجودة فى باقى أنحاء العالم المسيحى وكله مجتمع .

والواقع أن الدافع وراء غنى القسطنطينية بهذه الآثار هو محاولة تخليصها من (العقدة) التى عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشهاد بالقرب منها ، أو تأسيس كنيسة بها ، فأين هى من بيت المقدس ، ذلك المركز الدينى الهامالذى لا يمكن أن تتطاول إليه أية مدينة مسيحية أخرى . وأين هى من انطاكية ، مدينة البطاركة العظام والمجامع الدينية العديدة، وهى المدينة الى أطلق على الحواريين فيها لأول مرة اسم المسيحيين . وأين هى من روما التى شرفها القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسته بها وهى الكنيسة التى أصبحت فيما بعد تضم رفاته ؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا فى فترة متأخرة نسبيا فى القرن الرابع الميلادى .

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين فى تخليص عاصمتهم من هذه العقدة، فأنهم كانوا حريصين على جمع الاثار الدينية من مختلف البلاد، وحفظها بالقسطنطينية

حتى يكسبها ذلك التشريف الدينى الذى تفتقر اليه . ويروى التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر .

ففى عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ – ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها فى عام ٩٤٤ ، ويذكر المؤرخ يحيي الانطاكى «ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه ، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم» . ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها وافقوا على طلب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمر فى بغداد ، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل فى موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا ،وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آياصوفيا، ثم إلى كنيسة العذراء الملحقة بالقصر الامبراطورى الكبير Vierge du-phare ليحفظ بها (١) .

ويروى نفس المؤرخ حادثة أخرى ، وهى حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التى تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج فى عام ٩٦٦ م ، وحين أخرجها اليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه (٢) .

أما الامبراطور يوحنا تزيمسكس (٩٦٩ – ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر

---

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ٩٨ – ٩٩ .

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, P. 143.

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ١٢٧ .

ـاعتزاز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء غزوته ا الشام فى عام ٩٧٥ م ، فقال فى خطابه إلى آشوط الثالث ملك أرمنيا المسي.. :

«.. أننا عثرنا فى جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض ، كما وجدنا ايقونة المخلص — المسيح — تلك التى كان قد طعنها اليهود فسال منها فى التو د، وماء . ولكننا لم نلحظ فى هذه الايقونة طعنة الحربة . ووجدنا كذلك فى المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول هو شيء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلفات ، حملناها معنا لنحتفظ بها ، مدينتنا — القسطنطينية — التى يكلأها الرب برعايته (١) .

هذا وقد أوضح الراهب انطوان Antoine الذى أصبح فيما بعد رئيس ساقفة نوفجورود Novgorod والذى زار القسطنطينية فى أوائل القرن ثالث عشر وقبل فتح الصليبين لها بثلاث سنوات ، قيمة واماكن الآثار دينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة . وعلى سبيل المثال ، فان نار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة فى كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجد ائف (أقمطة) المسيح وهو طفل ، وأوانى الذهب المملوءة بالهدايا التى حضرها الأهالى للطفل يسوع . وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه ، قطعة من الخشب كان المسيح يعلقها فى عنقه ، وحوض غسل بداخله اقدام لاميذه (الحواريون) . والمنضدة التى تعشى عليها فى خميس الاسرار ،وخشب صليب والمنشار والمسامير ، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس ، وبلاطة ن القبر المقدس (٢) .

(١) أنظر نص الرسالة فى المرجع التالى .
عمر كمال توفيق : يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الملحق رقم (١).
ص١٧٠ -١٧١ .

(2) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس (١) : ولم يكن ينقض قرن حتى تضاف مجموعات جديدة ، كما حرص البيزنطيين على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم ، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر ، رفات القديس دانيال ، ووصلت للعاصمة رفات القديسين تيموثى واندراوس ولوقا فى عهد الامبراطور قنسطانز (٣٣٧ — ٣٥٠) وأحضرت رفات القديس صموئيل فى عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) ؛ واشعيا فى أيام ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) ؛ والقديسة آن فى أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ؛ ومريم المجدلية فى عهد ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) (٢) .

وإلى جانب الكنائس كانت هنـاك القصور ، الفخمة منهـا القصـر الامبراطورى الكبير الذى يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفـأ القصر المسمى بذلك الأسم ، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة مـن المبانى وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التى شادها اباطرة مختلفون ، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة Triconchus واضاف اليه باسيل الأول اضافات عديدة ، على حين انشأ به نقفور فوقاس جناحا عند شاطىء البحر .

اما القصر الجديد المسمى Blachernae الذى بناه الامبراطور مانويل كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص ، وكان العرش

(١) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار واماكن تواجدها أنظر المرجع التالى :
Walter : op. cit., pp. 144 — 145.

(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 — 216.

فى هذا القصر من الذهب ومحلى بالاحجار الكريمة ، اما التاج الامبراطورى المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التى لا تقدر بثمن .

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteom يضم كنيسة آيا صوفيا والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفين من الأعمدة ، وفى مواجهة الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم ، ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق ، بينما يده اليسرى تقبض على كره رمزا للسيادة العالمية (١) .

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيبودروم أو ميدان السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية بهذا الملعب ، وكان الهيدروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع الحيوانات وسباق العربات ، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفها الحكومة .

وكان فى الهيبودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور قسطنطين ، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن النحت البيزنطى . ومازالت بعض آثار الهيبودروم باقية حتى اليوم (٢) .

وكان أجمل احياء الحوانيت يقع داخل المدينة ، فعلى امتداد الرابية الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان

---

(١) أنظر الصورة رقم (٢) .

(٢) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتى لها فى أغسطس ١٩٧٧ ، والتقط ما بعض الصور ، أنظر مجموعة الصور رقم (٣) .

يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الاوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى) ، ويمر من خلال سوقين Forums احدهما سوق قسطنطين الملاصق للقصر ، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعا . وفى النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسين احدهما يسير مخترقا سوق الثور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية ، بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلا كرناى والبوابة الخاريسيانية .

وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تبيع من سلع ، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا . وكانت اغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيوكسيبوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت تضاء ليلا .

ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين اوف توديلا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تعج بالتجار الذين أتوا اليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الأقطار فى العالم .

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء ، وكانوا يرتدون الملابس الموشاه بالذهب والاحجار الكريمة ، ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هـذا كالأمراء . وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطىء البوسفور وبحر مرمرة ، حيث يقضون بها فصل الصيف .

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال ، فأنها كانت كذلك مدينة اللهو والمسرات ، كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن ، حيث

كان يذهب اليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحة والرفاهية ومختلف أنواع المتع الحسية والفنية . ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى جانب تمتعها بالجو اللطيف والمناظر الطبيعية الخلابة (١) .

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل ستعادة عرشها لخليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس . وحين ـ ى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبين للمدينة أرسل إليهم رسولا من طرفه . وهو أحد اللومبارد يين ويدعى نيقولاروكس ، Nicholas Renx ذى خاطب الصليبين قائلا : «سادتى ، ان الامبراطور اليكسيوس يود ان يوصح لكم انه يعلم جيدا انكم أحسن العناصر ، وجئتم من أحسن الاقطار على وجه الأرض . وهو يعجب كثيرا ويتساءل ، لماذا ؛ ولأى غرض اقتحمتم رضه ومملكته ؟ فهو مسيحى وانتم مسيحيون . وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم لتحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم . إذا كنتم فقراء ومحتاجون ، فأنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والزاد بشرط أن تغادروا رضيه فورا . وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى ، لأنه صاحب القوة لمطلقة هنا ، ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة . واذا

---

(١) فيما يتعلق بالقسطنطينية وميزاتها أنظر المراجع التالية :

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 — 1[illegible].

Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 — 2[illegible]

Brehier(L) : La civilisation Byzantine Editicn Albin Michel, Par[illegible] 1970. pp. 73 — 99.

Toynbee (A); Constontine Porphyrogenetus and his world, lond[illegible] 1773, pp. 201 — 223.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 — 120.

أراد الحاق الأذى بكم ، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة» (١) .

وقد اختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Conon of Bethune لما توسموه فيه من عقل راجح وحكمة لكي يتولى الرد على هذا الرسول، فقال موضحا وجهة نظر الصليبيين : «سيدى ، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته ، انهم لم يدخلوا أرضه هو . لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا ، وضد الله وضد الحق ، انها تخص ابن شقيقه — الامبراطور اسحاق — الذى يجلس بيننا على العرش . اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته ، ويلقى بنفسه تحت رحمته ، عندئذ سنتوسل لابن شقيقه لكى يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال ، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة ، فلاتجرؤ على العودة إلى هنا ثانية» (٢) .

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طمعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور ، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر احدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة . غير أن ظنهم قد خاب ، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الأهالى على رؤيته ، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى . ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة ، فقسموا الجيش إلى سبع فرق ، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس ، وبعد جهود مضنية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 35.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 25.

التى تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينة برا وبحرا ، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية .

وفى صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رهيبة بين الطرفين استولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها فى قتال عنيف ، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود المعركة ، وتلى ذلك معارك أخرى (١) ، وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبى وعدم جدوى الدفاع ، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلا مع عدد من أتباعه ، وحين علم الأهالى بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق فى سجنه ، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى ، حيث أجلسوه على العرش ، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك .

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس ففرح فرحا عظيما ، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطى ، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان احدهما هو جيوفرى فيلهاردوين ، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرناى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق ، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه . وبعد أن أوضح الامبراطور رأيه فى

(١) يوجد وصف تفصيلى لهذه المعارك فى المصدر التالى : -

Villehardouin : op. cit., pp. 35 — 45.

هذا الاتفاق وشروطه القاسية ، شكر الصليبيين على هذه الخدمة التى قدموها له ولأبنه وصادق على الاتفاق .

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسحاق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته ، فقاده البارونات حتى اوصلوه إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقهما . وفى اليوم التالى خرج الامبراطور اسحاق وأبنه اليكسيوس إلى الجيش الصليبي خارج البوابة وقابلوهما ، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها ، ولكن فى مجموعات صغيرة .

وفى أول أغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركا فى العرش مع والده اسحاق . وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبي حيث أوضح للبارونات عجزه فى الوقت الحالى عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤ ، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة . وبذلك نجح فى اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار (١) .

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة فى بعض ولايات الامبراطورية لتفقدها واقرار سلطته عليها . وقد رافقه فى هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات فى حين بقى عدد آخر منهم مع الجيش الصليبي لحراسة المعسكر . وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءهم تدخل هذا العنصر البغيض فى أمورهم ، واشعل بعض الأشخاص المجهولين النار فى المدينة

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 54 — 50.

وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفاؤها ، وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطىء البحر ، وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفا من تعرضهم لأنتقام البيزنطيين . فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين .

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة . وعلم بالحريق الذى اشتعل بها أثناء غيابه والخسائر التى اسفرت عن هذا الحريق ، كما أنه كان يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين ، لذلك وفى محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم . على حد تعبير فيلهاردوين ، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا ، وظلت المبالغ التى يدفعها لهم تتضاءل وتنقص حتى انقطعت فى النهاية . وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التى قدموها له ، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه ، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضمر لهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه . عند ذلك ارسلوا اليه رسلهم ، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فأنهم لن يعاملوه كصديق بعد ذلك وانما سيحصلوا على حقهم بالقوة . وقد دهش الامبراطور الكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم تحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطى داخل بلاطه (١) .

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 50 — 53.
Clari : op. cit., pp. 56 — 58

وكمحاولة أخيرة أرسل دوق البندقية انريكووانـدولو فى استدعاء الامبراطور اليكسيوس ، ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلارى وكانت كالتالى :

"Alexe, que Cuides tu faire ?"Fist Lidux "freng warde gue nous t'avcns gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corcne a empereur; ne nous tenras tu mie" fist li dux, " "nos convenenches, ne Si n'en feras plus ?- Naie fist liempereres "jen'en ferai plus que fait enai I - Non ? "dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux, "gete de le merde et le merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu que je te pouiwacacherai mal a men pooir de ches pas cnavant.' '(1)

والترجمة العربية لهذه المحادثة هى :

قال الدوق «يا إليكسيوس ما الذى تعنيه عما قلت ؟ هل فكرت كيف انقذناك من الشقاء العظيم . وكيف جعلناك سيدا ، وتوجناك امبراطورا ، فهل رعيت عهدك معنا ، وهل اعتزمت تنفيذ شىء أكثر مما فعلت ؟ «فقال الامبراطور لا . أننى لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت» . فقال له الدوق «اتقول لا أيها الغلام الىء ، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاويه القذارة وسنعيدك اليها مرة أخرى ، وأننى لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أننى منذ هـذه اللحظة فصاعدا سألحق بك من الأذى كل ما استطيع» .

ظهر العداء سافرا بين الصليبين والبيزنطيين ، وبدأت المناوشات بينهما ، وقد اشعل البيزنطيون النار فى بعض السفن الراسية بالميناء وإنتشرت النيران

(1) clari : la conquete de constantinople, p. 59

حتى بدا (وكأن العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على مراكبهم ، ولكن بعد أن نجحوا فى إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هى سفن تجارية بيزية كانت راسية بالميناء ، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر (١) .

فى تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هـذا الامبراطور الذى كان السبب فى استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل فى شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب ، فألتفوا حول أحدهم ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوبا من الأهالى ، وفى أحد الليالى قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه ، وأعلن مورزوفلوس امبراطورا فى كنيسة آيا صوفيا ، وحين علم الامبراطور اسحاق بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن ، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى ، أما اليكسيوس فقد لقى حتفه بعد أن دس له مورزوفلوس السم فى الطعام باعتلاء مورزوفلوس للعرش البيزنطى لم يعد هناك أى أمل للصليبيين فى الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق اليكسيوس الرابع ، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة ، فعقدوا فى آخر مارس ١٢٠٤ م . اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه فى حالة سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم والاسلاب وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين ، وستة أشخاص من البنادقة ، ويقسم هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأصلح ليتوج امبراطورا ويتولى حكم الامبراطورية البيزنطية ، ويحصل هذا الأمبرطور

(1) villeharduoin : op. cit., p. 54.
cları : op. cit., pp. 59 — 60.

على ربع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها ، ويمتلك كذلك القصرين الامبراطورين . Bucoleon و ... Blachernae . أما الثلاثة أرباع الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة . وأن يتم اختيار أثنى عشر شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف ، ويرتبون من يقوم على خدمة الامبراطور (١) .

وبناء على ذلك ، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية فى ٨ أبريل ١٢٠٤ وتقاتلوا مع المدافعين عن ابراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة ،وحين رآهم الامبراطور مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة الذهبية فأستولى على خيمته الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية فى يد الصليبيين والبنادقة فى يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤ (٢) .

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر ، حيث اشعل بعضهم النيران فيها ؛ وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البائسة ، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس ، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل ؛ وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التى احترقت فى هذا الحريق وحده ، بأنها تماثل عدد المنازل التى تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا (٣) آنذاك . ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 58 — 59; clari; op. cit., p. 68.

(2) Ibid : pp. 61 — 62.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 64.

حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى . ثم جاء دور النهب الذى لم يقف عند أى حد . حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب ، ويكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا ، فقد اقتحموها وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الايقونات الفنية النادرة ، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس ، فلم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١) .

ولعل ما جاء فى خطاب البابا اينوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التى ارتكبها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها . (١)

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول : «صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة فجىء بها اليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة ، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة ، فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عجيبا ولم يحدث قط — منذ بداية العالم — أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلها ولا بعدهما ، ولا أظن أنا شخصيا ، أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها . إذ يقول اليونان أن ثلثى كنوز

---

(١) أنظر ترجمة الخطاب فى خاتمة هذا البحث ص ص ١١٢—١١٣ .

العالم موجودة فى القسطنطينية . أما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا ، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد اليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار فى سرقة الغنائم حتى لم يبق شىء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا فى كسب هذه الغنائم .

أقول لم يبق شىء لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التى اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات .

أما الأسلاب الأخرى التى بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما اخبرتك لكن أخذ البنادقة — على أية حال — النصف المقرر لهم ، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التى بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد» (١) .

أما شاهد العيان الآخر وهو جيوفرى فيلهاردوين ، فقد قال أن الغنائم التى أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن معها القول أنه ليس لها نهاية ، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وفراء ويشهد فلهاردوين على أنه منذ الخليقة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلما أخذ من القسطنطينية فشبع من الصليبيين من كان جائعا ، واغتنى منهم من كان فقيرا . (٢)

---

(1) Clari : La conquete de constantinople p p, 80 — 81.
(2) Villehardouin : op. cit., p. 65.

وهكذا لم يقع بصر الصليبين على تحفة أو ثروة إلا نهبوها ولم يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا افسدوه ودمروه . وقد بات الصليبيون وهم فى فرح وسرور وشكروا الله الذى منحهم النصر وهم حوالى ٢٠ ألف رجل ، على ٤٠٠ الف رجل بيزنطى «والأكثر من ذلك على المدينة العظيمة الشديدة التحصين» . (١)

أما الجانب الآخر المهزوم ، المغلوب على أمره ، وأعنى به البيزنطيين ، فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة ، مثلما رثاها مؤرخهم المعاصر نقيتاس خونياتيس بقوله (٢) :

Ourbs, urbs, urbium omnium ocule ,Per orbem Terrarmu celebris mater, Princeps religionis, rectae sentehtiae dux, eruditionis alumna, Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini calicem Puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehemehtioris eo quo olim pentapolis divinitus conflagravit.

«أيتها المدينة ، المدينة ، يا خير المدائن ، يا حديث العالم ، يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الايمان ، يا قلعة العلم ، يا ملاذ كل الخير ، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك اتون ابشع من ذاك الذى انصب لظاه قديما على المدائن الخمس» .

وقد تمنى خونياتيس ، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت فى يد المسلمين «الذين كانوا لطفاء ورحماء» حين فتحوا بيت المقدس ، ولم يفعلوا بها مثلما فعله هؤلاء المخلوقات «الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم» (٣) .

(1) Villehardouin : op. cit., p. 65.

(2) Choniates : Historia, ed. Bonn, p. 763.

(3) Choniates : Hqtoria, ed. Bonn, pp. 761 — 762.

بعد ان انتهت موجة النهب والسلب التى اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتينى يحكم الامبراطورية البزنطية ، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم . فكونوا لجنة من أثنى عشرة شخصا ، ستة من الصليبين.وستة من البنادقه لاختيار أحدهم ، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات ، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت .

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعين الفرنسين ، ولد فى عام ١١٧٢ ، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت ، الذى تزوج فى عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الالزاسى كونت فلاندرز .وقد توفى فيليب فى مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا ، فآل أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت ، التى توفيت هى الأخرى فى ١١٩٤ ، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلا ندرز . وحين توفى والده بلدوين الخامس فى ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا . وبذلك جمع بلدوين الأبن بين حكم أقليمى الفلاندرز وهينولت . وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول ، والكونت السادس على الأقليم الثانى .

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير فى الصراع الذى اشتعل فى الغرب الأوروبى بين ملوك فرنسا وانجلترا والمانيا حتى اشتراكه فى الحملة الصليبية الرابعة (١) .

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من بونيفيس اوف مونتفرات ، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت ، وكان الأول يتفوق

---

(1) Wolf : Studies in The Latin Empire of Constantinople, Lanbon 7691 Book IV, pp. 281 — 288.

على الثانى بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبي وصلات عائلتـــه ببيزنطة .

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيء نفسه لهذا المنصب ، فأستولى على القصر الامبراطورى الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهـــم الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين فى الطريق كانوا يصيحون الماركيز هـو الامبراطور المقدس Aiios Phasileos Marchio لكن بونيفيس أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين الستة كانوا يؤيدونه ، فى حين أن الثلاثة الآخرين مضافا اليهم الستة من البنادقة كانوا يؤيدون منافسه بلدوين . فقد كان الدوق داندولو يخشى من قـــوة شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه ، أضف لذلك أن بونيفيس كان حليفا قديما لجنوا ، وهذا وحده سببا كافيا لكى يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على ابعاد بونيفيس عن هذا المنصب .

وفى منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذى كان عضوا فى لجنة الانتخاب ، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا وفى ١٦ مايو تم تتويجه فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب :

porphyrogenitus, Semper Augustus (١)

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 67 — 68; Clari : op. cit., pp. 93 — 94

Wolf (R) : Studies in The LatinEmpire of Constantinople, pp. 188 — 190.

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية ، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين فى اتفاقهم قبل اسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالى :-

«الجانب الذى لم يختار منه الامبراطور . يكون لديه السلطة لكى ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا ، ويختار كبطريرك من أجل خدمة الرب والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية» (١) .

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبي كامبراطور ، أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة . فأجتمع رجال الدين منهم فى كنيسة آيا صوفيا ، واختاروا توماس موروسيني Thomas Mauroceni لهذا المنصب .

وكان توماس ينتمى إلى عائلة نبيلة هى عائلة موروسيني التى يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه . والوصف الوحيد الذى جاء عن توماس كان لنقيتاس خونياتيس المؤرخ البيزنطى الذى رآه بالقسطنطينية فى نهاية صيف عام ١٢٠٥ م . ، والذى يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين فى أول رجل كاثوليكى يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية .

=

Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204—1261, n C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part. 1,p. 286.

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.
Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 — 151.

(1) Wolf : Studies in the Latin Emp.re of Constantiople, Book IX, p. 227.

قال نقيتاس : ان توماس كان فى منتصف العمر ، سمينا (. متديرا مثل الكرة ، ضخما مثل خنزير معلوف) ، أجرد ، يضع خاتما فى أصبعه ، وفى بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد فى كفيه . أما لباسه فهو ضيقا للغاية ، حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة ، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السعة (١) .

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور ، وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس موروسينى بطريركا للقسطنطينية . وفى ٢١ يناير ١٢٠٥ ، علم البابا بذلك ، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار ، ولم يكن اعتراض البابا على شخص موروسينى نفسه ، فهو على حد قوله : «نعلم نحن وأخواننا ان الشخص الذى اختير ، نبيل المولد ، شريف ، فطن ، ومثقفا بالقدر الكاف» . ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التى تم بها انتخابه ، لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه ، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب موروسينى تم فى مجمع عام (٢) .

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار ، وفى ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس ، وفى ٢٦ مارس عينه قسا وفى ٢٧ مارس جعله اسقفا ، وفى ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة ، مع التوصية بارتدائها فى احتفال مقدس ،

(1) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 — 855.

(2) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, Blook IX, P. 228.

Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.

Runciman : The Byzantine Theocuacy, Cambridge University Press, 1977 pp. 138 — 139.

كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها ، منحة الحق فى أن يحمل الصليب أمامه حيثما ذهب ، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوى (١) .

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين ، كان نصيب الامبراطور بلدوين ، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها ، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة ، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة ، وهى جزر ساموتريس وكوس ولسبوس وساموس ، وخيوس.

وكان نصيب بونيفيس اوف مونتفرات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى ، لكنه رفض وطلب منحة مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل ، وحتى تكون مملكته متاخمة لأملاك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت .

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع ، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقته على منحه سالونيك ، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوية الذين كانوا قد طلبوا شراءها منه (٢) .

وبذلك نجح بونيفيس اوف مونتفرات فى تأسيس مملكة خاصة به تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا وتساليا (٣) .

---

(1) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 — 231.
Walter : op. cit., p. 155.

والجدير بالذكر أن مورسينى لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١ ، أنظر :

Nicol : op. cit., p. 303.

(2) Wolf : op. c t., Book 1, p. 195.

(3) V llehardouin : op. cit., p. 69.
Wolf : op. cit., p. 190.

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة ، إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا فى القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى ، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطىء بما فيها جزيرة ايوبيا ، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية فى شبه جزيرة المورة ، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة ، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات . وقد كانت مجموعة الغنائم التى حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب «حاكم ربع ونصف أراضى الامبراطورية البيزنطية» .

وهكذا توسعت البندقية ، وأصبحت ممتلكاتها فى غرب وشرق أوروبا معا ، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحرى الممتد من البندقية حتى القسطنطينية ، وكان لها حق الاشراف على المضايق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة ، فضلا عن الحى الخاص بها فى القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا (١) .

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية ، قد وزع بين عدد كبير من أمرائهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة . وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل .

---

(1) Wolf : op. cit., pp. 190 — 192.
Nicol : op. cit., 287 — 189.
Ostrogorsky : op. ciy., pp. 423 — 424.
هذا ، ولم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفى فى مايو عام ١٢٠٥ ودفن فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا ، أنظر :
Villehardouin : op. cit., p. 102.
Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

هذا بالاضافة إلى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصـــر ، والجنسيات التى تألفت منها الحملة ، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الالمان والبرجنديين ، وبين اللمبارديين والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة .

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، فقد ظل التباعد سائدا بين الطرفين ، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، فى حين احتقر البيزنطيون هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف (١) .

وهكذا تطور الصراع الداخلى بين البيزنطيين من أجل الاستحواذ على العرش ، وانتهى بهذه المأساة التى حلت بعاصمتهم على يد اللاتين .

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.



الخاتمـــة



بعد هذا العرض لأحداث الحملة الصليبية الرابعة يمكن القول أنها تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ولعل المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه لم يخالف الصواب حين قال «ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها» (١) .

فقد كان المفروض أن تدعم هذه الحملة مركز الصليبين بالشام وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامى الواقع عليهم ، لكن الذى حدث هو أنها أدت إلى اضعاف مركزهم بطريق مباشر أو غير مباشر . ذلك لأن قيام مملكة لاتينية صليبية بالقسطنطينية وبلاد البلقان ، عمل على جذب أعداد كبيرة من الفرسان الصليبيين بالشام الذين فكروا فى التسلل سرا وعلانية اليها لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم . وكذلك الحال بالنسبة للفرسان الغربيين الذين لجأوا هم الآخرون إلى القسطنطينية ، بدلا من التوجه إلى الصليبيين بالشام ومساعدتهم ضد المسلمين (٢) .

كما أدى فرار العائلات الأرستقراطية البيزنطية وتأسيسها لممالك فى ابيروس ونيقيه وطرابيزون والعداء الذى اشتعل بينها وبين المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، أدى كل ذلك إلى أن أصبح الطريق البرى إلى الشام أصعب منالا وأشد خطورة على الصليبيين عن ذى قبل .

وقد اثبتت هذه الحملة أن العامل الاقتصادى والمصالح المادية أصبحا

---

(1) Grousset (R) : Histoire des Cro sades et du Royaume Franc de Jerusalem Paris 1946, Tome III, p. 175.

(2) K ng (E.J.) : The kinghts Hosptallers in The Holy Land, don, 1931, p. 176.

يحتلان المكان الأول فى تفكير المعاصرين ، فاذا سلمنا بأن الصليبيين كانت لديهم دوافع متعددة ضد الدولة البيزنطية ، فما هى دوافعهم ضد مدينة زارا المسيحية التى هاجموها واستباحوها قبل هجومهم على القسطنطينية ، اللهم الا دافع الجشع والمصالح المادية البحتة .

والآن علينا أن نحدد مسئولية كل طرف من الاطراف التى اشتركت فى هذه الحملة ، بعد أن اتضح دور كل منهم خلال عرضنا السابق للاحداث .

فيما يتعلق بالباباإينوسنت‌الثالث ، فقد اتضح موقفه خلال العرض ، وكيف أنه لم يلبى التماس الأمير البيزنطى اليكسيوس‌انجيلوس الخاص بتأييد البابا له ضد عمه الذى اغتصب العرش ، كما أنه لم يكن لهأى دور كذلك فى توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وحين علم بنية الصليبيين على التوجه ضدها ، حذرهم صراحة وبحزم من الاقدام على هذا العمل ، وهددهم بتوقيع قرار الحرمان عليهم من جديد . إذا هم لم يمتثلوا لأوامره الخاصة بعدم مهاجمةاليونان ، وأصر على ضرورة توجه الحملة لمصر مباشرة. واذا كان الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قد استغل نفوذه ومنصبه كقائد للحملة فى عدم ابـــلاغ الصليبيين بأوامر البابا كاملة ، فهذه ليست مسئولية البابا .

وأكثر من ذلك ، فحين وصلته انباء الفظائع التى ارتكبها الصليبيون ضد البيزنطيين ، حزن أشد الحزن ، وأرسل رسالة إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يؤنبهم‌على فعلتهم هذه . فقال :

«بما أنكم فى طاعة المسيح ، وأخذتم على أنفسكم العهد لتحرير الأرض المقدسة من سلطة المسلمين ، وبما أنكم منعتم تحت ضغط عقوبة الحرمان ، من مهاجمة أى أرض مسيحية أو الحاق الدمار بها ، إلا إذا أهاليها عرقلوامروركم

أو رفضوا امدادكم بما هو ضرورى (وفى هذه الحالة لا تفعلوا شيئا بخلاف ما يشير عليكم به المندوب البابوى) . وبما أنكم لا تملكون الحق ، ولا ادعاء الحق تجاه اليونان ، فأنكم حدتم عن طهر عهدكم ، عندما زحفتم على المسيحيين بدلا من المسلمين ، واستوليتم على القسطنطينية بدلا من أورشليم ، وفضلتم كنوز الدنيا ، على كنوز الآخرة ، وما هو أكثر من ذلك كله ، أنكم لم تبجلوا الدين ، ولم تراعوا العسر أو الجنس .

لقد أصبحتم أمام العالم كله ، أهلا للبغاء والزنا والفسوق لقد اشبعتم غرائزكم الآثمة ، ليس فقط بالزواج من النساء أو الأرامل ، ولكن بأغتصاب الزوجات والعذارى اللاتى وهبن أنفسهن للمسيح . لم تفرحوا بالخزائن الامبراطورية ، وبضائع الاغنياء والفقراء ولكنكم استوليتم على ثروة الكنيسة وكل ما يخصها ، لقد نهبتم المناضد الفضية للمذابح ، وحطمتم غرف المقدسات وسرقتم الصلبان والايقونات والآثار المقدسة .

ولأن الكنيسة اليونانية أخضعت بالقوة ، فأنها رفضت سيادة الكرسى البابوى ، لأنها لا ترى فى اللاتين ، الا الخيانة والشر فقط ، لذلك فهى تعافهم كما تعاف الكلاب» (١)

ولا يمكن أن يكون البابا هو الذى حرض الصليبيين على مهاجمة القسطنطينية ، أو كان له أى دور فى توجيههم هذه الوجهة ، ثم يوبخهم كل هذا التوبيخ ويحملهم مسئولية الانحراف بالحملة على هذا النحو .

وفيما يتعلق بدور الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات ، فالواضح أنه كان

---

(1) Innocentii III :Epistolae, VIII, P. 133.

ينفذ أوامر (خاله) الملك الألمانى فيليب السوابى ، الخاصه بمساعدة الأمير اليكسيوس انجيلوس على استرداد العرش البيزنطى ، وبذل الحماية والنصح والارشاد لهذا الأمير مؤملا أن ينجح فى تأسيس امارة له بالشرق مثلما فعل أشقائه من قبل . وقد وعده اليكسيوس بتحقيق هذه الرغبة ومنحه جزيرة كريت مكافأة له على جهوده (١) .

أما عن البنادقة وتعمدهم تغيير اتجـاه الحملة ضـد العاصمة البيزنطية . فالملاحظ أنه لا يوجد نص صريح يدين البنادقة ويؤكد عزمهم على توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، بل أن فيلهاردوين يوضح أن انريكو داندولو لم يكن له أى دور فى حث الصليبيين على الموافقة على دعوة الأمير اليكسيوس انجيلوس لتوجيه الحملة ضد القسطنطينية وأن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وباقى البارونات قد اتخذوا قرارهم بالموافقة أولا ثم أخبروا به الدوق (٢) .

وحتى المعاهدة التى قيل بأنها تمت بين البنادقة والملك العادل الأيوبى فقد نص بها على تغيير اتجاه الحملة وابعادها عن مصر فقط ، ولا يستلزم ذلك بالضرورة أن تحول ضد القسطنطينية بالذات .

يضاف لذلك أن المؤرخ الفرنسى هانوتوكس Hanotaux فى بحثه الذى نشر فى المجلة التاريخية تحت عنوان «هل خان البنادقة العالم المسيحى فى عام ١٢٠٢ م» ، قد طعن فى هذه المعاهدة ، واعتمد هانوتوكس فى ذلك على نصوص أوردها المؤرخ المسلم أبو الفدا فى حوادث سنوات ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ هـ ؛ ومنها يتضح أن السلطان الملك العادل الأيوبى لم يكن موجود

(1) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, p. 190

(2) Villehardouin : op. cit., p. 24.

بالقاهرة فى الوقت الذى حدده ، المؤرخ الالمانى هويف لعقد الأتفاقية مع البنادقة وهو ١٣ مايو ١٢٠٢ م ، وأثبت أن العادل كان موجودا آنذاك فى دمشق بالشام حتى سنة ٦٠٠ ﻫ (١٢٠٣ — ٠٤ ١ م) .

وخرج هانوتوكس من بحثه هذا بأن تاريخ هذه المعاهدةليس ١٣ مايو ١٢٠٢ م كما ذكر هويف ، ولكنها أبرمت فى ٩ من مارس ١٢٠٨ م، أى بعد التاريخ الذى حدده هويف بست سنوات (١) .

وبذلك أصبحت المعاهدة التى ذكرها هويف وبنى عليها هو وعدد من المؤرخين آراءهم الخاصة بخيانة البنادقة للصليبيين وتعمدهم تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية موضع شك .

أما فيما يتعلق بالآراء التى حملت فيليب السوابى ملك المانيا المسئولية فى اتجاه الحملة ضد القسطنطينية ، فالمؤكد أن فيليب السوابى كان بعيدا عن التدخل فى شئون الحملة ، حتى ظهور موضوع الأمير البيزنطى اليكسيزس انجيلوس على مسرح الاحداث ، وذلك لأنشغال الملك الالمانى بالصراع الداخلى الذى اشتعل فى المانيا بينه وبين منافسه على العرش أتو الرابع اوف برنسويك . وحتى فكرة الاستعانة بالحملة الصليبية الرابعة فى استرداد العرش البيزنطى لم تأت من جانب فيليب السوابى ، وإنما جاءت من جانب الأمير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس . الذى راسل الصليبين وعرض عليهم مشروع مساعدته قبل أن يصل إلى المانيا ويقابل الملك فيليب (٢) .

---

(1) Hanotaux (g) : Les Venitiens ont-lis Trahi la chrestiente en 1202 ? Dans La Revue Historique, Vol. IV, 1877, PP. 87 — 101.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 18.

ورغم هذا كله أقول ، وحتى لو سلمنا بنظرية (التعمد) ، وأن انحراف الحملة الصليبية الرابعة تم بناء على اتفاقات ومؤامرات تمت بين البنادقة والصليبيين ، فانه كان من المحتمل أن يفشل حصار البنادقة والصليبيين للقسطنطينية مثلما فشلت حصارات أخرى سابقة على امتداد التاريخ الطويل لهذه المدينة .

فالمعروف أن العاصمة البيزنطية قد تعرضت لحصار المسلمين وخاصة أيام الأمويين ، وكذلك لحصارات أخرى من جانب البلغار أو من جانب الروس ، ولكنها تمكنت من مقاومة هذه الحصارات كلها بفضل تماسكها داخليا من جهة وبفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز من جهة أخرى ، وكان لابد لكي ينجح حصار هذه المدينة أن يكون العدو المحاصر لها متفوقا في الناحيتين البرية والبحرية ؛ حتى يحكم حصارها من ناحية البر وناحية البحر على حد سواء . وهذا مالم يتوفر لأعدائها في هذه الفترة التاريخية ، ولم يتوفر كذلك لصليبي الحملة الرابعة . إذ الثابت أن حصارهم للقسطنطينية كان بحريا فقط ، وهكذا كان من المحتمل أن يفشل هذا الحصار إذا تهيأ للدولة الاستقرار الداخلي ووسائل الدفاع العسكري اليقظ .

وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية ، لا نكون بعيدين عن الصواب اذا نحن ارجعنا مسئولية الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية إلى البيزنطيين أنفسهم ، واضطراب أحوالهم الداخلية فمن تدهور في قواتهم العسكرية ، إلى إنحلال الجهاز الإداري في الدولة ، إلى الصراع الداخلي من أجل الاستحواذ على العرش وقد كانت خطورة هذا الصراع تكمن في استعانة البيزنطيين أثناءه

بالقوى الخارجية ، حيث فر الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى الغرب الأوروبى وبذل الوعود المغرية للصليبيين من أجل مساعدتهم له فى إسترداد العرش البيزنطى » .

وهكذا فمع تسليمى التام بكل ما ذكره المؤرخون خاصا بدوافع البابا والبنادقة ، وفيليب السوابى ، والصليبيين عامة ، وأطماع كل هؤلاء فى الدولة البيزنطية ، الا أن الاحداث الداخلية التى مر بها البيزنطيون ، ثم إلتجائهم للغرب الأوروبى والإستعانة به على حل مشاكلهم هى التى فجرت هذه الدوافع كلها وجعلتها تعبر عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق .



الصور





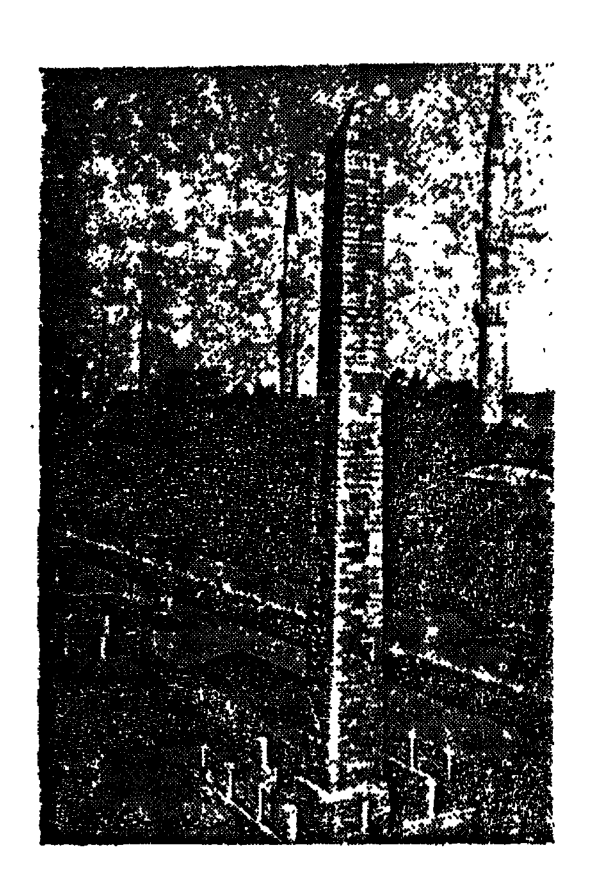
الصورة رقم (١)
البابا اينوسنت الثالث





الصورة رقم (٢)
تمثال للامبراطور هرقل





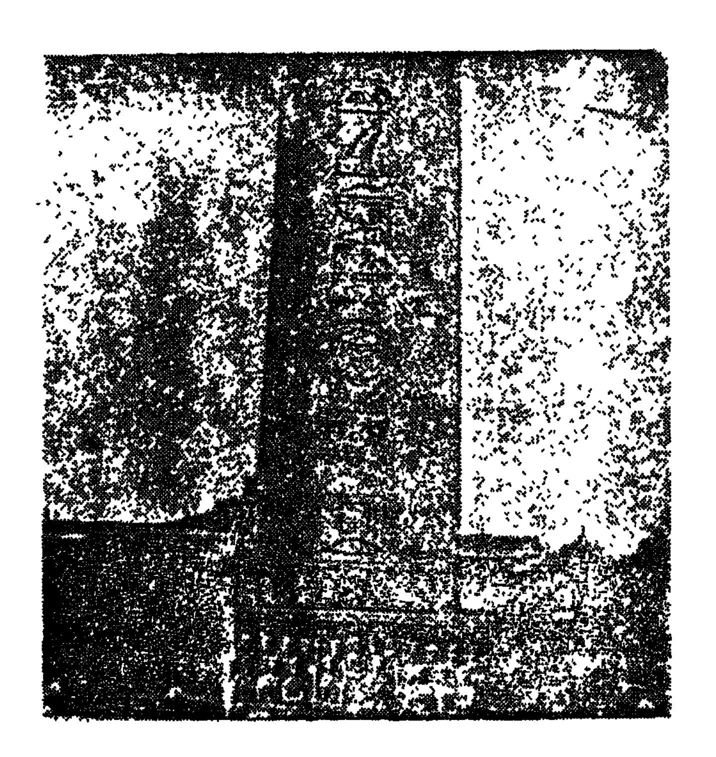
عمود الامبراطور قسطنطين
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم





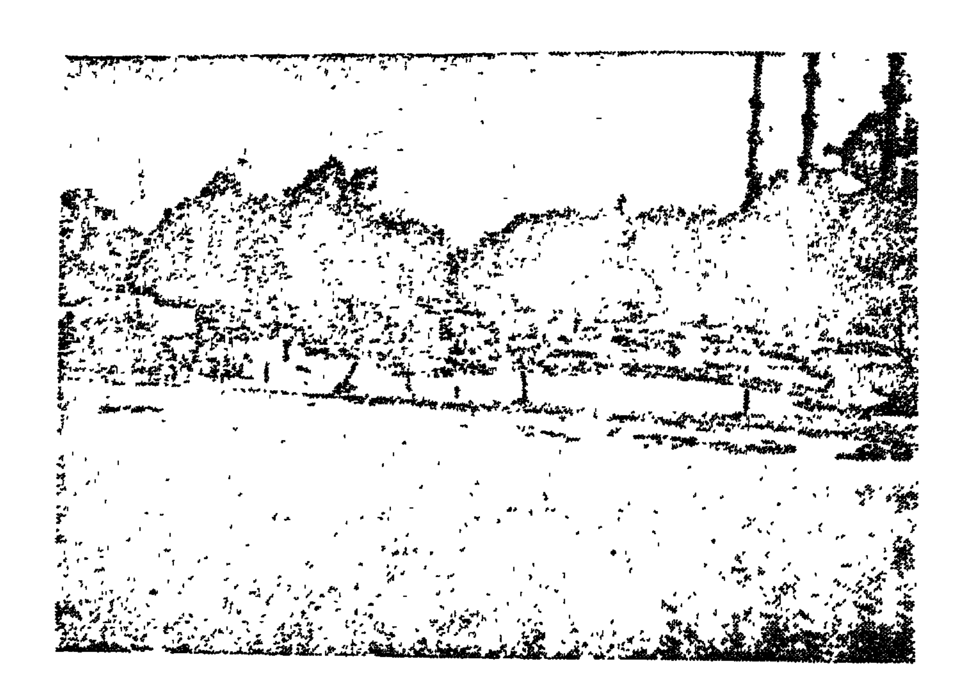
المسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم





صورة عن قرب للمسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار للهيبدروم



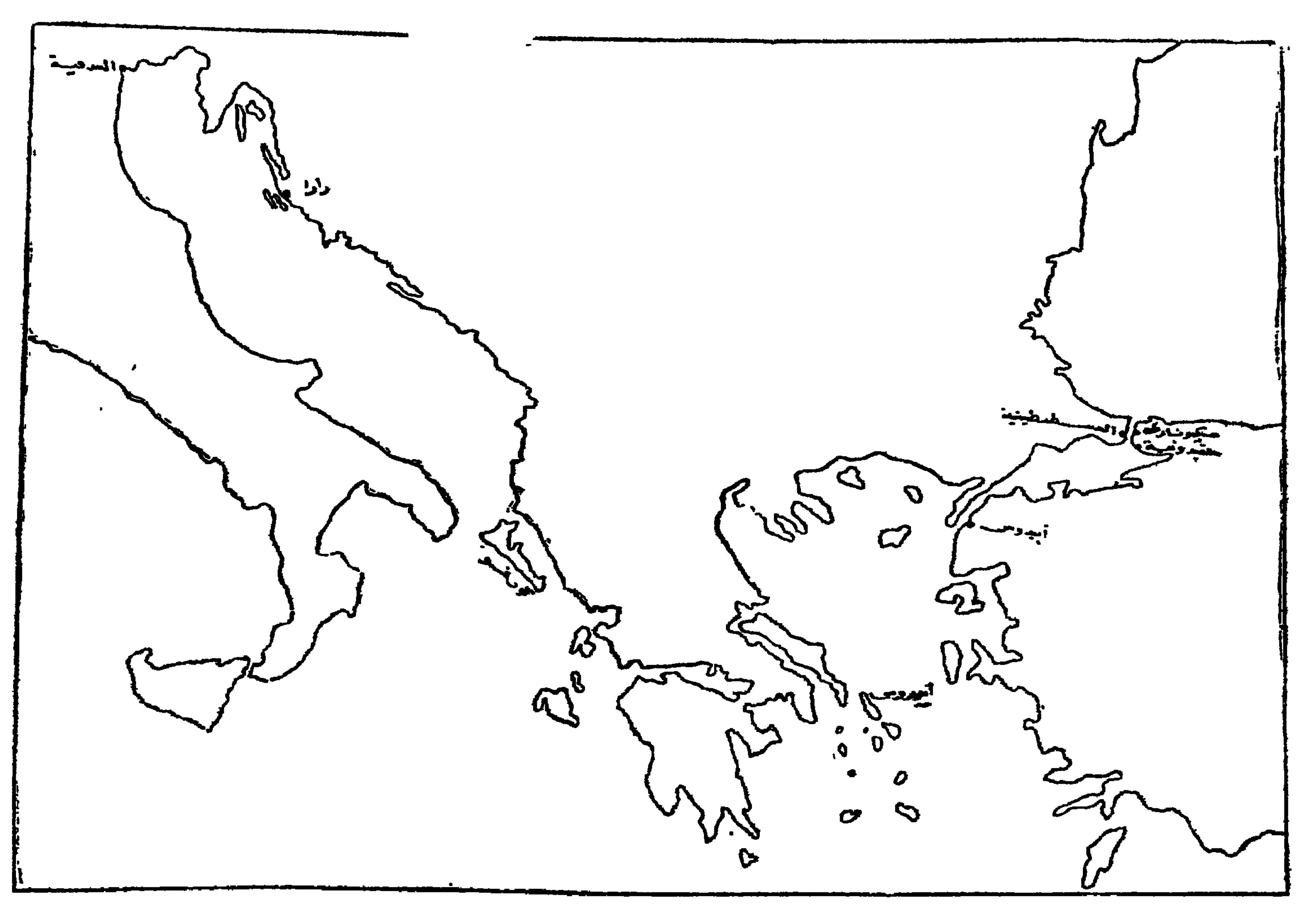


مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيبدروم



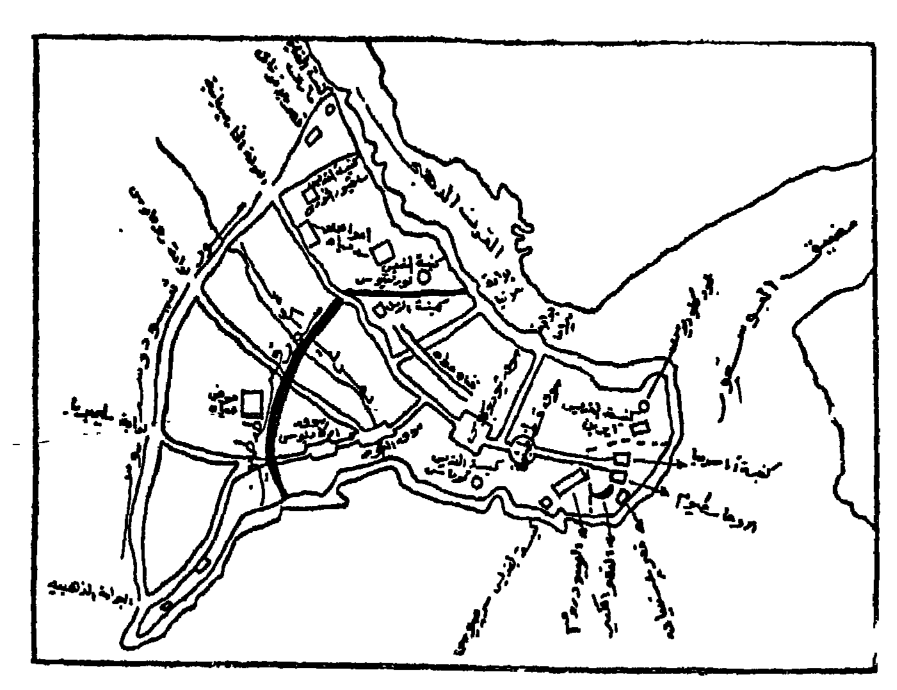
الخـــــرائط





خريطة رقم (١) خط سير الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤





خريطة رقم (٢)
مدينة القسطنطينية وأهم معالمها
عند فتح الصليبيين لها فى ١٤٠٢



المراجع العربية

- أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١) : القاهرة ، ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ؛ جزءان الأول ، بيروت ، ١٩٧٢ ، الثانى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى (الأمبراطور يوحنا تزيسكس ، وسياسته الشرقية - ٩٦٩ - ٩٧٦) الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

المراجع المعربة

- بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العرينى ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر .
- لويس : القوى البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .



المراجع غير العربية

Barrachough (g) : The Medieval papacy, London, 1975.

— Brehier (L) : Vie dt mort de Buzance, ed. Albin Michel, Paris, 1969.

: La Civilisation Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.

: L'Institutions eL'Empired Byzantine, : ed. Albin Michel, Paris, 1970.

— Choniates (N) : Historia, ed Bekker, incorpus Scriptrum Histcriae, Byezantinae, Bonn, 1835.

— Clari (R) : La conquete De constantiople, Editee Par lauer, paris, 1924.

-- Diel(Ch) : Une Republique Patricienne, Venise, (Bibliotheque de Philosoph e scientirique), 1928.

— Fooed : The Byzantine Empire, London, 1911.

-- Gibbon(E) : The decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, New York, 1976.

— Grousset(R) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.

— Guillon(A) : La civil sation byzantine, Arthand, Paris, 1974.

— Hanotaux(g) : Les venitiens ont-ils trahi la chretienté en 1202 ? Dans la RevueHistorique, Vol. IV, 1877.

- Hopf : Gesch chte gr cehenlandz \on Beg nn des Mittelalters lis unsere zeit, in Er-esch-gruber Encyclopedia, vols. 85—86, , 1867 — 1868

— Hussey(J) : The later Macedonians, The Comneni and the Angeli, 1025 — 1204, inc M.H., Vol. IV, part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

— Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latian, ed Paris, 1855.

— Jacob (E) : Innocent III, in C. M. H. Vol. VI, ed. Hussey, Lonodn, 1975.

— King(E) : The Kinghts Hospitallers in The Holy Land, London, 1931.

— Kinnamos (J) : Deeds of John and Manual Comnenus. Translated to English by Charles M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976.

— Labise : Histoire de France, Paris, 1911.

— Luchaire (A) : Innocent III, La question d'orient, Paris, Hachette, 1907.

— Mas-Latrie (L) : Histoire de l'ile de Chypre souses princes de la maison de Lusignan, 3 vols, Paris, Imprimerie Imperiale, 1852 — 1961.

— Miller : Imperial Constantiople, U. S. A. 1969.

— Nicol : The Fourth Crusade and The greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C. M. H, Vol. IV, part 1, ed. Hussy, Cambridge 1975.

— Norden (W) : Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlander Zu Byzanz, Berlin, 1898.

— Ostrogrosky : History of the Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.

— Painter(S) : A History of The Middle Ages, New York, 1954.

— Pears(E) : The Fall of Constantinople being the Stroy of the Fourth Crusade, New York, 1975.

— Psellus (M) : Chronographie, Traduit de grec par Renauld, Tome 1, Paris, 1926.

— Riant : Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat, dans Revue des questions historiques XVII, 1875. XVIII, 1875.

— Runciman (S) : The History of the Crusades, Vol. 3,
: Cambridhe University Press, 1966.
The Byzantine Theocracy, Cambridge
: University Press 1977.
: Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

— Tessier(J) : La quatrieme croisade, La division sur Zara et Constantinople, Laıoux, Paris, 1884.

— Toynbee (A) : Constantine Porphyrq ogenitus and his world, london, 1973.

— Vasilien : History of the Byzantine Emrire (324—1453), U.S.A. 1971.

— Villehardouin (g) : La Conqueste de Constantinople par les Barons Francais associez qux Venitians l'an 1204. English translation by Sir Marzials, London, 1965.

— Winkelman : Philip Von Schwaben und Otto Von Braunschweig, Vol. I. Leipzig, 1873.

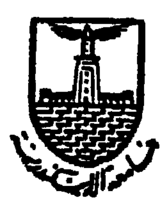
— Workman : The Evolution of the Monastic Ideal, London, 1927.

طبـع بمطابع جـريدة السفير
٤ شـارع الصحافة بالمنشية
اسـكندرية ـ ت : ٨٠٣٩٦٤

البحث الثاني



مجلة
كلية الآداب



المجلد السادس والثلاثون
١٩٨٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

الشئون الفنية ــ وحدة الأوفست
كلية الآداب



إمبراطورية فى المنفى
ثيودور لاسكاريس
وإحياء الامبراطورية البيزنطية فى نيقية

دكتـــــورة
إســـمت غنيـــم
جامعة الاسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

فى عام ١٢٠٤م، تم للصليبيين اللاتين فتح القسطنطينية عاصمة الأمبراطورية البيزنطية وحاملة لواء المسيحية فى الشرق منذ تأسيسها على يد قسطنطين الأكبر فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى وحتى ذلك الوقت من بداية القرن الثالث عشر . وقد كان ذلك الحدث بالنسبة للبيزنطيين ، الزلزال العنيف ، والطوفان المدمر ، الذى أتى على الأخضر واليابس . لقد فقدوا العاصمة الأم ، ملكة المدن ، مركز العالم الأرثوذكسى بأجمعه ، المشمولة برعاية وحماية السيد المسيح والسيدة العذراء ، هذا الأمر الذى كان من العسير على البيزنطيين تصديقه . وقد اعتبر المعاصرون منهم ذلك علامة على غضب الله ، وعقابا لهم على آثامهم وخطاياهم وشقاقهم .

وعلى اشلاء الامبراطورية البيزنطية الممزقة قامت ممالك لاتينية ، وفازت البندقية بنصيب الأسد ، كما أسس البيزنطيون ثلاث ممالك لهم كانت أبرزها إمبراطورية نيقية البيزنطية، التى قامت بالدور الأعظم والأهم فى المكافحة والنضال ضد العدو اللاتينى الذى جثم على انفاس عاصمتهم ، حتى تم لهذه الأمبراطورية استعادة العاصمة البيزنطية من يد مغتصبيها فى عام ١٢٦١ ، وبعد فترة صراع ونضال استمرت على امتداد عهود الاباطرة الذين تولوا الحكم فى نيقية .

ويعود الفضل الأكبر فى تأسيس إمبراطورية نيقية البيزنطية ، الى ثيوذور الأول لاسكاريس الذى ناضل نضالا عنيفا حتى تمكن من تأسيس حكمه فى نيقية ، وارسى قواعد البناء اليونانى الأرثوذكسى فى هذه المدينة ، التى اتخذها ملاذا ومستقرا ومركزا وقاعدة يقود منها حركة المقاومة ضد العدو اللاتينى .

وقد وفق ثيودور فى جهوده الى حد كبير ، وسار خلفاؤه على نهجه ، وترسموا خطاه ، وقد عاشوا جميعا ، وعملوا جميعا ، من أجل تحقيق هذا الهدف الذى

وجهه ثيودور الأول لاسكاريس صوب أعينهم ألا وهو استعادة العاصمة الأم ، وعودة (البطريركية المنفية) الى مقرها الرسمى فى عاصمة قسطنطين .

وهذا البحث يعرض للدور الكبير والهام الذى لعبه ثيودور الأول لاسكاريس فى سبيل لم شمل العناصر البيزنطية ، بعد الضربة العنيفة التى نزلت بهم ، وزلزلت كيانهم ، وتأسيسه للبطريركية الأرثوذكسية فى نيقية خلفا للبطريركية الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، ومختلف جهوده العسكرية والسياسية من أجل استعادة العاصمة الأم .

وقد استلزمت هذه الدراسة الاستعانة بعدد كبير من المصادر سواء البيزنطية أو اللاتينية الغربية . وفيما يتعلق بالمصادر البيزنطية فأولها زمنيا كتاب المؤرخ البيزنطى المعاصر نقيتاس خونياتيس Nicetas Choniates المسمى Historia ، نظرا لأنه كان معاصرا للاحداث الخاصة باستيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ م. وتأسيس ثيودور الأول لاسكاريس لملكه فى نيقيه . وقد انتهى هذا التاريخ عند عام ١٢٠٦ م ونشر هذا الكتاب فى عام ١٨٣٥ فى مجموعة بون البيزنطية .

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C.S.H.B.) وفى تقييم هذا المؤرخ ، يقول اوستروجورسكى Ostrogorsky ، أنه يمتاز بنظرة شاملة وقوة حقيقية تعينه على أن يقدم وصفا حيا للاحداث ، وهى ميزة ينفرد بها وتجعله الاكثر لمعانا بين مؤرخى التاريخ البيزنطى بعد بسيللوس [1] .

أما مؤرخ امبراطورية نيقية البيزنطية بحق فهو جورج اكروبوليتيس George Cropolites (١٢١٧ــ١٢٨٢) الذى ترك بصمات واضحة على كلا الصعيدين كرجل دولة ، وعالم ومفكر ، فكان معلما خصوصيا لولى العهد ثيودور الثانى

---

(1) Ostrogorsky: History of the Byzantine state, Translated by Hussey, Oxford, 1968, pp. 352-353.

وللمزيد عن نقيتاس خونياتيس راجع :

أسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، دار المعارف ، الأسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص.ص ٩ــ ١ .

لاسكاريس الذى تولى عرش نيقية فى الفترة (١٢٥٤ـ١٢٥٨) ، وقد حضر اكروبوليتيس مجمع ليون فى ١٢٤٥ نائبا عن الامبراطور البيزنطى فى نيقية يوحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ـ١٢٥٤) ، ورئيسا للوفد البيزنطى فى المجمع . وفى عام ١٢٤٦م. أصبح المستشار الأعظم Grand Logothate ، ثم عينه تلميذه الامبراطور ثيودور الثانى لاسكاريس بعد توليه العرش فى ١٢٥٤ واليا على الأراضى التابعة لامبراطورية نيقية فى الجانب الأوربى واتخذ سالونيكا مقرا له وظل فى منصبه حتى عام ١٢٥٧م.

وكتابه الذى يعرف باسم Opera نشره Heisenberg فى مدينة Leipzig عام ١٩٠٣ .. وقد اعطى فيه اكروبوليتيس وصفا واضحا للاحداث السياسية التى جرت منذ استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ وحتى استرداد البيزنطيين لها فى ١٢٦١ .

هناك أيضا المؤرخ البيزنطى نقفور جريجوراس Nicephorus Gregoras (١٢٩٥ـ١٣٥٩) الذى كان قريب العهد بهذه الأحداث ، ويعتبر كتابه المسمى Historiae Byzantinae الذى نشر فى مجموعة بون البيزنطية C.S.H.B. فى عام ١٨٢٩ ، تكملة لتاريخ اكروبوليتيس اذ تناول فيه جريجوراس الأحداث منذ عام ١٢٠٤ وحتى تاريخ وفاته فى ١٣٥٩ .

أما بالنسبة للمؤرخين اللاتين الذين تناولوا أحداث هذه الفترة فأهم ما يذكر منهم المؤرخان المعاصران جيوفرى فيلهاردوين Geoffery Villehardouin وكتابه عن « فتح القسطنطينية بواسطة البارونات الفرنسيين ومشاركة البنادقة فى عام ١٢٠٤ » .

La Conqueste de Constantinople for les Barons Francais. associez aux vemtians l'an 1204.

وكذلك روبرت كلارى Robert de Clari الذى كتب عن « فتح القسطنطينية La Conquete de Constantinop » [1] .

(١) فيما يتعلق بالمؤرخين جيوفرى فيلا ردوين وروبرت كلارى وتقييم تاريخهما لهذه الفترة ، راجع : إسمت غنيم · الحملة الصليبية الرابعة . ص.ص ٦ـ٩

هذا بالإضافة للعديد من المراجع الحديثة لكبار المؤرخين الذين تناولوا عصر ثيودور لاسكاريس ضمن عرضهم للتاريخ البيزنطى بصفة عامة ، لأنه لم يظهر حتى الآن بحث قائم بذاته باللغة العربية أو باللغات الأجنبية ، عن عصر ثيودور الأول لاسكاريس . فهذا البحث يعتبر أول بحث يلقى الضوء على عصر هذا الأمبراطور والدور الذى لعبه من أجل استعادة العاصمة البيزنطية القسطنطينية من يد اللاتين ، ويغطى مرحلة هامة من التاريخ البيزنطى لم يزاح عنها الستار حتى الآن .

والله الموفق ...

اسمت غنيم

لوران : ٧ يناير ١٩٨٧ م

لقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الدولة البيزنطية بالتعقيد الشديد نظرا لتشابك الأحداث السياسية فى هذه المنطقة من شرق أوروبا وغرب اسيا الصغرى وتعدد العناصر التى ساهمت بنصيب وافر فى هذه الأحداث

فقد نجح اللاتين الغربيين فى اسقاط العاصمة العريقة القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ وأقاموا ممالك لهم على انقاضها كانت هى ـــ الأمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ـــ مملكة سالونيكا، امارة آخايا Achaia فى البلوبونيز ، ودوقية آثينا وتيبس فى وسط بلاد اليونان . أما البندقية فقد انتشر نفوذها فى جزء من القسطنطينية يبلغ $\frac{3}{8}$ المدينة والجزر البيزنطية فى البحرين الإيجى والأيونى ، وجزيرة كريت ، وعدد من الاماكن الساحلية والداخلية[1] .

على أن الطبقة الارستقراطية البيزنطية ، التى فرت من العاصمة بعد سقوطها فى يد اللاتين الغزاه نجحت فى تأسيس ثلاث مراكز بيزنطية ، ففى الشمال الغربى لبلاد اليونان خلف جبال بندوس Pindos وحول أرتا Arta وضع ميخائيل انجيلوس (١٢٠٤ـــ١٢١٥) اساس امارة ابيروس Epirus .

وعلى الساحل الجنوبى للبحر الأسود أسست امارة طرابيزون تحت حكم اليكسيوس ودافيد كومنينوس ، اكبر أبناء الامبراطور اندرونيكوس الأول كومنينوس (١١٨٣ـــ١١٨٥) الذى كان قد ارتبط برابطة المصاهرة مع البيت الملكى فى جورجيا ، وفى ابريل ١٢٠٤ نجح كل من اليكسيوس ودافيد بمساعدة خالتهم الملكة الشهيرة تمارا Thamar[2] (١١٨٤ـــ١٢١٢) فى الاستيلاء على طرابيزون ، وظلا

(1) Villehardouin: La Conqueste de Constantivople par les Barons Francais associez aux venitians l'an 1204, English by Sir Marzials, London, 1965, P. 69.

Gregoras: Historiae Byzantivae, ed. weberi, Bonn, 1829 PP. 14-16.

wolff (L.): Studies in the latin Empire of Constantivople, London, 1976, PP. 190-195.
Ostrogorsky: op. cit., PP. 423-424
Whitting (Ph.): Byzantium, Oxford, 1981, P. 113.

(٢) هى ملكة جورجيا ، وقد خلفت والدها الملك جورج الثانى (١١٥٦ـــ١١٨٤) على العرش ، ويعود اليها الفضل فى تأسيس الشخصية الجورجية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وقد وصلت جورجيا تحت حكمها الى درجة كبيرة من القوة والاتساع حتى شملت معظم بلاد القوقاز . كما تمتعت البلاد فى عهدها بحضارة لامعة . حيث شجعت الغنائيين والكتاب والعلماء الذين هرعوا الى بلاطها من =

يتقدمان على طول الساحل الغربى للبحر الأسود ، فاستوليا على سينوب Sinope وبفلاجونيا Paphlagonia وهرقلية البنطية Pontive Heraclea [1].

أما ثيودور لاسكاريس فقد استطاع بعد جهد وعناء من تأسيس مملكة عرفت باسم امبراطورية نيقية البيزنطية ، كانت مدينة نيقية فى آسيا الصغرى عاصمتها ، وقد نافسه فى هذه المنطقة الأتراك السلاجقة الذين اتخذوا من قونيه عاصمة لسلطنتهم .

فضلا عن ذلك ، كان هناك الامبراطورية البلغارية ، التى ظهرت فى عام ١١٦٨ م . والتى كان على رأسها فى ذلك الوقت القيصر جوهانيتزا Joannitsa أو كالوجان Kalojan (١١٩٧ـــ١٢٠٧) ، ثم جاء من بعده بوريل (١٢٠٧ـــ١٢١٨) ، ثم يوحنا آسن الثانى John Asan II (١٢١٨ـــ١٢٤١) [2] .

كل هذه العناصر المختلفة من فرنجه لاتين ، ويونان بيزنطيين ، واتراك وبلغار ، أسهموا مساهمة فعالة فى الحياة السياسية المعقدة التى تلت عام ١٢٠٤ ، وامتلأ القرن الثالث عشر الميلادى ، بالصراع بين هذه العناصر المختلفة . فاليونان البيزنطيون ناضلوا ضد اللاتين ، كما دخلوا فى صراعات بين بعضهم والبعض الآخر ، بعد أن تنافست هذه الأمارات البيزنطية الثلاثة حول زعامة الشعب البيزنطى ، كما كافحوا أيضا ضد البلغار والاتراك . واللاتين حاربوا ضد البيزنطيين كما حاربوا ضد البلغار .. وكان للبلغار هم أيضا طموحاتهم واطماعهم فى

مختلف الانحاء ، وقد أتت سياستها نتائجها الطيبة فى عهد خليفتها الملك جورج الرابع (١٢١٢ـــ١٢٢٣) الذى اعتبر عهده العصر الذهبى لجورجيا ، والذى حكم مملكة واسعة شملت بلاد القوقاز ، من البحر الأسود حتى بحر الكاسبيان الذى يقع بين حدود قارتى آسيا وأوروبا ، وشملت مملكته كذلك الجزء الرئيسى من أرمينيا العظمى ، كما بلغت الحضارة الجورجية فى عهده قمتها ، ولقد وقع الهجوم المغولى على مملكته فى السنة الأخيرة من حكمه راجع :

Allen: A History of the Georgian People, 1932.

(1) Miller: The Empire of Nicaea and recovery of constantivople, in C.Med.H. ed Bury, Vol. IV, 1923, PP. 479-480.
Angold: A Byzantive Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975, P. 12.
Walter: La Ruive de Byzance (1204-1453), ed Albin, Michel, plehel, paris, 1958, P. 163.
Brehier: Vie et mort de Byzance, Paris, 1969, P 309.
Ostrogorsky: op. cit., P. 425.

(2) Wolff: The Second Bulgarian Empire, its Origin and History to 1204, Research in (Studies in the latin Empire of Constantinople), chapter III, PP. 167-206.

القسطنطينية منذ زمن بعيد ، وجاء استيلاء اللاتين عليها فى عام ١٢٠٤ ، والنهضة التى بلغتها دولة البلغار فى هذه الآونة ، مجددا لآمالهم فى الاستيلاء على عاصمة قسطنطين .

وقد أدت كل هذه التعقيدات السياسية والعسكرية ، الى قيام تحالفات عالمية محدودة قصيرة الأجل ، كانت تبدأ ببساطة ، وتنتهى ببساطة مماثلة ، وكما قال المؤرخ الألمانى نيومان Neumann « كل هذه الحكومات الأجنبية فى الشرق ، لم يكن رد فعلها الابداع » وإنما التحطيم ... يضاف لذلك انهم هم انفسهم قد حُطموا ، وبقى الشرق سيدا على الشرق »[1] .

ولم يبعد نيومان عن الحقيقة ، فرغم كل هذه الصراعات العسكرية والسياسية ، ورغم تعدد العناصر فى هذه المنطقة من شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى ، الا أن الشرق ممثلا فى البيزنطيين تمكن من طرد هؤلاء الغزاة ، واستعاد سيادته على أراضيه من جديد .

ويعود الفضل فى ذلك الى امبراطورية نيقية البيزنطية ، التى لعبت الدور الكبير والهام فى النضال ضد مختلف العناصر ، وخاصة اللاتين ، حتى تمكنت بالفعل من استعادة العاصمة القسطنطينية فى عام ١٢٦١ .

ففى الوقت الذى أوشك فيه الصليبيون أن يقتحموا القسطنطينية فى ١٢ أبريل عام ١٢٠٤ ، كانت تجرى بعض المراسم فى كنيسة آيا صوفيا لانتخاب امبراطور جديد ، بعد فرار الامبراطور اليكسيوس الخامس مرزفلوس Murtzuphlus عام (١٢٠٤) . وقد وقع اختيار رجال الدين وعلى رأسهم بطريرك القسطنطينية John Camaterus على ثيودور لاسكاريس ليتولى العرش ، ولكن قبل أن يتم تقليده بالشارات الامبراطورية ، ونظرا لخطورة الموقف قام ثيودور بمحاولة للم شمل المدافعين عن العاصمة ، وحينما رأى أنه لا فائدة من المقاومة وأن كل شىء قد انهار ، فر مع زوجته وبناته الثلاث وعبر بحر مرمره الى آسيا الصغرى .

(1) Neumann (C.): "Die Byzantinische Marive", Historische Zeitschrift, LXXXX, 1898, PP. 1-2.

وهكذا فقد امتاز ثيودور لاسكاريس عن غيره من الحكام البيزنطيين الذين أسسوا لهم ممالك سواء فى ابيروس أو طرابيزون ، امتاز عنهم جميعا ، بانه تم اختياره امبراطورا شرعيا للبيزنطيين بواسطة رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك ، وفى كنيسة آيا صوفيا ، الكنيسة الرئيسية فى الامبراطورية ، كما أنه يمت بصلة المصاهرة مع البيت الملكى البيزنطى الذى كان يحكم قبل فتح اللاتين للقسطنطينية ، وهو آل انجيلوس ، فقد كان متزوجا من آنا Anna ابنة الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥—١٢٠٣) . وكان ثيودور لاسكاريس فى ذلك الوقت فى الثلاثين من عمره ، وكان يشغل منصب القائد فى الجيش البيزنطى ، وقد ابلى بلاءا حسنا فى الحرب ضد البلغار ، وكذلك فى مقاومة حصار الصليبيين للعاصمة البيزنطية فى عام ١٢٠٤[1] .

بعد وصول ثيودور لاسكاريس الى آسيا الصغرى ، وقع اختياره على مدينة نيقية ليتخذها ملاذا يلوذ به ، ومركزا يقود منه حركة المقاومة ضد اللاتين . والواقع أن اختياره لمدينة نيقية بالذات يدل على بعد نظر ، وسعة أفق ، نظرا لقربها من العاصمة القسطنطينية ، فبينهما مسافة لا تتجاوز الأربعين ميلا فقط ، مما يجعله قريبا من اللاتين يستطيع أن يراقب تحركاتهم ، ويقلق راحتهم .

وتقع هذه المدينة فى اقليم بيثينيا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وتشرف على بحيرة اسكانيوس Ascanius ، وكان قد بناها الملك انتيجونوس Antigonus فى عام ٣١٦ ق.م. ، وأطلق عليها اسم انتيجونيا Antigonia نسبة إليه . ثم جاء الملك لسيماخوس Lysimachus وغير اسمها الى نيقية Nicaea نسبة إلى اسم زوجته . وفى أيام الامبراطورية الرومانية ، اصبحت نيقية ونيقوميديا عاصمتى اقليم بيثينيا . وقد وصف نيقية الجغرافى سترابو Strabo ، وقال انها بنيت على شكل المربع ولها بوابه فى كل جانب من جوانبها الأربعة . وفى أيام الامبراطورية البيزنطية ذاع إسم نيقية بعدما اتخذها الامبراطور قسطنطين الاكبر مقرا لانعقاد المجمع الدينى الأول فى عام ٣٢٥ م . الذى ناقش مشكلة الخلاف بين آريوس

---

(1) Miller: The Empire of Nicaea, P. 478.
Nicol The Fourth crusade and the greek and latin Empire 1204-1261, in C.Med H ed Hussey, Cambridge, 1975. Vol, IV, P. 291.

واثناسيوس ، وظلت مزدهرة ، كثيرة الخيرات ، فقد أمدتها سهول بيثينيا بالقمح ، والعنب ، على حين أمدتها البحيرة القريبة منها بالأسماك ، كذلك توفرت بها المياه ، وكثر بها شجر السرو الذى جعل المدينة متعة للناظرين ، وقد امتازت بشوارعها الواسعة ، وكنائسها واديرتها العديدة التى مايزال بعضها قائما حتى الآن . كما كانت المدينة قوية التحصين عن طريق اسوارها القوية وابراجها المرتفعة وبواباتها المتينة ، التى ماتزال باقية حتى الوقت الحاضر(١) .

وفى عام ١٠٧٥ فتحها الاتراك السلاجقة واتخذوها عاصمة لممتلكاتهم فى آسيا الصغرى وظلت بايديهم اكثر من عشرين عاما حتى استعادها الامبراطور اليكسيوس كومنينوس فى عام ١١٩٧ بمساعدة صليبى الحملة الأولى وظلت تابعة للدولة البيزنطية حتى وصل اليها ثيودور لاسكاريس فى عام ١٢٠٤ وطلب من اهاليها اعتباره حاكمهم الشرعى .

على أن اهالى نيقية رفضوا استقباله واغلقوا بوابات مدينتهم فى وجهه ، وربما كان الدافع للاهالى على تصرفهم هذا هو خوفهم من انتقام اللاتين ، لذلك فقد اتجه ثيودور الى مدينة بروسا Brusa القريبة من نيقية واستقر هناك ، وعلى الفور التف حوله عدد كبير من اللاجئين البيزنطيين سواء من المدنيين أو رجال الدين الذين فروا من وجه اللاتين(٢) . ولم يلبث اللاتين أن وجهوا قواتهم الى آسيا الصغرى لاحتلالها ، وهنا بدأ الصراع سافرا بين ثيودور لاسكاريس والقوات اللاتينية .

ذلك أن مدينة نيقية منحت لقب (دوقية) وكانت من نصيب واحد من

---

(1) Nicetas Choniates: Historia, ed. Weheri, Bonvae, 1835, P. 318.

Villehardouin: La conquete de constantinople, P. 304.
Miller: The Empire of Nicaea, PP. 478-79.
Vosiliev: The Byzantine Empire, Vol 11, PP. 512-513
Magie: Roman Rule in Asia Minor, 2 Vols, 1975
Pears: The Fall of constantivople;, Being the story of the fourth crusade, New York, 1975, P. 33, P. 80.

(2) Georgu Acropolitae opera, ed. Heisenberg, I, P. 11, II, P 5-9, m7 18
Miller: Op. cit., P. 479.
Nicol: The Fourth crusade, P 291

اكبر القادة فى الحملة الصليبية الرابعة وهو الكونت لويس اوف بلواوشارتر Count Louis of Blois and Charter الذى كان نبيلا ثريا ، وهو ابن اخت ملك انجلترا ، وقد لعب دورا هاما فى تنصيب بلدوين اوف فلاندرز كأول امبراطور لاتينى يتولى عرش القسطنطينية . وفى أول نوفمبر عام ١٢٠٤ أرسل الدوق الفرنسى لنيقيه اثنين من رجاله هما بور دى براكوى Burre de Bracheuil ، وباين دى اورليان and Payen d'orleans مع قوة من ١٢٠ فارسا لامتلاك نصيبه فى آسيا الصغرى . وقد وصل هؤلاء جميعا الى مدينة بيجاى Pigae الواقعة على مضيق الدردنيل ، حيث أظهر الأهالى الترحيب بهم ، ثم احتلوا المدينة الهامة باندرما Panderma .

وقد كان لابد لثيودور لاسكاريس أن يدافع عن ملجأه الأخير الذى بقى له فى أرض آسيا الصغرى بعد أن احتل اللاتين العاصمة البيزنطية ، ووزعوا املاك الامبراطورية على انفسهم ، لذلك فقد جمع جيشا والتقى مع جيش اللاتين فى سهل امام قلعة بومانيفون Poemanivon فى ٦ ديسمبر عام ١٢٠٤ ، ولم يستطع لاسكاريس وجيشه الصمود امام اللاتين ففر ، وتمكن اللاتين خلال اسبوع واحد من الاستيلاء على عدة مواقع هامة فى هذه المنطقة ، مثل القلعة الحصينة بومانيفون Poemanivon ومدينة لوباديوم Lopadium التى كانت من أجمل مدن اقليم بيثينيا ، وقلعة بوليكنا Polychna وهى تقع على بحيرة جارية الماء ، وتعد واحدة من احسن القلاع واحصنها ، ثم حاصروا مدينة بروسا Brusa ملجأ ثيودور لاسكاريس ، ولكن المدينة كانت جيدة التحصين ، وقد هيأ لها ذلك موقعها الطبيعى القوى واسوارها المرتفعة ، لذلك فقد قاومت الحصار ، وقد شجع حصار اللاتين لبروسا الأهالى على الثورة ضد لاسكاريس ، خوفا من انتقام اللاتين اذا ساعدوا لاسكاريس ضدهم وخاصة أن فتوحات اللاتين ، وأولها فتحهم للقسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية نفسها ، وما تلاها من فتوحات فى الجانب الأوربى والجزر اليونانية وآسيا الصغرى ، قد اعطت الأهالى فكرة عن أن هؤلاء اللاتين لا يمكن قهرهم ، وأنه من الأسلم لهم أن يستسلموا خوفا من بطشهم . .

كذلك تمكن هنرى شقيق بلدوين إمبراطور القسطنطينية اللاتينى ، من احتلال مدينة ابيدوس Abydos ، وترك بها حامية من رجاله ، ثم سار الى مدينة ادراميتيوم Adramyttium الواقعة على شاطىء البحر ، وبينها وبين ابيدوس مسيرة يومين فقط ، وقد استسلمت له المدينة التى كانت غنية بخيراتها كما استسلم له جزء كبير من الأقليم[1] .

وهكذا وقعت معظم مدن اقليم بيثينيا فى يد اللاتين ، وبدا وكأن البيزنطيين قد خسروا قضيتهم كذلك فى آسيا الصغرى . لكن وفى هذه اللحظات المصيرية الحاسمة ، وقعت احداث معينة كان لها أثر كبير فى تغيير مجرى الأمور ، وكانت هذه الأحداث خاصة بالصراع الذى اشتعل بين اللاتين من جهة وبين الارستقراطية البيزنطية فى تراقيا وقيصر البلغار جوها نيتزا من الجهة الأخرى ، وقد جاءت تلك الأحداث فى الوقت المناسب تماما لتخدم القضية البيزنطية وتنقذ لاسكاريس وآماله فى تنظيم المقاومة ضد الغزاة اللاتين واتخاذ آسيا الصغرى معقلا له يقود منها حركة المقاومة البيزنطية .

وتفصيل ذلك أن ملاك الأرض من الارستقراطيين البيزنطيين فى اقليم تراقيا Thrace أبدوا استعدادهم للاعتراف بسيادة اللاتين عليهم ، ومنحهم التأييد ، على أساس أن تظل ملكياتهم للأرض Promoiai ، كما هى فى ايديهم . لكن اللاتين رفضوا ، واكثر من ذلك ، أخذوا يعملون على استفزاز اليونان فى هذا الاقليم ، عن طريق تحقير العقائد والطقوس الدينية الأرثوذكسية ، مما اساء اساءة بالغة للشعب اليونانى فى تراقيا ، ودفعهم للالتجاء الى قيصر البلغار جوهانيتزا طالبين منه مساعدتهم فى التخلص من سيطرة اللاتين ومقدمين له التاج الملكى .

وقد جرت اتصالات سرية بين الطرفين ، قام خلالها بدور هام بطريرك القسطنطينية السابق يوحنا كاماتيروس ، الذى كان يقيم فى بلغاريا بعد فراره من القسطنطينية عقب فتح اللاتين لها ، وقد عمل كاماتيروس على تكوين حلف يونانى بلغارى فى عامى ١٢٠٤ـ١٢٠٥[2] .

(1) Villehardouin: La conquiete de constantinople, PP. 83-84.

(2) Nicetas choniates: Historia, ed. Bonn, PP 791-808

وقد كان قيصر البلغار لديه الاستعداد لقيام مثل هذا الحلف ، بعد أن اساء اليه اللاتين هو الآخر . فبعد أن علم الملك البلغارى بفتوحات اللاتين على حساب الامبراطورية البيزنطية ، خشى على ممتلكاته من أن تمتد اليها يد اللاتين مثلما فعلوا مع البيزنطيين ، لذلك فقد أرسل الى البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) يقول : « اكتب الى اللاتين لكى يبتعدوا عن امبراطوريتى ، واذا هم فعلوا ذلك ، فان امبراطوريتى لن تؤذيهم .. ولكن اذا هم قاموا بمحاولة ضدها ، وقتل البعض منهم ، فان هذا لن يكون خطئى »[١] .

وقد اراد جوهانيتزا أن يقيم علاقات ود وصداقة مع اللاتين فى القسطنطينية ، ولكن اللاتين ، بغطرستهم المعهودة ، أبوا ذلك ، وأوضحوا له أنه من غير اللائق أن ينظر الى الامبراطور اللاتينى على أنه نظير له ، وإنما يجب أن ينظر إليه على أنه سيدا له ، ثم وجهوا اليه انذاراً مضمونه ، انه إذا تهاون فى احترام الامبراطور بلدوين ، فانهم سوف يفتحون بلاده بحد السيف وقوة السلاح وسيعيدونها من جديد دولة تابعة ، كسابق عهدها مع بيزنطة[٢] .

وهكذا قربت هذه الظروف بين البيزنطيين فى تراقيا وقيصر البلغار ، وجعلتهما حليفين يسعيان معا للدفاع عن ممتلكاتهما ضد خطر اللاتين .

ويعلق المؤرخ اسبنسكى Uspensky على هذا الحلف البيزنطى البلغارى بقوله : « لقد وضع هذا الحلف حدا لتردد كالوجان ، وثبت خطته لتحركاته المقبلة ، واظهره كحامى للارثوذكسية ، وللشعبين اليونانى والبلغارى ضد سيطرة اللاتين الكاثوليك »[٣] .

وهكذا اشتعلت الحرب بين قيصر البلغار ويؤيده البيزنطيون فى البلقان ، وبين اللاتين ، وانتشرت الثورة فى تراقيا ضد اللاتين ، واستولى البلغار وحلفاؤهم

(1) Wolff: Studies in the latin Empire of constantinople, chapter I, PP. 201-202.

(2) Villehardouin: la conquete de constantiuople, P. 87.
Vasiliev: History of the Byzantive Empire, Vol. II, P. 509.

(3) Uspensky (P.): The Formation of the second Kingdom of Bulgaria, Odessa, 1879, PP. 245-246.

البيزنطيون على ديموتيكا التابعة للامبراطور بلدوين ، وهادريا نوبل (ادرنه) التابعة للبنادقة . عند ذلك عقد الأمبراطور بلدوين مجلسا للتشاور مع دوق البندقية هنرى داندولو والكونت لويس اوف بلواوشارتر ، وتدارسوا الموقف واجمعوا على تكريس جهودهم كلها من أجل القضاء على هذه الثورة المسلحة ضد النفوذ اللاتينى فى البلقان ، وإلا فانهم سوف يخسرون كل ممتلكاتهم هناك . لذلك فقد ارسل الأمبراطور بلدوين الى شقيقه هنرى الذى كان عند ادراميتيوم Adramyttium ، كما سبق أن أوضحنا ، لكي يترك فتوحاته فى آسيا الصغرى ويعود للمساعدة فى الحرب ضد البلغار . كذلك ارسل الكونت لويس اوف بلواوشارتر الى نائبيه فى آسيا الصغرى اللذين كانا عند لوباديوم Lopadium ، والى جميع رجاله لكي يتركوا فتوحاتهم فيما عدا بيجا Piga نظرا لأهمية موقعها على مضيق الدردنيل ، ويتركوا بها حامية صغيرة ويعود الجميع للمشاركة فى الحرب ضد البلغار[1] .

وقد توجه الأمبراطور وباروناته ، ودوق البندقية ، والجيش اللاتينى الى هادريانوبل حيث حاصروها ، ويصف شاهد عيان هو روبرت كلارى ، ما تلى ذلك من احداث فيقول :

"...... Si Comme il Seoient esluce, este me Vous Un Jour on Jehans li Blaks, et il et li Commain, a tout malt grant gent, Venoient le tere de Coustantinoble, Si Comme il avoient autre fois fait; Si trouverent L'empereeur a toute s'ost seant a Andernople. Quant chil de l'ost virrent ches Commains a ches plichons vestus, Si ne les douterent ne prisierent nient plus que un trope d'enfans; et chil Commain et chele gent venoient grandesme aleure, Si Keurent il sus as Franchois, Si enochisent mout, Si les desconfissent il lous enchele batalle. Si fu perdus li empereres, que on ne Saut onques que il devint, et li cuens Loeis et molt d'autres haus hommes et tant d'autre gent que nous n'en Savons le nombre, mais que bien iperdi on trois chens chevaliers; et qui escaper peut, Si S'en vint fuiant en Coustantinople, Si que li dux de Venice S'en Vint fuiant et asses gens avec lui, et

(1) Villehardouin: La conquete de constantinople, P. 87.

laissierent leur tentes et leur harnas, tout Si Comme il seoient a chele chité, que onques n'oserent vertir chele part si i fu le desconfiture grans"[1]

وترجمة هذا النص باللغة العربية كالتالى : « وبينما كانوا معسكرين امامها (هادريانوبل) اذا بهم يبصرون فى أحد الأيام جون الوالاشى والكومان[٢] فى جيش كبير ، قد جاؤا الى منطقة القسطنطينية ، كما فعلوا من قبل ، ووجدوا الامبراطور وجميع جيشه معسكرين امام هادريانوبل ، فلما ابصر رجال الجيش الكومان متدثرين بجلود ماشيتهم ، لم يخافوا منهم أو يعبأوا بهم ، اكثر من خوفهم من فرقة صغيرة من الأطفال ، فانطلق الكومان فى سرعة ، وكروا على الفرنسيين ، وقتلوا الكثيرين منهم وهزموهم جميعا فى هذه الموقعة ، وتفقد القوم الامبراطور ، فلم يعرف أبدا بعدئذ ما جرى له ، كما ضاع أيضا الكونت لويس وكثيرون غيره من كبار الرجال ، وحشد كبير لا نعرف لهم عدا ، وإن كان الهالكون ثلاثمائة فارس . أما الذين نجوا من القتل فقد فروا الى القسطنطينية ، كما فر دوق البندقية ومعه الكثيرون ، وتركوا معسكراتهم واسلحتهم كما كانت أمام المدينة ، لأنهم لم يجرؤا على الذهاب الى هذا الطريق ، ومن ثمة كان الهلاك عظيما » .

وليس ابلغ من وصف كلارى لهذه الحادثة ، فقد استخف اللاتين بقوة الملك البلغارى ومن معه من الكيومان ، وترتب على ذلك هذه الكارثه التى حلت

(1) Robert de Clari: La Conquete de Constantinople ed. for philffe laver, Paris, 1924, P. 106.

(٢) ذكرهم كلارى باسم Commain ، لكن الاسم الصحيح لهم هو كيومانز Cumans أو بولوفتسى Polovtsy ، وهم قبائل تركية بدوية ، يرجع اصلهم الى وسط آسيا . وابتداء من القرن الخامس الميلادى وحتى القرن الثامن زحزحوا من مواطنهم بواسطة قبائل أخرى . وقد اندمج بعض الكيومان مع عنصر المغول بينما نزح بعضهم الآخر إلى السهول الجنوبية لروسيا خلال القرن العاشر .

وقد عرف الكيومان فى التاريخ بهجماتهم الخطيرة ومعاركهم السريعة ضد اعدائهم سواء من البيزنطيين أو الروس ، الباجناك ، المنغاريين وغيرهم . وفى عام ١٢٣٧ هزمهم باتوخان Batu-Khan ، أحد أحفاد جنكيزخان وقتل زعيمهم ، وانتهى بهم الحال الى الإندماج فى الامبراطورية المغولية التى اسسها باتوخان وعرفت باسم Golden Horde والتى حكمها فى الفترة (١٢٢٧—١٢٥٦) .

راجع : Grousset (R.): I 'empire des Steppes, 1945

باللاتين وجيشهم فى موقعة هادريانوبل فى ابريل ١٢٠٥ . ولم يعرف احدا على وجه التحديد مصير الامبراطور بلدوين ، وقد اختلف المؤرخون المعاصرون فى هذا الموضوع ، فروبرت كلارى كما رأينا ذكر أن الامبراطور بلدوين فُقِدَ ولم يعرف أحد ما حدث له . أما فيلهاردوين الذى اشترك هو الآخر بنفسه فى المعركة ، فقد ذكر أن الامبراطور بلدوين اخذ أسيرا ، ولم يقتل ، على حين ذبح الكونت لويس اوف بلواوشارتر[١]

واختلف المؤرخون البيزنطيون هم أيضا فى المصير الذى آل اليه الامبراطور بلدوين فذكر نقيتاس خونياتيس أن بلدوين اخذ اسيرا الى عاصمة جوهانيتزا وهى Trinovo فى أعلى جبال البلقان ، وهناك كُبل بالسلاسل حتى رقبته وهو على قيد الحياة[٢] . أما المؤرخ اكروبوليتيس فقد أوضح أن جوهانيتزا قد قطع رأس بلدوين وزينها بالحلى واتخذها وعاء لشرابه[٣] .

وهكذا يتفق كل من المؤرخ اللاتينى فيلهاردوين والمؤرخ البيزنطى خونياتيس وهما معاصران للاحداث ، فى ايضاح المصير الذى آل اليه الامبراطور اللاتينى للقسطنطينية بلدوين ، وهو انه أسر ونقل الى عاصمة البلغار . وربما كان هذا هو الأقرب الى الصواب والحقيقة ، ويؤيد هذا الرأى تلك الرسالة التى أرسلها البابا اينوسنت الثالث فى أغسطس أو سبتمبر من عام ١٢٠٥ الى جوهانيتزا يطلب منه أن يطلق سراح بلدوين كأساس لاقرار السلام مع اللاتين[٤] .

وعلى هذا النحو بدأت فى الأنهيار قوة اللاتين بعد سنة واحدة من فتحهم القسطنطينية ، ويقول المؤرخ الألمانى جلزر Gelzer : « سيادة الفرنجه على الدولة البيزنطية انتهت فى ذلك اليوم الحزين »[٥] .

أما اسبنسكى Uspensky فيقول : « بقاء الامبراطورية اللاتينية فى

(1) Villehardouin: La conquete de constantivople, P. 94.

(2) Choniates. Historia, ed. Bonn, P. 814

(3) Georgu Acropolitae ohera, ed Heisenberg, 1, P. 22.

(4) Wolff: Studies in the lativ Empire of Constantinople, P 289.

(5) Gelzer (H): Abriss der Byzantinischen kaisergeschichte, P 1042

القسطنطينية دون ادنى شك ، فترة أخرى من الزمن ، كان تماما ، فى ايدى البلغار»[1] . وقد كانت معركة هادريانوبل ، وما ترتب عليها من هزيمة اللاتين على هذه الصورة ، مما جعل جوهانيتزا يعتد بقوته ، ومن ثمه نقض تحالفه مع يونان البلقان ، وقام بغارات مدمرة ضدهم فى شتاء وربيع عامى ١٢٠٥—١٢٠٦ ، وافنى معظم سكان المدن ، واتخذ لقب (سفاح الرومان) Romaioktonos[2] ، ردا على لقب (سفاح البلغار) Bulgaroktonos الذى كان قد اتخذه الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٥—١٠٢٥) .

ومن ذلك يتضح أن قيصر البلغار وشعبه لم ينسوا عداءهم السابق لبيزنطه والبيزنطيين ولم يكن تحالفه مع يونان البلقان إلا أمرا مؤقتا حتى يضمن مساعدتهم له ، أو على الأقل حيادهم اثناء صراعه مع اللاتين . كما أن اليونان انفسهم لم يتحالفوا معة الا من أجل كسب مساعدته لهم ضد اللاتين ، أما عن شعورهم الحقيقى تجاهه ، فقد وضح تماما من اللقب الذى اطلقوه عليه وهو Skyloiannes[3] ومعناها بالعربية (الكلب جون) .

وقد خدمت هذه الأحداث كلها ، الخاصة بصراع اللاتين والبلغار ، وما أدى إليه من اشتعال معركة هادريانوبل بين الطرفين ، ثيودور لاسكاريس ، وكانت لها نتائج هامة وبعيدة المدى . فقد انسحب اللاتين من آسيا الصغرى ، بعد أن أوشكوا أن يفتحوها ، ويقضوا على ثيودور لاسكاريس . وقد قتل الدوق الأول والأخير لنيقية ، وهو لويس أوف بلواوشارتر ، قبل أن تطأ قدمه أرض آسيا الصغرى ، وبذلك خلا الجو لثيودور لاسكاريس لكى يلتقط انفاسه ، وينظم أموره ، ويعمل جاهدا على تأسيس ملكه هناك ، ومنحه الفرصة فى حياة جديدة وأمل جديد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد افتقد يونان البلقان مركزا قوميا لهم فى أوروبا ، بعد أن تعرضوا للاضطهاد والعداء من جانب البلغار واللاتين فى آن واحد ، لذلك فقد ولوا وجوههم شطر ثيودور لاسكاريس فى آسيا

(1) Uspensky: Second Bulgarian Kingdum, P. 250

(2) Georgu Acropolites opera, ed. Heisenberg, PP. 23-24.

(3) Ibid: P. 24.

الصغرى ، ونظروا اليه على أنه المحرر الأمثل لهم من الغزاة اللاتين والبلغار ، والمتحدث الرسمى عن آمالهم واحلامهم .

كذلك ترتب على هزيمة اللاتين فى معركة هادريا نوبل ، أن اتفق أهالى نيقية على تسليمها لثيودور لاسكاريس ، بعد أن رأوا كيف انهارت قوة اللاتين ، وانهم ليسوا بالقوة التى ظنوهم بها . وهكذا نقل ثيودور لاسكاريس عاصمته من بروسا الى نيقية(١) ، وجمع حوله رجال الدين الارثوذكسى ، وكل من لجأ اليه من الشعب البيزنطى ، واصبحت نيقية هى المركز القومى للبيزنطيين والقاعدة السياسية والعسكرية التى انطلق منها ثيودور ليباشر نشاطه ضد العدو اللاتينى الجاثم على الأرض البيزنطية .

ولم يكن منتظرا من اللاتين أن يتركوا ثيودور يهنأ بوضعه الجديد فى آسيا الصغرى ، فاستأنفوا الصراع ضده محاولين القضاء عليه . وقد انفرد المؤرخ اللاتينى جيوفرى فيلهاردوين بسرد تفاصيل هذا الصراع الذى اشتعل بين اللاتين من جهة وثيودور لاسكاريس من الجهة الأخرى . والجدير بالذكر أن المؤرخين البيزنطيين لم يأتوا بشيء عن تفاصيل هذا الصراع ، وكذلك الغالبية العظمى من المؤرخين المحدثين مثل فازيلييف واستروجورسكى وبريبه وهسى ونيقول وولف والجولد وغيرهم كثير . لذلك فاننا ندين بالفضل فى معرفة تفاصيل هذا الصراع للمؤرخ اللاتينى فيلهاردوين .

وقد بدأ الصراع بين الطرفين بعد تتويج هنرى ــ شقيق الامبراطور السابق بلدوين ــ امبراطورا على عرش القسطنطينية فى ٢ اغسطس ١٢٠٦ فى كنيسة آيا صوفيا ، اذ سارع بالالتفات الى شئون آسيا الصغرى ، وثيودور لاسكاريس . وقد طمع هنرى فى أن يضم نيقية الى ممتلكاته ، لذلك فقد أرسل الى آسيا الصغرى فى نهاية ١٢٠٦ قوة مكونة من ١٤٠ فارسا ، وكان على رأسها بطرس أوف بارسيو Peter of Barcieux الذى منحه الامبراطور هنرى حق امتلاك Pigae .

(1) Miller: The Empire of Nicaeq, PP. 481-482.
Nicol: The Fourth crusade and greek and latin Empires, P. 295

وشبه جزيرة قزيقوس Cyzicus الواقعة على بحر مرمره والتى ذكرها فيلهاردوين باسم Espiga [illegible] وقد ساروا حتى بلغوا قزيقوس ودخلها جيش الفرنج وقام بطرس بتحصينها ، وبنى بها قلعتين ورصف طريقين للدخول اليها[١] ، والجدير بالذكر أن هذه المدينة قد استحوذت على جانب كبير من الصراع بين اللاتين وثيودور لاسكاريس وذلك نظرا لاهتمام كلا الطرفين بها ، وكان اهتمام ثيودور بها طبيعيا نظرا لانها تعتبر المنفذ الطبيعى له على البحر ، على حين اهتم بها اللاتين لانهم يريدون أن يحرموا ثيودور من هذا المنفذ البحرى الذى يستطيع عن طريقه أن يهدد الممتلكات اللاتينية على الساحل الاوروبى المقابل وعرقلة مرورهم عبر بحر مرمره ، وليستفيدوا هم من موقعها الجغرافى . وقد قام اللاتين بمهاجمة اراضى ثيودور لاسكاريس ، ونهبوا الكثير من الغنائم والماشية ، وعادوا بها الى قزيقوس . ولكن ثيودور لم يسكت على هذا التخريب الذى ألحقه اللاتين باراضيه ، فطاردهم حتى وصل الى قزيقوس ، وهناك التحم الطرفان فى معارك اسفرت عن خسائر جمة لكلاهما .

كذلك أرسل الامبراطور هنرى نائبه ويدعى Thierri of Loos الى آسيا الصغرى بعد أن منحه مدينة نيقوميديا ، وهى على بعد يوم واحد من نيقية عاصمة لاسكاريس وقد وصل ثيرى الى نيقوميديا مع قوة من رجال الامبراطور هنرى ، وقام ثيرى بتحصين كنيسة سانت صوفيا St. Sophia التى تقع خارج مدينة نيقوميديا وامتازت بالاتساع والجمال ، وقد اشتبك معهم ثيودور لاسكاريس أيضا محاولا انتزاعها من ايديهم[٢] .

وهكذا بدأ اللاتين فى الضغط على ثيودور لاسكاريس من جديد محاولين القضاء عليه واستخلاص هذه المنطقة من آسيا الصغرى . وقد أدرك ثيودور أنه ليس بوسعه التصدى لهم ، وأنه لن ينقذه إلا البلغار ، مثلما حدث من قبل ، لذلك فقد راسل قيصر البلغار جرجاييترا واخبره أن الامبراطور هنرى قد وجه كل

---

(1) Villehardouin: La conquete de Cons[illegible] [illegible] 120

(2)' Villehardouin: Op. cit , P. 121.

قواته الى آسيا الصغرى من أجل القضاء على لاسكاريس ، وأن الامبراطور فى القسطنطينية وليس لديه سوى عدد ضئيل من القوات ، وأن هذا هو الوقت المناسب للانتقام من اللاتين ، وطلب منه أن يتعاونا معا فى الهجوم عليهم بحيث يهاجمهم جوهانيتزا من الغرب من البلقان ، وثيودور من الشرق من آسيا الصغرى ، وبذلك يقع اللاتين بين فكى الكماشة[١] .

وقد استجاب له جوهانيتزا ، وقام بجمع جيش ضخم من البلغار والكيومان والوالاش Vallach[٢] ، وفى ٧ مارس ١٢٠٧ دخل الى الأراضى التابعة للاتين فى البلقان ، وأرسل جيشا من الكيومان خربوا المنطقة حتى وصلوا الى بوابات القسطنطينية ذاتها ، أما هو ففرض الحصار على مدينة هادريا نوبل ، ونصب ٣٣ منجنيقا ضخما لدك الاسوار والابراج بالحجارة ، وقد أرسل سكانها من اللاتين واليونان الى الامبراطور هنرى يخبروه بذلك ، وطلبوا النجدة العاجلة[٣] .

وهكذا أحدث جوهانيتزا ، وللمرة الثانية ، تغييرا فى الاحداث ، وحول انتباه اللاتين من آسيا الصغرى الى تراقيا . وللمرة الثانية أيضا أرسل الامبراطور اللاتينى يستدعى قواته من آسيا الصغرى ليرسلها الى حرب البلغار ، فنفذوا أوامر الامبراطور وانسحبوا من مواقعهم باستثناء حاميات صغيرة قليلة العدد بقيت فى الاماكن التى فتحها اللاتين .

وحينما علم ثيودور لاسكاريس بنجاح خطته وتخطيطه ، وحصار البلغار لهادريا نوبل ، وأن الامبراطور هنرى تحت ضغط الحاجة قد استدعى رجاله لقتال البلغار ، وجد أن الفرصة مواتية لطرد النفوذ اللاتينى من آسيا الصغرى ، فجمع

(1) Villehardouin: Op. cit., P. 122.

(٢) اختلف المؤرخون حول اصل الوالاش Vlachs فبعضهم ينسبهم الى المستعمرين الرومان الذين استقروا فى القرن الثانى الميلادى فى منطقة الليريا ، على حين ينسبهم البعض الآخر الى البدو الرعاة الذين يرجع اصلهم الى جنوب نهر الدانوب . وقد لعب الوالاش دورا بارزا فى عدد من الكيانات السياسية التى عرفت فى العصور الوسطى ابتداء من القرن الثانى عشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، كان اهمها الامبراطورية البلغارية الوالاشية جنوب نهر الدانوب (١١٨٥–١٢٥٧) ، راجع :

The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, U.S.A. 1980, P. 704.

كل ما استطاع جمعه من المقاتلين وسار الى قزيقوس حيث اقام معسكره امامها ونشب القتال بين ثيودور ورجاله من جهة والحامية اللاتينية القليلة العدد والعتاد من الجهة الأخرى . وقد استمر ثيودور فى حصاره لهذه المدينة ولكنه ارسل الجزء الأكبر من رجاله الى قلعة Cibotos حيث حاصروها برا وبحرا بعدد من السفن يبلغ الستة عشر سفينة حربية ، وذلك فى يوم السبت ٣١ مارس ١٢٠٧ . وكانت الحامية اللاتينية بها مكونة من ٤٠ فارسا نشب القتال بينهم وبين رجال لاسكاريس ، وقد أرسلت الحامية اللاتينية على وجه السرعة للامبراطور هنرى الذى كان بالقسطنطينية ، يطلبون منه سرعة نجدتهم[1] .

وعلى الفور اتجه الامبراطور الى الشاطىء ، واعتلى ظهر سفينته الحربية من نوع Galleon ، وقد حذا حذوه كبار رجاله الذين اعتلوا ما وجدوه امامهم من السفن ، وكان من بينهم المؤرخ جيوفرى فيلهاردوين ، الذى ذكر أن الامبراطور أمر أن يذاع فى القسطنطينية أن يتبعه جميع القادرين على القتال ، فاختلط الجميع وهرولوا جميعا من بنادقة وبيازنة ولاتين الى الميناء حيث اعتلوا ظهر السفن التى وجدوها امامهم ، وكان مجموع السفن التى خرج بها الامبراطور ورجاله ستة عشر سفينة ، وقد سارت السفن برجالها فى طريقها لانقاذ قلعة Cibotos وقطعت المسافة من القسطنطينية اليها فى يوم وليلة ، وبعد وصولهم اليها وجدوا رجال لاسكاريس وسفنه تحاصرها ، فاشتبكوا معهم فى القتال ، وحسب رواية فيلهاردوين تمكن اللاتين من الاستيلاء على سفن لاسكاريس . ولكن البيزنطيين انتهزوا فرصة ظلام الليل وسحبوا سفنهم الى الشاطىء حيث احرقوها عن آخرها حتى لا يستفيد بها اللاتين ، ثم رفعوا معسكرهم وانسحبوا من أمام هذه القلعة . أما الامبراطور هنرى ، فقد تفقد القلعة فى الصباح فوجدها فى غاية الضعف ، وأنها عديمة الجدوى للاتين ، فسحب منها الحامية وعاد برجاله الى القسطنطينية[2] .

بعد عودة الامبراطور هنرى الى القسطنطينية ، تأهب للرحيل الى الجبهة

(1) Villehardouin Op. cit., P. 123-124

(2) Villehardouin. Op. cit., P. 123-125.

البلغارية لتفقد احوال مدينة هادريانوبل بعد التخريب الذى الحقه بها قيصر البلغار جوهانيتزا . ذلك أنه استمر محاصرا لهذه المدينة طوال شهر ابريل ١٢٠٧ ، وأوشكت المدينة أن تقع فى يده ، بعد أن دمر بعض اجزاء من سورها ، وقد التحم رجاله مع المدافعين عنها وتقاتلوا يدا بيد ، وقد ابدى المدافعون عنها شجاعة كبيرة فى التصدى للبلغار وردهم عنها ، وكانت الخسارة كبيرة فى كلا الجانبين نظرا لكثرة عدد القتلى والجرحى . لكن الأحداث تطورت وأدت إلى انسحاب جوهانيتزا من أمام هادريا نوبل ، وتتلخص هذه الأحداث فى أن الكيومان المصاحبين لقيصر البلغار ، بعد أن عاثوا فسادا فى أراضى البلقان ، وحصلوا على الكثير من الغنائم والأسلاب ، عادوا إلى جوهانيتزا أمام هادريا نوبل واخبروه بعزمهم على الرحيل والعودة إلى بلادهم ، وعبثا حاول أن يثنيهم عن عزمهم ، فقد تركوه ورحلوا ، ولم يستطع جوهانيتزا البقاء بدونهم نظرا لانهم كانوا يكونون العدد الأكبر من رجاله ، فانسحب من امام هادريا نوبل وعاد الى بلاده[1] .

وهكذا اراد الامبراطور هنرى الذهاب الى هذه المدينة لتفقد احوالها بعد انسحاب البلغار من أمامهم ، وبعد الخراب والتدمير الذى الحقوه بأسوارها ولتأديب جوهانيتزا على ما ألحقه بها من الدمار . لكن الأنباء جاءته بخطورة الموقف فى آسيا الصغرى بسبب محاولات ثيودور لاسكاريس المتكررة لطرد النفوذ اللاتينى من هناك ، وفى ذلك الوقت قام ثيودور بمحاولة جديدة لحصار مدينة قزيقوس برا ، على حين قام قائد بحريته ويدعى Escurion على رأس اسطول مكون من ١٧ سفينة حربية بحصارها بحرا ، وقد اشتعلت ثورة الأهالى داخل قزيقوس مناهضين للحكم اللاتينى ومؤيدين لثيودور لاسكاريس وقاموا بمهاجمة حاكم المدينة اللاتينى بطرس ورجاله ، وانزلوا بهم خسائر فادحة فى الأرواح[2] . ومعنى ذلك ان ثيودور لاسكاريس بدأ يكسب شعور وولاء اليونان وبدأ يلقى التأييد والمناصرة بعد أن اقتنعوا بأنه يقوم بالدفاع عن قضيتهم ضد اللاتين ، وبعد أن رأوا هزائم اللاتين أمام قوة البلغار .

(1) Ibid: P 126.

(2) Villehardouin: Op cit., PP 126-127

لذلك فقد أجل الأمبراطور هنرى رحيله الى هادريا نوبل للمرة الثانية ، وعقد مجلساً للتشاور مع باروناته والبنادقة أيضا ، واجمعوا على ضرورة الاسراع لنجدة بطرس فى قزيقوس وغادر الامبراطور ورجاله القسطنطينية فى ١٤ سفينة حربية وكان معهم أيضا المؤرخ جيوفرى فيلهاردوين ، وقد اتخذوا طريقهم نحو قزيقوس . وحين علم قائد اسطول لاسكاريس بذلك انسحب من أمام قزيقوس باتجاه مضيق الهللسبونت ، وقد تبعه اللاتين بسفنهم يومين وليلتين ، قطعوا خلال هذه المدة مسافة ٤٠ ميلا ، ولكن لم يعثروا له على أثر فعادوا ادراجهم الى قزيقوس ، التى انسحب ثيودور لاسكاريس من أمامها ، وعاد الى أراضيه[1] .

عاد الأمبراطور هنرى الى القسطنطينية وتأهب للذهاب الى هادريا نوبل ، فجاءته الانباء بهجوم ثيودور لاسكاريس على مدينة نيقوميديا ، وكانت هذه المدينة تتبع نائب الامبراطور ثيرى اوف لوس ، الذى ارسل رجاله الى الامبراطور هنرى لكى يأتوا لنجدتهم فاضطر الامبراطور هنرى الى تأجيل رحيله الى هادريا نوبل للمرة الثالثة ، واتجه الى نيقوميديا ، وما أن علم ثيودور بذلك حتى رفع الحصار وانسحب الى نيقية .

وقد عقد الامبراطور هنرى مجلسا وقرر أن يترك بعض رجاله فى المواقع التى تم استيلاء اللاتين عليها ، فتقرر أن يستقر ثيرى فى نيقوميديا مع فرسانه وجنوده ، ويستقر Macaire of Sainte Menehold ورجاله فى Charax أما William of Perchol فيستقر برجاله فى قزيقوس ويتولى كل واحد من هؤلاء حراسة اراضيه ، وعاد الامبراطور هنرى الى القسطنطينية[2] .

وبمجرد وصول الامبراطور للقسطنطينية جاءته الانباء بتفاقم الأمور فى آسيا الصغرى ، ذلك أن ثيرى ووليم وعدد من رجالهم خرجوا للرعى ، ففاجأهم رجال ثيودور لاسكاريس واوقعوا بهم ، واسروا كثيرين منهم كان من بينهم ثيرى بعد أن جرح فى وجهه ، أما وليم فقد فر بعد أن جرح فى ذراعه ، ولجأ هو ومن نجا منهم

---

(1) Ibid: P. 127.

(2) Villehardouin: Op. cit., P. 128.

الى كنيسة سانت صوفيا فى نيقوميديا حيث احتموا بها ، وارسلوا للامبراطور هنرى من أجل نجدتهم ، خاصة وأن رجال ثيودور وعلى رأسهم شقيقه قد حاصروهم بها . فاضطر الامبراطور هنرى تحت ضغط هذه الظروف أن يعود من جديد الى آسيا الصغرى ، وحينما سمع رجال ثيودور بذلك انسحبوا الى نيقية ، أما الامبراطور هنرى فقد عسكر فى ضواحى نيقوميديا ، وأرسل رجاله لنهب وتخريب اراضى ثيودور لاسكاريس . وبينما الامبراطور هنرى فى موضعه جاءه رسل ثيودور يعرضون عليه الهدنة لمدة سنتين ، على شرط أن يسمح الامبراطور هنرى لثيودور بتدمير تحصينات مدينة قزيقوس — حتى لا يستفيد اللاتيين بها — وتحصينات كنيسة سانت صوفيا فى نيقوميديا ، وفى المقابل يطلق ثيودور سراح من عنده من اسرى اللاتين[1] .

وقد تشاور الامبراطور هنرى مع رجاله ، واتفقوا على قبول مقترحات ثيودور ، وعللوا قبولهم بأنه من الأفضل أن يفقدوا بعض التحصينات فى آسيا الصغرى ، بدلا من أن يفقدوا مدينة هادريا نوبل وما جاورها من أراضى فى البلقان ، وكذلك بقبولهم الهدنه مع لاسكاريس يأمنوا جانبه بدلا من أن يفتحوا على انفسهم جهتين للقتال ، احداهما فى البلقان مع جوهانيتزا ، والأخرى فى آسيا الصغرى مع لاسكاريس ، بعد أن تحالف الاثنان معا وصار يساعد كل منهما الآخر ضد اللاتين .

وهكذا تم ابرام الهدنه بين ثيودور لاسكاريس والامبراطور هنرى فى ربيع عام ١٢٠٧ ، وتم تسليم قزيقوس وكنيسة سانت صوفيا فى نيقوميديا الى ثيودور الذى قام بتخريب حصونهما واستقرت الهدنه بين الطرفين[2] .

وقد اعطت هذه الهدنه الفرصة لثيودور لكى يلتفت الى تنظيم شئونه الداخلية ، فقد اراد ثيودور أن يجعل من نيقية شيئا أكثر اهمية من مجرد مركز لحركة المقاومة ضد اللاتين وأن يجعل نفسه معترفا به كحاكم شرعى على العرش البيزنطى ،

(1) Ibid: PP. 128-129.

(2) Villehardouin: Op. cit., PP 128-129.

فحتى ذلك الوقت كان ثيودور يكتفى بلقب الأمير Despot[1] ، لأنه كان يدرك تماما ، انه لكى يتوج امبراطورا ، لابد أولا من وجود بطريرك للكنيسة ، يتوجه ويباركه ، لذلك فان الخطوة الأولى أمام ثيودور كانت العمل على ايجاد بطريرك لكنيسة نيقية يكون امتدادا لبطاركة القسطنطينية ، ويكون هو البطريرك الرئيسى والشرعى للكنائس الأرثوذكسية فى الشرق . وكان البطريرك الأخير لكنيسة القسطنطينية يوحنا كاماتيروس قد فر عقب سقوط العاصمة فى يد اللاتين فى ١٢٠٤ الى بلغاريا — كما سبق أن اشرنا الى ذلك — وظل بها . وقد ارسل اليه ثيودور لاسكاريس طالبا منه أن يأتى الى نيقية ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب مرضه ، ثم لم يلبث أن توفى فى ١٢٠٦[2] . وقد جمع ثيودور كل من استطاع جمعه من رجال الدين فى نيقية ، ودعاهم لاختيار بطريرك ، وقد وقع اختيارهم فى مارس ١٢٠٨ على ميخائيل اوتوريانوس Michael Autorianus ، ليتولى كرسى البطريركية (١٢٠٨—١٢١٢) ، واتخذ اسم ميخائيل الرابع، وأقام فى نيقية واتخذ لقب البطريرك المسكونى للقسطنطينية ، واصبح الرأس الشرعى الوحيد للكنائس اليونانية الأرثوذكسية .

وقد قام البطريرك بتتويج ثيودور لاسكاريس امبراطورا فى الاسبوع الثالث من الصيام الكبير Lent ، وبارك الامبراطور ومسحه بالزيت خلال اسبوع الآلام Holy Week فى عام ١٢٠٨[3] .

وهناك اختلاف فى الرأى حول التاريخ الذى توج فيه ثيودور الأول لاسكاريس امبراطورا . فالمؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس ذكر أن التتويج تم فى عام ١٢٠٥[4]

(1) Miller: The Empire of Nicaea, P. 479.
Ostrogorsky: Op. cit., P. 428, F.N. 2.

(2) Choniates: Historia, 11, P. 837.
Georgu Acropolites opera, 1, P. 11.
Nicol: The Fourth crusade, in C.Med.H., Vol 1, Ved Hussey P. 295.

(3) Angold: The Byzantive Gouernment in Exile, P. 43. Vasiliev: Op. cit., 11, P. 511.
Ostrogorsky: Op. cit., P. 419.

(4) Georgu Acropolites opera, ed Heisenberg, II, P. 18.
Nicol: The Fourth crusade, P. 295.
Vasiliev: Op. cit., PP. 511-512.
Ostrogorsky: Op. cit., P. 428.; Whitting: Byzantium, P. 114.

على حين ذكر المؤرخ اكروبوليتيس أن التتويج تم فى عام ١٢٠٨[١] . لكن الثابت أن اختيار بطريرك نيقية كان فى مارس ١٢٠٨ ، وقد تم تتويج ثيودور امبراطورا على يد البطريرك ، لذلك فالاصح هو ما ذكره اكروبوليتيس من أن التتويج تم فى مارس عام ١٢٠٨ .

وهكذا تم احياء الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى فى نيقية ، وأصبح للبيزنطيين امبراطورا وبطريركا شرعيين هما امتدادا للسلطتين العلمانية والاكليركية فى بيزنطة ، واصبحت نيقية نقطة تجمع جديدة وأمل جديد فى استرجاع العاصمة الأم القسطنطينية .

وكما سبق أن أوضحنا ، كان قد تم اختيار ثيودور لاسكاريس امبراطورا على اليونان فى كنيسة القسطنطينية ، ولكن مراسم التتويج والمسح بالزيت بواسطة البطريرك ، احاطته بها له من القداسة ، ومنحت وظيفته كل الفخامة الامبراطورية ، وأصبح يعتبر الامبراطور الشرعى الوحيد للبيزنطيين واصبح اللقب الرسمى لثيودور هو :

"Theodorus, in christo Deo fidelis, Imperator et Maderator Romeorum et Semper Augustus, Comnenus Lascarus".

وترجمته باللغة العربية كما يلى :

« ثيودور ، المؤمن بالمسيح الرب ، امبراطور الرومان وحاكمهم ، وصاحب الجلالة على الدوام ، لاسكاريس كومنينوس » .

واصبح التوقيع الرسمى لثيودور على الوثائق الرسمية -بالحبر الاحمر هو « الباسيليوس المقدس ، والأوتوقراطور الرومانى » . وهو نفس توقيع الاباطرة البيزنطيين السابقين[٢]

وقد أحيا ثيودور لاسكاريس جميع النظم والتقاليد البيزنطية العريقة ، التى

---

(1) Nicetas choniates: Historia, ed. Bonn, P. 828.

(2) Angold: A Byzantine Government in Exile, P. 37.

وجدت تعبيرها الرمزى فى شخصى الامبراطور والبطريرك . وفى مجال الادارة والخدمات المدنية والبلاط الامبراطورى والنظم العسكرية ، بل وفى ميدان السياسة الخارجية أيضا ، أُعيد احياء كل ذلك من جديد على نفس الأسس البيزنطية العريقة[١] .

وكان ثيودور يعتقد اعتقادا راسخا بأنه بعد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين عام ١٢٠٤ ، انتقلت النظم والتقاليد البيزنطية العريقة الى نيقية ، حيث اجلس الله برحمته امبراطورا على العرش بها ، واصبح لزاما على الامبراطور — مثله مثل موسى من قبل — أن يقود شعبه ويحرره من الأسر ، وأن يستعيد وحدة اراضى الامبراطورية .

ويظهر ذلك بوضوح فى هذه الفقرة التى جاءت فى خطبة العرش التى القاها ثيودور لاسكاريس بعد تتويجه ، والتى جاء بها ما يلى :

« سلطتى الامبراطورية ، وُضعت بفضل السماء ، كوالد للدولة الرومانية العالمية ، ارادة الله امدتنى بالقوة ، وحدة الامبراطورية تستلزم وحدة الكنيسة ، قطيعا واحدا وراعيا واحدا »[٢] .

وقد أدت هذه الاجراءات التى اتخذها ثيودور لاسكاريس فى نيقية ، الى اشتعال الصراع بينه وبين سلطنة قونيه Iconium السلجوقية التى كان يدين لسلطانها الجزء الأعظم من آسيا الصغرى ، ذلك أن اتخاذ ثيودور لاسكاريس لنيقية عاصمة له ومركزا للامبراطورية المنفية ، قد أحيا الصراع البيزنطى السلجوقى القديم بعدما وجد عائقا هاما امام التوسع السلجوقى غير باقى اتجاه ساحل البحر

(١) عن كل هذه المجالات والنظم التى سارت عليها امبراطورية نيقية البيزنطية ، راجع الكتاب التالى الذى يعتبر مرجعا هاما فى هذا الموضوع :

Angold: A Byzantine Government in Exile, Government and Society Under the Laskarids of Nicaea, 1204-1261, ox ford University Press. 1975.

Glykatzi-Ahrweiler: "La politique agaire des Empereurs de Nicee". dans la Revue de (Byzantion). tome XX V111, Bruxelle, 1958. PP. 51-66.

(2) Vasiliev: Op. cit., Vol. 2, PP. 513-14.

Angold: Op. cit., P. 13.

الايجى . أضف لذلك أن تتويج ثيودور لاسكاريس امبراطورا فى نيقية جعل والد زوجته وهو الامبراطور السابق لبيزنطة اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥-١٢٠٣) يفر الى السلطان السلجوقى ، ويسأله أن يعاونه على استرداد عرشه المفقود ، وابعاد ثيودور عن عرش نيقية ليحل هو أى اليكسيوس ، محله امبراطورا على الشعب البيزنطى .

وقد أرسل السلطان السلجوقى يتوعد ثيودور إن لم يتنازل عن عرشه لحميه اليكسيوس ، وقد قرب العداء لثيودور ومحاولة تدميره بين كل من اللاتين والسلاجقة ، وجعلهما حليفان يسعيان معا للقضاء عليه ، وقد توسط البنادقة بين الامبراطور هنرى وبين سلطان سلاجقة الروم ويدعى غياث الدين كاى خسرو الاول ، وتم عقد اتفاقية سرية بين الطرفين فى عام ١٢٠٩ وبناء عليه أمد الامبراطور اللاتينى السلطان السلجوقى بقوات من اللاتين حاربت الى جانبه ضد ثيودور[١] .

وقد قام السلطان السلجوقى بالتعدى على أراضى ثيودور لاسكاريس ، ولم يكن ثيودور بالذى يرضى بهذا التعدى ، فاشتعلت معركة ضارية بين الطرفين فى ربيع عام ١٢١١ بالقرب من انطاكية على شاطىء نهر الميااندر ، وكان جيش ثيودور يتكون من عشرين ألفا من بينهم ثمانمائة فارس من اللاتين المرتزقة الذين وقع عليهم البابا اينوسنت الثالث قرار الحرمان لتعاونهم مع البيزنطيين المنشقين[٢]. وقد اظهروا شجاعة فائقة وانزلوا خسائر فادحة بالاتراك ، ولكن الغالبية العظمى منهم سقطت قتلى فى ميدان المعركة ، وقد اشتبك ثيودور فى معركة منفردة مع السلطان السلجوقى ، قتل اثناءها السلطان ، ودخل ثيودور مدينة انطاكية منتصرا ، أما الامبراطور السابق اليكسيوس انجيلوس فقد تم اسره واجبر على الترهب ، وقضى البقية الباقية من حياته فى دير Hyakintlos فى نيقية[٣].

(1) Gregoras: Historiae Byzantivae, 1, PP. 17-18.
Ostrogorsky: Op. cit., P. 429.
Nicol: Op. cit., P. 295.

(2) Miller: The Empire of Nicaea, P. 484.

(3) Georgu Acropolitae opera, 1, P 17

والواقع أن هذه المعركة لم تعطى ثيودور تغييرات اقليمية كبيرة ، ولكن نتائجها الأدبية والمعنوية كانت عظيمة القيمة ، فقد أكدت أن الامبراطورية الناشئة قد أحيت التقليد البيزنطى القديم الخاص بالنضال ضد المسلمين ، واحرزت أولى انتصاراته ، كما كان من نتائجها كذلك الزام اليونان الباقين على قيد الحياة والمطالبين بالعرش الامبراطورى البيزنطى بالصمت . كما ملأت بالفرح والحماس قلوب الشعب البيزنطى ليس فقط فى آسيا الصغرى ، ولكن فى أوروبا كذلك ، الذين نظروا الى نيقية على أنها مركزهم ونقطة تجمعهم .

وقد توصل السلطان السلجوقى الجديد الى التفاهم مع ثيودور ، ونشأت بينهما علاقات ودية ، وبذلك ضمن ثيودور جانب الاتراك السلاجقة الذين يعتبرون اقرب جيرانه ، وبدأ يوجه انتباهه من جديد نحو استئناف النضال ضد اللاتين .

وقد ارسل ثيودور بعد انتصاره على السلاجقة رسائل الى كل الأقاليم اليونانية ، اذاع فيها انتصاره ، وطلب منهم بذل المساعدة له بوصفه امبراطورهم الشرعى ، ووعدهم اذا أمدوه بالمساعدة فانه سوف يأت اليوم الذى يحررهم فيه ويحرر أراضيهم من هؤلاء (اللاتين الكلاب)[١] .

وقد قام ثيودور بمحاولة للاستيلاء على العاصمة القسطنطينية بعد أن شجعه هذا الانتصار ورفع روحه المعنوية ، فحاصرها باسطوله وهاجمها ، غير أن هذه المحاولة لم تنجح ، لأن امبراطورية نيقية كانت لاتزال حتى ذلك الوقت ، محدودة الامكانيات سواء من الناحية العسكرية أو المادية أو البشرية . وقد نقل الامبراطور اللاتينى هنرى المعركة الى ارض آسيا الصغرى نفسها حيث ممتلكات ومقر ثيودور لاسكاريس ، وخاض ضده معركة على ضفاف نهر Rhyndacus غير بعيد عن بروسا ، وذلك فى ١٥ أكتوبر ١٢١١ واحرز هنرى الانتصار ، وتقدم جنوبا واستولى على مدينتى Pergamum et Nymphaeum وبعض المواقع الأخرى[٢] . وقد ارسل

(1) Georgu Acropolitae opera, P 27

(2) Recueil des Gaules et de la france, ed. Bouquet, duexieme edition, Paris, 1879, PP 530-533

هنرى من برجاموم فى بداية عام ١٢١٢ . خطابا وجهه « الى جميع الأصدقاء » جاء فيه : « أن العدو الأول والأكبر هو لاسكاريس الذى استولى على كل الأرض بجوار شاطىء سان جورج (مضيق البسفور) حتى حدود الاتراك ، وظهر كامبراطور ، وهو غالبا يهاجمنا من هذا الاتجاه ... لقد جمع لاسكاريس عدد كبير من السفن الحربية لكى يستولى على القسطنطينية ، علاوة على أن المدينة ترتجف فى خراب عظيم الى حد أنهم يأسوا من عودتنا (من آسيا الصغرى) . كثيرين من شعبنا خططوا للفرار عبر البحر ، وعدد عظيم عبروا البحر الى لاسكاريس ووعدوه بالمساعدة ضدنا ... جميع اليونان تذمروا ضدنا ووعدوا لاسكاريس بالمساعدة ، اذا ما جاء لقتال القسطنطينية » .

وقد انتهى الخطاب بنداء موجه للاتين من أجل مساعدة هنرى: « لاحراز الانتصار التام وامتلاك امبراطوريتنا نحتاج الى عدد كبير من اللاتين نستطيع أن نمنحهم الأرض التى نكسبها ، والتى اكتسبناها بالفعل ، لأنه كما تعلمون ، ليس كافيا اكتساب الأرض ولكن يجب أن يكون هناك من يستطيع أن يحافظ عليها »[1] .

ويظهر بوضوح من خلال هذا الخطاب أن هنرى يعتبر ثيودور لاسكاريس عدوه الأساسى الذى يرغب فى تدميره والقضاء عليه . كذلك يتضح من هذا الخطاب أن ثيودور أصبح هو الجانب الأقوى ، بدليل أن اللاتين أنفسهم بدأوا يتحازون اليه وينضمون الى جانبه ، بالإضافة الى اليونان أيضا الذين رأوا فى ثيودور رجل الساعة الذى التفوا حوله لكى يخلصهم من اللاتين ويعيد اليهم أرضهم المسلوبة وحقهم الضائع . كذلك يتضح من هذا الخطاب أن هنرى يريد المزيد من اللاتين من أجل توطينهم واستقرارهم فى الأراضى التى يتم له فتحها واغتصابها من ثيودور حتى يصبح للعنصر اللاتينى التفوق والغلبة فى هذه المنطقة .

---

(1) Recueil des historiens des Gaules et de la France, ed. Bouquet, duexiewe edition, 1879, PP. 530-533.

لكن جهود هنرى ذهبت ادراج الرياح ، ولم يجد أى استجابة من الغرب الاوروبى ، وفى النهاية تم عقد اتفاقية بين هنرى وثيودور لاسكاريس فى مدينة Nymphaeum فى ديسمبر عام ١٢١٤ تم بمقتضاها تحديد الحدود بين الطرفين ، فاحتفظ اللاتين بالركن الشمالى الغربى من اقليم بيثينيا ، أى انهم اكتسبوا شريطا ساحليا آسيويا لبحر مرمره ورقعة هامة ممتدة على طول البحر الايجى ، واصبحت مدن Nicomedia, Cyzicus, Pegae and Adramyttium تابعة للامبراطور اللاتينى

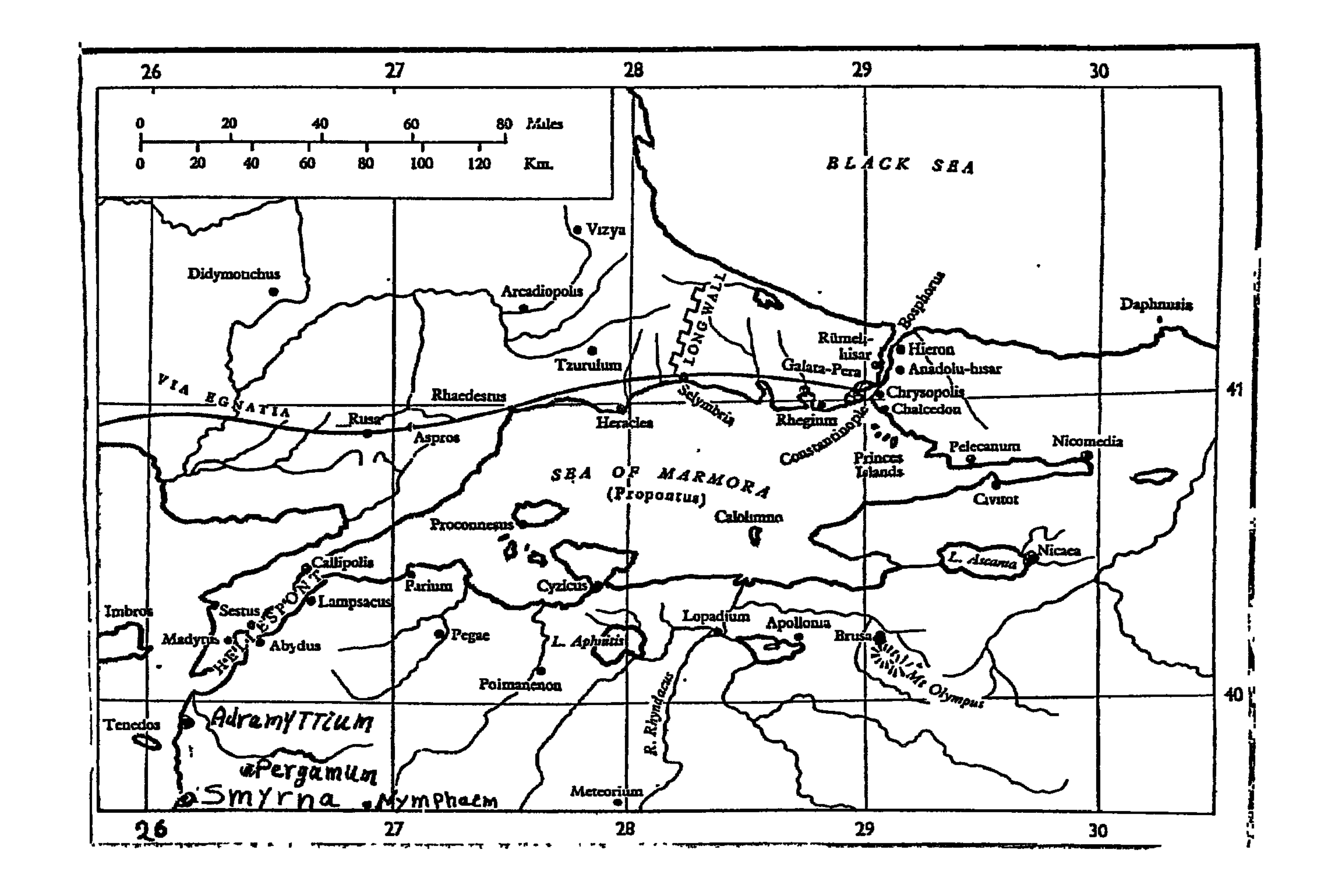
أما الجانب النيقى فقد أخذ نيقية ، بروسا ، والأقليم الواقع خلف Adramyttium ويمتد حتى Smyrna[1]. وترك لنيقية حرية امتلاك أية اراضى جديدة على حساب السلطنة السلجوقية ، أو على حساب الجيران الآخرين . كذلك نص على عدم حصار القسطنطينية بحرا بواسطة اسطول ثيودور لاسكاريس[2] .

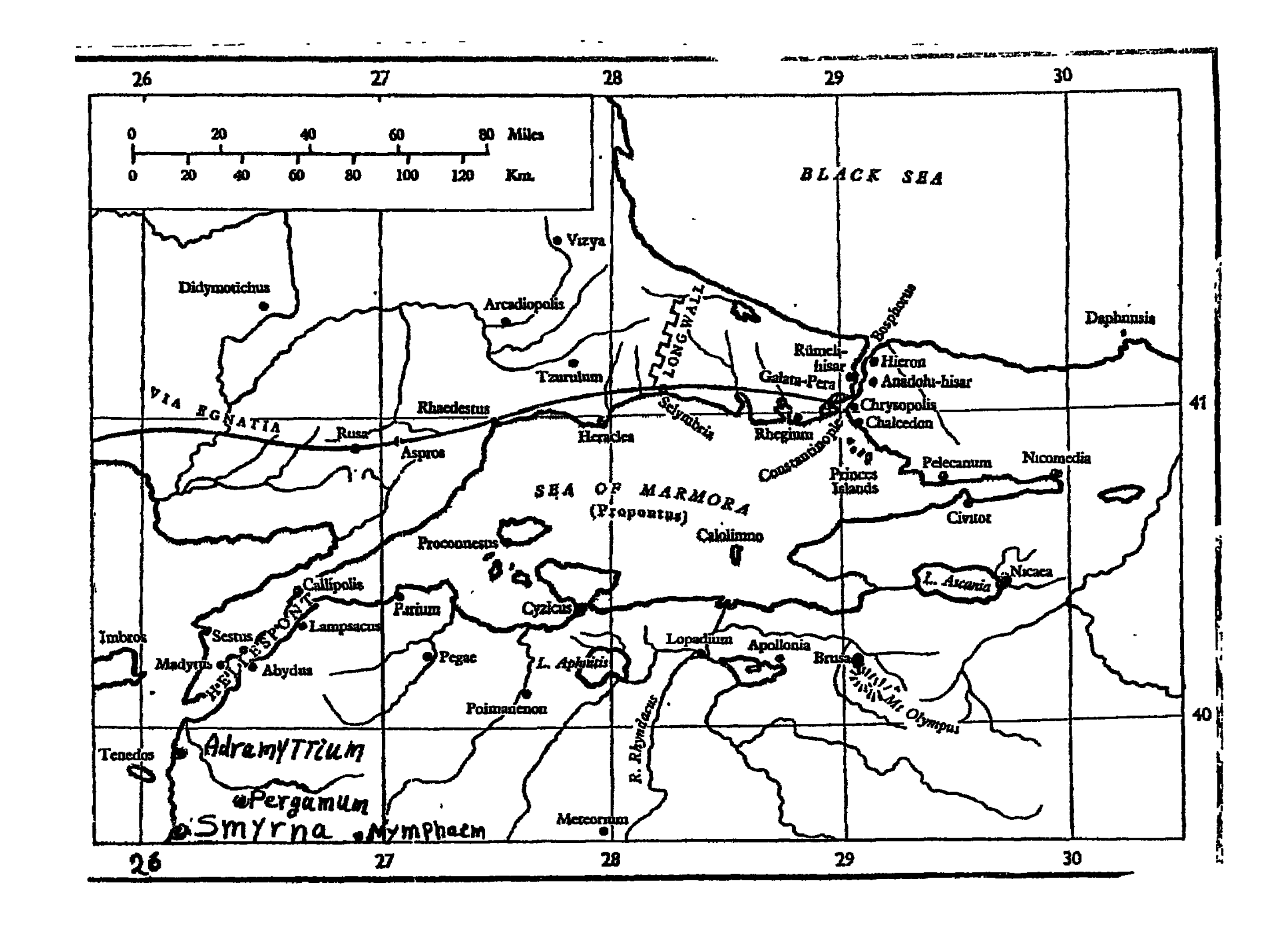
وهكذا اعترف كل من الامبراطورين اللاتينى هنرى واليونانى ثيودور بحق كل منهما فى البقاء ، واوقفوا محاولات تدمير كل منهما لمنافسه ، ونشأ توازن فى القوى فى هذه المنطقة . وقد بدأ ثيودور يلتفت الى اعدائه الآخرين المجاورين له فى آسيا الصغرى ، ونتيجة للسلام النيقى اللاتينى كان انهيار قوة آل كومنين على شواطىء البحر الأسود .

ذلك أن دافيد كومنين الذى كان قد أصبح فصلا لامبراطور القسطنطينية اللاتينى وبالتالى تحت حمايته ، قد ترك بعد هذه المعاهدة بين هنرى وثيودور ، لموارده الخاصة وللاعتماد على نفسه دون مساعدة الامبراطور اللاتينى . وهكذا أصبح غير قادر على الوقوف وحده فى وجه امبراطور نيقية . وفى نفس عام ١٢١٤ ، استولى ثيودور لاسكاريس على كل ما يمتلكه آل كومنين غرب سينوب بالإضافة الى هرقلية واماستريس Amastris وبذلك بدأ نفوذ ثيودور لاسكاريس يظهر على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، بعد أن أوجد لنفسه منفذا على هذا البحر ، وهذا بطبيعة الحال لم يرض السلاجقة الذين دخلوا فى صراع مع آل

(١) انظر الخريطة .

(٢) Georgii Acropolitae opera, PP. 27-28.
Brehier: Vie et mort de Byzance, PP. 308-309.
Ostrogorsky: Op. cit., P. 430.


0 20 40 60 80 Miles
0 20 40 60 80 100 120 Km.
BLACK SEA
SEA OF MARMORA
(Propontus)
Bosphorus
LONG WALL
VIA EGNATIA
HELLESPONT
Vizya
Didymotichus
Arcadiopolis
Tzurulum
Rhaedestus
Rusa
Aspros
Heraclea
Selymbria
Rhegium
Constantinople
Galata-Pera
Rümeli-hisar
Hieron
Anadolu-hisar
Chrysopolis
Chalcedon
Princes Islands
Pelecanum
Nicomedia
Daphnusia
Civitot
Calolimno
Proconnesus
L. Ascania
Nicaea
Callipolis
Lampsacus
Parium
Cyzicus
Imbros
Sestus
Madytus
Abydus
Pegae
L. Aphnitis
Poimanenon
Lopadium
Apollonia
Brusa
Mt Olympus
R. Rhyndacus
Meteorium
Tenedos
Adramyttium
Pergamum
Smyrna
Nymphaem
26 27 28 29 30
41 40



26
27
28
29
30
41
40
0 20 40 60 80 Miles
0 20 40 60 80 100 120 Km.
BLACK SEA
SEA OF MARMORA
(Propontus)
VIA EGNATIA
LONG WALL
HELLESPONT
Bosphorus
Didymotichus
Vizya
Arcadiopolis
Tzurulum
Rhaedestus
Rusa
Aspros
Heraclea
Selymbria
Rhegium
Constantinople
Galata-Pera
Rümeli-hisar
Hieron
Anadolu-hisar
Chrysopolis
Chalcedon
Princes Islands
Pelecanum
Nicomedia
Daphnusia
Civitot
Calolimno
Proconnesus
Callipolis
Parium
Cyzicus
Sestus
Lampsacus
Madytus
Abydus
Imbros
Tenedos
Pegae
Poimanenon
L. Apolyitis
R. Rhyndacus
Lopadium
Apollonia
Brusa
Mt Olympus
L. Ascania
Nicaea
Meteorium
Adramyttium
Pergamum
Smyrna
Nymphaem

كومنين واحتلوا سينوب ، وهزموا وقتلوا دافيد ، وأسروا شقيقه اليكسيوس ، وعندئذ اعادوه على عرش طرابيزون ,فضلا لسلطان قونيه السلجوقى يدفع له الجزية السنوية[١] .

وفى اغسطس عام ١٢١٩ عقد لاسكاريس هدنة لمدة خمس سنوات مع الحاكم البندقى بالقسطنطينية The Padesta of the Venetian Colony of Constantinople ويدعى يعقوب تيبولو Jacob Tiepolo الذى خلف هنرى داندولو بعد وفاته فى عام ١٢٠٥ ، احيا بمقتضاها التقليد البيزنطى القديم الخاص باعفاء التجار البنادقة من دفع الرسوم الجمركية فى اراضى امبراطورية نيقية وفتح الحدود بين الطرفين للتجارة ، وتعهد ثيودور بعدم حصار القسطنطينية بحرياً[٢] .

وهكذا عادت الهدنة بين هنرى وثيودور بالفائدة على امبراطورية نيقية التى تمتعت اثناء هذه الهدنة بالأستقرار والرخاء ، بينما اخذت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية فى التدهور والاضمحلال ، وخاصة بعد وفاة الامبراطور هنرى فى عام ١٢١٦ .

وقد وجد ثيودور لاسكاريس أن محاولاته العسكرية لم تفلح فى استرداد العاصمة القسطنطينية من يد اللاتين ، لذلك لجأ الى طريق آخر علة يحقق بواسطته ما عجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ، ودل هذا على سعة ادراك وحسن سياسى ممتاز ، فقد تجاوز ثيودور حاجز العداء السياسى بينه وبين اللاتين ، ولجأ الى طريق المصاهرة مع الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية ، حتى يؤول الى اسرته عرش بيزنطة عن طريق الميراث فى يوم ما ، وهو ما يطلق عليه اسم (زواج التحالف) Intermarry .

وتفضيل ذلك، انه بعدوفاة الامبراطوراللاتينى هنرى فىعام ١٢١٦، وقعاختيار البارونات على زوج شقيقته بطرس اوف كورتناى Peter of Courtenay الذى كان

(1) ostrogorsky: Op. cit., P. 413.
Nicol: Op. cit., P. 300-301.

(2) Ostrogorsky: Op. cit., P. 431.
Nicol: Op. cit., PP. 300-301

حينئذ بفرنسا ، ليحل محله على عرش القسطنطينية ، وفى بداية عام ١٢١٧ خرج بطرس من الأراضى الفرنسية فى طريقه الى القسطنطينية ، وتوقف فى روما ليستلم تاجه من البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦—١٢٢٧) الذى توجه فى سان لورنزو خارج اسوار روما فى ٩ ابريل ١٢١٧ ، وبعد ذلك اتخذ طريقه الى القسطنطينية عن طريق البر مصحوبا بالمندوب البابوى وجيش مكون من ٥٥٠٠ جنديا ، اما زوجته يولاند Yoland فقد واصلت رحلتها الى القسطنطينية عن طريق البحر ، ونجح بطرس وجيشه فى استعادة ديراخيوم Dyrrachium من ثيودور دوقاس حاكم ابيروس ، وواصلوا سيرهم برا الى القسطنطينية ، لكنه لم يقدر لبطرس أن يصل الى القسطنطينية ، حيث انه اختفى فى الطريق ، بينما وصلت زوجته يولاند للقسطنطينية ، وهناك واجهتها مشكلة الحكم ، وقد رفض ابنها الأكبر ويدعى فيليب أن يترك فرنسا ، أما أبنها الثانى بلدوين فكان صغير السن فآل العرش اليه وحكمت يولاند كوصية عليه لمدة سنتين . وكان ليولاند ابنتان تزوجت احداهما وهى Agnes من جيوفرى فيلهاردوين الثانى وريث عرش مملكة أخيا ، وقد وجدها ثيودور لاسكاريس فرصة مناسبة ليتزوج ابنتها الثانية مارى Mary ، وخاصة وأنه كان بلا زوجة بعد انفصاله عن زوجته الثانية[١] . وبالفعل تم زواجه وللمرة الثالثة من مارى ابنة يولاند ، وابنة اخت أول امبراطورين لاتينين توليا عرش القسطنطينية[٢] .

وهكذا ارتبط ثيودور لاسكاريس برابطة المصاهرة مع البيت الحاكم فى القسطنطينية ولم يكتف ثيودور بذلك وإنما سعى لزواج ابنته من امبراطور القسطنطينية ذلك أن بلدوين تولى العرش بعد وفاة والدته فى عام ١٢١٩ باسم

---

(١) الزوجة الثانية لثيودور الأول لاسكاريس كانت احدى الاميرات الارمينيات ، ولكن الزواج لم يستمر سوى عام واحد وانتهى بالطلاق ، راجع

Georgu Acropolitae opera, P. 27.

(2) Georgu Acropolitae opera, PP. 27, 31.

(٣) حكم روبرت اوف كورتناى من ١٢٢١ —١٢٢٨ ، ثم عاد بلدوين الثانى للحكم من ١٢٢٨—١٢٦١ وهو

بلدوين الثانى ، وحكم حتى عام ١٢٢١ ، ثم تولى الحكم شقيقه روبرت أوف كورتناى Peter of Courtenay فى ٢٥ مارس عام ١٢٢١[1]. وقد سعى ثيودور لاسكاريس لزواج ابنته Eudociia من روبرت اوف كورتناى ، وظلت المفاوضات جارية بين الطرفين بشأن هذا الزواج حتى حالت وفاة ثيودور فى عام ١٢٢٢ دون اتمامه .

وهكذا وضعت الخاتمة لحياة هذا البطل الذى قدر له أن يشهد مرارة الظروف . وصعوبة الموقف الخاص بسقوط القسطنطينية فى يد الغزاة اللاتين .

= آخر امبراطور لاتينى يتولى عرش القسطنطينية ، علما بأن حنادى برين حكم نائبا عن بلدوين فى الفترة من ١٢٣١ـ١٢٣٧ . راجع

(1) (Ostrogorsky, op cit P 307

الخاتمــــــة

استعرضنا على امتداد هذا البحث ، الدور الذى لعبه ثيودور الأول لاسكاريس وجهوده العسكرية والسياسية من أجل الصمود فى وجه اللاتين ، ومقاومتهم ، واتخاذه لبروسا ثم نيقية مركزا لجمع العناصر البيزنطية المشتتة ، وقاعدة لنضال الشعب البيزنطى ضد المغتصبين اللاتين .

وفى تقييم الدور الذى لعبه ثيودور لاسكاريس ، يمكن القول أنه لم يدخر جهدا عسكريا أو سياسيا فى سبيل العمل على استرجاع العاصمة القسطنطينية من يد اللاتين . ويدين البيزنطيون لثيودور ، وباعتراف مؤرخيهم ، باحياء الامبراطورية البيزنطية من جديد ، رغم الصعوبات الجمة التى قابلها ، ورغم تعدد الأعداء المحيطين به . وفى وسط هذا كله ، اكتسب الاعتراف به كزعيم للهللينسنية . وقد ارسى ثيودور القواعد الأساسية للحكم فى نيقية ، تلك القواعد التى سار عليها خلفاؤه من بعده حتى تمكنوا من استعادة العاصمة الأم فى عام ١٢٦١ .

فمن حيث اختيار المكان الذى يتخذه مركزا وقاعدة لحركة المقاومة ضد اللاتين ، كان هو الذى اختار مدينة نيقية فى آسيا الصغرى ، وكان هذا الاختيار مناسبا وموفقا للغاية نظرا لقرب نيقية من العاصمة القسطنطينية ، مما هيأ له اقلاق راحة الامبراطور اللاتينى ، وجلب له المتاعب المستمرة على النحو الذى سبق أن تعرضنا له ، وهيأ للبيزنطيين سرعة الحركة حينما سنحت لهم الظروف لاسترداد العاصمة القسطنطينية فى عام ١٢٦١ بخلاف الحال اذا ماكان وقع اختيار ثيودور على مكان آخر بعيد .

ورغم صعوبة الظروف وقلة الموارد إلا أنه تمكن من اعداد وتنظيم جيشا واسطولا كانا اساسا للقوة العسكرية لامبراطورية نيقية البيزنطية ، تلك القوة التى احرزت الانتصار على الاعداء سواء فى عصر ثيودور نفسه أو فى عصور ما تلاه من اباطرة .

وقد حاول ثيودور بقدر المستطاع أحياء النظم العسكرية البيزنطية التى وجدت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، واعتمد على الجنود المرتزقة كعادة البيزنطيين دائما ، فاستعان بالجنود المرتزقة من عناصر الجرمان ، الاتراك ، الأرمن ، بل ومن اللاتين انفسهم[١] .

ومن الصعب تقدير عدد الجيش فى عهد ثيودور ، وأن كان يفهم مما أورده المؤرخان اكردبوليتيس وجريجوراس ان عدد الجيش النيقى فى معركة انطاكية مع السلاجقة فى عام ١٢١١ كان حوالى العشرين الفا ، منهم ثمانمائة فقط من المرتزقة اللاتين[٢] .

وفى بداية عهده كان يعهد بقيادة الجيش الى أحد الاشخاص المقربين اليه ، ولكن فى الغالب كان ثيودور يقود الجيش بنفسه ، كما فعل فى معركة انطاكية مع الاتراك السلاجقة وغيرها من المعارك مع اللاتين[٣] .

وفى أواخر عهد ثيودور لاسكاريس بدأ يظهر منصب الدمستق الأعظم ، وعهد به الى اندرونيكوس باليولوجوس Andronikos Palaiologos وهو والد الامبراطور ميخائيل باليولوجوس ، وقد استمر اندرونيكوس فى هذا المنصب حتى وفاته فى عام ١٢٤٧[٤] .

أما عن الاسطول فقد حاول ثيودور تكوين اسطول لنيقية منذ البداية ، وقد جمع ثيودور اسطولا صغيرا كان مقره بحر مرمره ، وفى البداية كان لا يزيد عن ١٢ مركبا Vessel ، وبالطبع كان محدود النشاط ، ثم استطاع ثيودور بعد ذلك أن يجمع اسطولا مكونا من سبعة عشرة سفينة Galleys ، وعهد بقيادته الى Escurion الذى كان قائد للأسطول فى عهد الامبراطور اسحاق الثانى انجيلوس[٥] .

---

(1) Georgu Acropolitae opera, I, P. 16, 11, PP. 6-8, 16-20.
Gregoras: Historiae Byzantinae, I, P. 18, 11, PP. 17-18.
(2) Georgu Acropolitae opera, I, P. 116, 11, PP. 6-8, 16-20.
Gregoras: Hist. Byz. I, P. 18, 11, PP. 17-20.
(3) Georgu Acropolitae opera, I, P. 29, 11, PP. 4-5.
(4) Gregoras: Historiae Byzantivae, I, P. 69, 11, PP. 11-12.
(5) Nicetas choniates: Historia, PP. 636-637.

وقد جاء ذكر للاسطور النيقى فى عهد ثيودور لاسكاريس فى المعاهدة التى ابرمت بينه وبين اللاتين فى عام ١٢١٤ ، وفى الأتفاقية التى وُقعت بينه وبين البنادقة فى عام ١٢١٩ ، وكان بهما نصا خاصا بعدم مهاجمة أو حصار اسطول ثيودور لمدينة القسطنطينية على النحو الذى تم توضيحه من قبل . وكان هذا الأسطول هو نواة الأسطول الكبير الذى امتلكته امبراطورية نيقية البيزنطية فى عهودها التالية ، والذى احرز الانتصارات البحرية فى عهد يوحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ــ١٢٥٤) خليفة ثيودور الأول وزوج ابنته ايرين ، تلك الانتصارات التى اسفرت عن الاستيلاء على العديد من الجزر الهامة فى البحر الايجى مثل جزر لسبوس ، خيوس ، ساموس ، ايكاريا ، كوس وغيرها ، وادخالها تحت سيادة امبراطورية نيقية البيزنطية[1] .

هذا وقد آمن ثيودور ايمانا عميقا بقيمة الكهنوت كقوة سياسية وقومية ، لذلك فقد اسس البطريركية فى عاصمته نيقية ، وأيد جهود البطريرك من أجل اتحاد الكنائس اليونانية . وقد اثمرت جهوده فى هذا المجال ونظر الى امبراطورية نيقية من جانب العناصر الموجودة فى شبه جزيرة البلقان كوريثة لبيزنطة ومركز الارثوذكسية ، وعلى سبيل المثال ، فقد تجاهل سافا Sava ابن ستيفن نيمانيا Steven Nemanja ابرشية اوخريدا Ochrida التى تخضع لها الكنيسة الصربية ، واتجه الى نيقية ، وفى عام ١٢١٩ رسمه بطريرك نيقية رئيسا لاساقفة الصرب[2] . وهكذا اصبحت لبطريركية نيقية وبطريركها المكانة الأولى فى الصلوات فى الكنيسة الصربية وكان هذا علامة ظاهرة على نمو الاحترام لامبراطورية نيقية البيزنطية .

وقد حرص ثيودور على أن تتم مراسم تتويجه فى نيقية على يد البطريرك ، وبذلك اكتسب الصفة الشرعية للحكم ، خاصة وأن رجال الدين البيزنطيين ، وعلى رأسهم بطريرك القسطنطينية كانوا قد سبق لهم أن اختاروه امبراطورا شرعيا قبل سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين فى عام ١٢٠٤ . وبذلك أضفى ثيودور على

(1) Georgu Acropolitae opera, I, 88, 11, 12-14.
Gregoras: I, PP. 28-29.

(2) Ostrogorsky: Op. cit., P. 431.

خلفائه من اباطرة نيقية هذه الصفة الشرعية ، واعتبرهم الشعب البيزنطى الاباطرة الرسميين لهم وذكرهم المؤرخون البيزنطيون فى قائمة الاباطرة البيزنطيين مثلهم مثل الاباطرة الذين حكموا فى بيزنطة نفسها وذلك بخلاف اباطرة طرابيزون أوابيروس .

وقد اعجب الفرنجة بشجاعة ثيودور ومهارته العسكرية والسياسية ، فقد كان يمتلك الجرأة فى كلا المجالين ، واستفاد من فرص ضرب عنصر بآخر كما فعل مع البلغار واللاتين ، واستخدم البلغار لخدمة نضاله ضد اللاتين وتحريكهم فى الوقت المناسب لهذا الغرض .

والمعروف أن الامبراطور ميخائيل باليولوجوس هو الذى استرد القسطنطينية فى عام ١٢٦١[1] ، ولكن الفضل فى استرداد القسطنطينية فى عام ١٢٦١ لا يرجع الى ميخائيل باليولوجوس وحده ، فلا يمكن بأى حال من الأحوال اغفال جهود اباطرة نيقية السابقين له ، وخاصة مؤسسها ثيودور الأول لاسكاريس . وكما هو معروف فان استعادة القسطنطينية فى عام ١٢٦١ لم يكن بناء على حرب خاضها ميخائيل باليولوجوس ، وإنما كانت بدافع من الشعور القومى للقوة الاستكشافية الصغيرة التى كلفت برصد حركات البلغار ، فوجدت امكانية استرداد العاصمة الأم فلم يتوان أفرادها عن القيام بواجبهم فى هذا الصدد[2] ، وكان المحرك والدافع الأول لهذه القوة الصغيرة هو الشعور القومى الذى حافظ عليه ونماه ثيودور الأول لاسكاريس وليس بناء على أوامر عسكرية صدرت اليها من الامبراطور ميخائيل باليولوجوس لاسترداد العاصمة،ولو لم يحافظ ثيودور على هذه الروح القومية ويعمل على تنميتها واحياء التقاليد البيزنطية العريقة ، ويرسى قواعد الحكم فى نيقية على أساس رفع راية النضال ضد اللاتين ، لانتهت القضية البيزنطية واندثرت بعد أن خرجت امارتا

---

(1) Vasiliev: Op. cit., Vol. II, P. 507.
Brehier: Vie et mort de Byzance. PP. 318-321.
Ostrogorsky: Op. cit., PP. 448-449.

(2) Nicol: The Fourth Crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, PP. 327-328.
Ostrogorky: Op. cit., P. 449.
Brehier: Vie et mort de Byzance, PP 320-321

ايبروس وطرابيزون من حلبة الصراع حول استرداد القسطنطينية من يد اللاتين ، وشغلتا بمشاكلهما المحلية عن تحقيق هذا الهدف القومى .

وهكذا يمكننا القول ، ونحن مطمئنون تماما ، أن امبراطورية نيقية البيزنطية ، كانت بمثابة الجسر الذى عبر عليه الشعب اليونانى الأرثوذكسى ، من عصر السقوط فى عام ١٢٠٤ الى عصر الاسترداد فى عام ١٢٦١ ، من عصر الأنهيار الى عصر القوة ، من عصر الهزيمة الى عصر الانتصار ، من عصر الغربة والضياع والتشرد ، الى عصر الامان والإنتماء والاستقرار فى أحضان الأم الحبيبة القسطنطينية .

ومما لاشك فيه أن الفضل فى ذلك كله يرجع والى حد كبير الى مؤسسها ثيودور الأول لاسكاريس ، الذى استحق عن جدارة هذه الكلمات الصادقة التى رثاه بها فى حفل تأبينه ، الشاعر المؤرخ ورجل الدين ميخائيل اكوميناتوس ، تلك الكلمات التى توضح بجلاء مكانة ثيودور لاسكاريس فى نفس ووجدان الشعب البيزنطى ، قال اكوميناتوس[1] :

« هاجم البرابرة العاصمة بعنف ، واغرقوا اسوار بيزنطة حتى شواطىء آسيا الصغرى فى شكل شظى يائس . وقد تسلحت بك من أجل الأرشاد والأنقاذ .

أنت يجب أن تسمى الى الأبد ، المؤسس الجديد ، والمعمر لمدينة قسطنطين . ينظرون اليك ، أنت فقط ، ويطلقون عليك اسم المخلص والمحرر العام ، للشعب الغارق فى الطوفان الجارف .

اتخذوا دولتك ملجأ يلوذون به ، كما يلوذون بمرفأ الأمان . لا أظن أن أحدا من الأباطرة الذين حكموا القسطنطينية يتساوى معك ، فيما عدا باسيل العظيم سفاح البلغار ، ومن قبله هيراقليوس » .

(1) Michael Acominatus, ed Lampros, PP. 150-151 in Greek.

المصــادر والمراجــع

References

1 - Allen: A History of the Georgian People, 1932.
2 Angold: A Byzantine Governement in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975.
3 - Barrachough (G.): The Medieval Papacy, London, 1975.
4 - Brehier (L.): Vie et mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris, 1969.
La Civilisation Byzantiine ed. Albin Michel, Paris, 1970.
L'institutions de L'empire Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
5 - Choniates (N.): Historia, ed Bekker, In corpus scriptorun Historiae Byzantinae, Bonn, 1935.
6 - Clari (R.): La Conquete de constantinople, editée par lauer, Paris, 1924.
7 - Diehl (ch.): Une Republique Patricienne, Venise (Bibliotheque de philosoph Scentirique), 1928.
8 - Foord: The Byzantine Empire, London, 1911.
9 - Gardnèr (A.): The lascarids of Nicaea, London, 1912.
10- Gelzer (H.): Abriss der Byzantinischen Kaiesergeschichte, Munich, 1897.
11- Georgu Acropolites, Opera, ed. Heisenberg, Leipzeg, 1903.
12- Gibbon (E.): The decline and Fall of the Roman Empire, 6 Vols, New York, 1976.
13- Glykatzi-Ahrweiler: "La politique agaire des Empereurs de Nicée" dans la Revue de (Byzantion), tome XXV 111, Brux elle, 1958.
14- Gregoras (N.): Historiae Byzantinae, ed. Weberi, Bonn, 1829.
15- Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.
L'emfire des Steppes, 1945.
16- Guillon: La civilasation Byzantine, Arthand, Prais, 1974.
17- Hussey (J.): The Byzantive World, London, 1967.
18- The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, U.S.A. 1980.
19- Labis: Histoire de France, Paris, 1976.
20- Lexi Con Universal Encyclopedia, Lexicon Publication, Inc. New York, 1983, 21 Vols.

21- The Lincoln Library of Essential Information, The Frontier press Company, Columbus, Ohio, U.S.A. Thirty Ninth Edition, 1978.

22 Magie: Roman Rule in Asia Minor, 2 Vols, 1975.

23- Miller: The Empire of Nicaea and the recovery of Constantivople in C.Med.H. ed. Bury, Vol, IV, Cambridge, 1923.
Imferial Constantinople, U.S.A. 1969.

24- Nicol (D.): The Fourth crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, in C.Med.H. Vol, IV, Part, ed. Hussey, Cowbridge, 1975.
Byzantium, its ecclesiastical history and relations with the western world, London, 1972.

25- Neumann (C.): "Die Byzantinische Marine", Historische Zeitschrift, LXXX, 1, 1898.

26- Ostrogorosky: History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968.

27- Painter (S.): A History of the Middle Ages, New York, 1954.

28- Pears (E.): The Fall of Constantinople being the Story of the Fourth Crusade, New York, 1975.

29- Runciman (S.): The History of the crusades, Vol. 3, Cambridge university Press, 1966.
The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977.

30- Tessier (J.): La quatrieme croisade, la division sur Zara et Constantinople, la rowx, Paris, 1884.

31- Ushensky: The Formation of the Second Kingdom of Bulgaria, Odessa, 1879.

32- Vasiliev: History of the Byzantine Empire (324-1453), U.S.A. 1971.

33- Villehardouin (G.): La Conqueste de Constantinople par les Barons Francais associez que Venitians L'an 1204. English Transl. by Sir Marzials, London, 1965.

34- Walter: La Ruine de Byzance (1204-1453), ed. Albin Michel, Paris, 1958.

35- Whitting (Ph.): Byzantium, Oxford, 1981.

36- Wolff (R.): Studies in the latin Emprie of Constantinople, London, 1976.

البحث الثالث



زواج التحالف

فى العصور الوسطى

دكتورة
إسمت غنيم

١٩٨٦



المحتـــــوى



المقـــــدمة



بسم الله الرحمـــن الرحيم

ان موضوع زواج التحالف يعتبر من الموضوعات الهامة فى مجـال دراسات تاريخ العصور الوسطى ، نظرا لشيوعــه آنذاك عنــد مختلف العناصر التى حفل بها عالم العصور الوسطى ، وأيضا لمـا له من الصــفة الاجتماعية ، والاخرى السياسية ، والثالثة الانسانية .

فالزواج كما هو معروف ، نظام اجتماعى يعطى الصــفة الشرعيــة للعلاقة بين الرجل والمــرأة وما ينجبــونه من أبناء ، وهــو كذلك ارتباط اجتماعى بين عائلتين هما عائلة الزوج وعائلة الزوجــة ، وهــو ما يسمى بالمصـــاهرة .

والتحالف يعرف فى العلاقات الدوليــة ، بأنه اتفــاق بين دولتين أو أكثر ، من أجل التعاون معا ، لتحقيق أهداف سياسية معينة ، غالبا ما تكون دفاع متبادل ضد العدو المشترك .

أما الجانب الانسانى فى هذا الموضوع ، فهــو الذى شــدنى اليه ولفت نظرى ، واستحوذ على تفكيرى . وربما يرجــع ذلك الى تعـــاطفى الشديد مع ضحايا هذه المشكلة ، السياسية شكلا ، والانسانية مضمونا . فالضحية فى الغالب فتاة ، وربما طفلة ، تغادر الاهل والوطن ، وترحل الى بلاد غريبة عنها ، وتعيش وسط أناس مختلفون فى العادات والتقاليد واللغة والدين وكل شىء ، باسم الزواج أو المصاهرة ، وفى واقع الامر فان هــذا الزواج أو هذه المصاهرة تخدم أولا وأخيرا أهداف ومخططات سياســية بحته ، المصلحة السياسية هى الهدف ، وهى صاحبة الاعتبار الاول والاخير

فى هذا الزواج ، أما الفتاة فهى مجرد (نص) أو (بند) فى اتفاقية سياسية تعقـــد بين الدولتين •

ومن الناحية الاخرى ، يمكن القول أن أولئك الفتيات قد قمن بدور هام كرسل سلام ، وأدين خدمات جليلة لاوطانهن ، لذلك يمكن اعتبارهن جند . جندن لخدمة المصالح السياسية العليا لدولهن ولسن كباقى الفتيات ، وهذا هو العزاء الوحيد لهن • لكن ذلك لم يحدث الا فى القليـــل النادر من هذه الحالات ، مثل الامـــيرة آنا Anna المقـــدونية ، التى تزوجت فلاديمير حاكم كييف الروسى ، على النحو الذى يتم توضيحه فى ثنايا هذا البحث . أما معظم حالات زواج التحالف هـــذا ، فلم تســـفر الا عن فترة سلام مؤقتة ربما لبضع شهور ، أو لبضع سنين ، ثم تتطـــور الامـــور ، وتتغير السياسات ، وربما ينقلب سلام وود أمس ، الى عداء وقتال بعد ذلك ، وهنا تكون الطامة الكبرى لمثل أولئك الفتيات كما حدث مع كونستانس هوهنستاوفن ، ابنة الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هوهنستاوفن ، التى تزوجت زواج تحالف من امبراطور نيقية البيزنطيـــة يوحنافاتاتزيس[1] ،

---

(١) ذكر المؤرخ البيزنطى جريجوراس هذا الامبراطور باسم يوحنادوقاس Ioannis Ducae ، وذكره المؤرخ اكروبوليتيس باسم يوحنا دوقاس باتاتزيس Batatzes ، وعائلة باتاتزيس من العائلات البيزنطية الشهيرة التى اخذت فى الظهور اعتبارا من أواخر القرن العـــاشر وبدات تلعب دورا نشطا فى خدمة الامبراطورية البيزنطية ، ويرجع اصل هذه العائـــلة الى اقليم تراقيا . وقد استعملت فى هذا البحث اسم فاتاتزيس Vatatzes وهو الاسم الذى اتفق الغالبية العظمى من المؤرخين المحدثين على استعماله . راجع :

التى تعتبر قصة زواجها هذه ، والظروف التى أحاطت بهذا الزواج ، والنتائج التى ترتبت عليه ، هى الموضوع الرئيسى لهذا البحث .

وزواج التحالف يعرف باليونانية باسم Συμπεθεριασαι وباللاتينيه Coniungo (Coniungere) ، ويطلق عليه بالانجليزية

Intermarry or Intermarriage or Alliance Marriage

وزواج التحالف هذا كان قاصرا على الطبقات الحاكمة فقط ، لما له من الصفة السياسية ، ولا يمكن أن نطلق على أى زواج يحدث بين عنصرين مختلفين من عامة الشعوب اسم زواج تحالف ، وانما يطلق عليه فى هذه الحالة اسم (الزواج المختلط) Mixed Marriage

والجدير بالذكر ، أنه رغم أهمية موضوع زواج التحالف ، الا أن أحد من المؤرخين ، على الاطلاق ، لم يتناوله بالبحث والدراسة حتى الان ، لذلك فان هذه الدراسة تعتبر أول دراسة من نوعها تظهر فى هذا الموضوع الجديد المبتكر .

= Gregoras : Historae Byzantinae, C.S.H.B. ed Weberi, Bonn, 1829, p. 22 f f.

Georgii A Cropolites Opera, ed. Heisenberg, Leipzig, 1203, p. 26.

Polemis : The Doukai, University of London Historical Studies, XXII. 1968, pp. 106 — 109.

Ostrog orsky : History of The Byzantine State, Oxford, 1968, p. 435 ff.

Vasi Liev : History of The Byzantine Empire, U.S.A. 1971, p. 517 ff.

Brehier : Vie et mort de Byzance, Paris, 1969, p. 309 ff.

Angold : A Byzantine Empire in Exile, Government and Society Under the laskarıds of Nicaea, 1204 — 1261, Oxford, 1975, p. 47 ff.

هذا ، ولم يكن من الممكن التعرض لبحث كهذا مالم تكن هناك الخلفية التاريخية العريضة ، والرؤيا الواضحة ، لمختلف القضايا ، التى حفل بها عالم العصور الوسطى فى الغرب والشرق على حد سواء وبالتالى فقد تنوعت مصادر هذا البحث ومراجعة وتعددت ، نظرا لتعرضنا لنماذج متنوعة من حقب تاريخية مختلفة ، وذلك على النحو الذى يبدو واضحا خلال عرضنا لهذا الموضوع .

وأرجو أن تفيد هذه الدراسة الهامة ، الدارسين والباحثين ، وتسد بعض النقص فى المكتبة التاريخية الخاصة بتاريخ العصور الوسطى .

والله الموفق .

اسمت غنيم

لوران

١٢ أبريل ١٩٨٦

الفصل الأول

نماذج مختلفة لزواج التحالف

ــ موقف الاباطرة البيزنطيين (الرسمى) من زواج التحالف •

ــ موقف الكنيسة اليونانية •

ــ موقف البابوية •

ــ نماذج مختلفة لزواج التحالف فى العصور الوسطى •



هناك فقرة هامة فى كتاب الامبراطور قسطنطين السابـــع (٩١٣ — ٩٥٩) توضح بجلاء ، موقف الامبراطور قسطنطين الاكبر (٣٢٤ — ٣٣٧) وبعض الاباطرة البيزنطيين مثل قسطنطين السابع نفسه ، من فكرة زواج التحالف من الأمم الأخرى • يقول فيها قسطنطين السابع مخاطبـا ابنه رومانوس الثانى :

Ἀλλ᾽ ἄγε δὴ μετάβηθι, καὶ πρὸς ἕτερον εἶδος αἰτήσεως παραλόγου καὶ ἀπρεποῦς ἁρμόζοντας λόγους ἀναζήτει καὶ διαμάνθανε. εἰ γάρ ποτε ἔθνος τι ἀπὸ τῶν ἀπίστων τούτων καὶ ἀτίμων βορείων γενῶν αἰτήσεται συμπενθεριάσαι μετὰ τοῦ βασιλέως Ῥωμαίων καὶ ἢ θυγατέρα αὐτοῦ εἰς γυναῖκα λαβεῖν ἢ ἐπιδοῦναι οἰκείαν θυγατέρα ἢ γυναῖκα χρηματίσαι βασιλέως ἢ βασιλέως υἱοῦ, χρή σε τοιούτοις ῥήμασι καὶ τὴν τοιαύτην αὐτῶν παράλογον ἀποκρούσασθαι αἴτησιν, λέγοντα ὅτι καὶ περὶ ταύτης τῆς ὑποθέσεως παραγγελία καὶ διάταξις φοβερὰ καὶ ἀπαραποίητος τοῦ μεγάλου καὶ ἁγίου Κωνσταντίνου ἐγγέγραπται ἐν τῇ ἱερᾷ τραπέζῃ τῆς καθολικῆς τῶν Χριστιανῶν ἐκκλησίας τῆς ἁγίας Σοφίας, τοῦ μηδέποτε βασιλέα Ῥωμαίων συμπενθεριάσαι μετὰ ἔθνους παρηλλαγμένοις καὶ ξένοις ἔθεσι χρωμένου τῆς Ῥωμαϊκῆς καταστάσεως, μάλιστα δὲ ἀλλοπίστου καὶ ἀβαπτίστου, εἰ μὴ μετὰ μόνων τῶν Φρύγγων· τούτους γὰρ μόνους ὑπεξείλετο ὁ μέγας ἐκεῖνος ἀνὴρ Κωνσταντῖνος ὁ ἅγιος, ὅτι καὶ αὐτὸς τὴν γένεσιν ἀπὸ τῶν τοιούτων ἔσχε μερῶν ὡς συγγενείας καὶ ἐπιμιξίας πολλῆς τυγχανούσης Φρύγγοις τε καὶ Ῥωμαίοις· καὶ διὰ τοῦτο μετὰ τούτων μόνων προσετάξατο συνιστᾶν γαμικὰ συναλλάγματα τοὺς βασιλεῖς Ῥωμαίων διὰ τὴν ἄνωθεν τῶν μερῶν ἐκείνων καὶ γενῶν περιφάνειαν καὶ εὐγένειαν, μετ᾽ ἄλλου δὲ οἵου δήποτε ἔθνους μὴ δυναμένους τοῦτο ποιεῖν, ἀλλ᾽ ὁ τοῦτο ποιῆσαι τολμήσας ἵνα ὡς παραβάτης πατρικῶν εἰσηγήσεων καὶ βασιλείων θεσμῶν ἀλλότριος κρίνοιτο τῶν Χριστιανῶν καταλόγων καὶ τῷ ἀναθέματι παραδίδοιτο.(1)

(1) Constantini Porphyrogeniti : De Administrando Imperio, Bonnae, Cap, 13, pp. 85 — 86. in Greek.

« لكن هيا ، التفت الآن ، لتقابل طلبا من نوع آخـــر ، رهيب وغير لائق • ان الكلمات اللائقة والمناسبة تبتكر وتبحث عن مخرج • وذلك انه اذا حدث أن طلبت احدى هذه القبائل الشمالية الوضيعة ، زواج تحالف ، مع الامبراطور الرومانى سواء بأخذ ابنته زوجة ، أو باعطاء ابنتهم لتصبح زوجة للامبراطور أو لابنه فانك سوف ترد على هذا الطلب الشائن من قبلهم بهذه الكلمات : فيما يتعلق بهذا الامر ، هناك أيضاً وصـــية وأمـــر مهيب وموثوق به ، لقسطنطين العظيم المقدس ، منقوشا فوق المنضدة المقدســـة لكنيسة المسيحيين العالمية[1] آيا صوفيا ، يحرم على أى امبراطور رومانى أن يعقد زواج تحالف مع أمة لها عادات تختلف وتغاير التقاليد الرومانية ، وخاصة مع من تكون ملحدة وغير معمدة ، فيما عدا الفرنجة وحدهم ، لانهم وحدهم كانوا مستثنين من قبل هذا الرجل العظيم قسطنطين المقدس،لانه هو نفسه ينحدر أصله من هؤلاء الاجناس ، ولان هناك صداقة وعـــلاقات تجارية عظيمة بين الفرنجة والرومان • ولماذا أمر بزواج أباطرة الرومان منهم فقط • ان ذلك يرجع الى شهرة تقاليد هذه البلاد ، ونبل هذه القبائل • ولكن ليس بوسعهم[2] أن يفعلوا ذلك مع أى أمة أخرى مهما كانت • ومن

---

(١) استخدم الامبراطور قسطنطين السابع الكلمة اليونانية كاثوليكـيس Xαθολιxὴs اى تصبح الترجمة هكذا (لكنيسة المسيحيين الكاثوليكية آياصوفيا) . لكن المعروف أن كنيسة آيا صوفيا ليست كاثوليكية ولكنها على المذهب الارثوذكسى Orthodoxus ، وهو ما اكده قسطنطين السابـــع نفسه فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب (انظر على سبيل المثال ص ٨٧) . لذلك أرى انه من الاصح أن تترجم هذه الكلمة اليونانية بمعنى عالمى Universal وهو معنى هذه الكلمة بالفعل .

(٢) المقصود ليس بوسع الاباطرة الرومان .

يجرؤ على فعل ذلك ، يكون مداناً كخارج على المجتمع المسيحى ، ومخالف لقوانين الأسلاف ، وللأوامر الامبراطورية » .

ويبرر الامبراطور قسطنطين السابع اقتناعه بعدم عقد زواج تحالف بين الاسرة الحاكمة البيزنطية ، وأية أسرة حاكمة من أى عنصر آخر بقوله.

> ἕκαστον γὰρ ἔθνος διάφορα ἔχον ἔθη καὶ διαλλάττοντας
> νόμους τε καὶ θεσμοὺς ὀφείλει τὰ οἰκεῖα κρατεῖν καὶ ἀπὸ τοῦ αὐ-
> τοῦ ἔθνους τὰς πρὸς ἀνάκρασιν βίου κοινωνίας ποιεῖσθαι καὶ ἐνερ-
> γεῖν. ὥσπερ γὰρ ἕκαστον ζῷον μετὰ τῶν ὁμογενῶν τὰς μίξεις
> 10 ἐργάζεται, οὕτω καὶ ἕκαστον ἔθνος οὐκ ἐξ ἀλλοφύλων καὶ ἀλλο-
> γλώσσων ἀλλ' ἐκ τῶν ὁμογενῶν τε καὶ ὁμοφώνων τὰ συνοικέσια
> τῶν γάμων ποιεῖσθαι καθέστηκε δίκαιον. ἐντεῦθεν γὰρ καὶ ἡ
> πρὸς ἀλλήλους ὁμοφροσύνη καὶ συνομιλία καὶ προσφιλὴς συνδια-
> τριβὴ καὶ συμβίωσις περιγίνεσθαι πέφυκε· τὰ δὲ ἀλλότρια ἔθη καὶ
> 15 διαλλάττοντα νόμιμα ἀπεχθείας μᾶλλον καὶ προσκρούσεις καὶ μίση
> καὶ στάσεις εἴωθεν ἀπογεννᾶν, ἅπερ οὐ φιλίας καὶ κοινωνίας ἀλλ'
> ἔχθρας καὶ διαστάσεις φιλεῖ ἀπεργάζεσθαι. (1)

« لأنّ لكل أمة تقاليدها المختلفة ، وقوانينها وتشريعاتها المتباينة ، فانه يجب أن تندمج هذه الاشياء كلها لتميزها عن غيرها ، ويجب أن تتكون وتنشأ من نفس الامة الرابطة التى توحد أسلوب حياتها . وكما أن كل حيوان يتزاوج من نفس فصيلته ، لذلك فالاصح أن كل أمة كذلك يجب أن تتزاوج وتتعايش مع نفس جنسها ولغتها ، وليس ممن يختلفون عنها فى العنصر واللغة . ولهذا السبب ينشأ التوافق الطبيعى والتفكير والتعامل والحديث الودى بين الفرد والآخر ، ويعيشون معا فى وئام . لكن التقاليد الاجنبية والقوانين المتشعبة ، تكون على العكس تماما ، فانها تؤدى الى

(1) Constantini Porphyrogeniti : De Administrando Imperio, Cap. 13. pp. 89

العداوة والخلاف والكراهية والشجار ، تلك الاشياء التى تخـدم وتولد ، ليس الصداقة ولا المشاركة ، ولكن الحقد والانقسام » •

كان ذلك عن موقف الاباطرة البيزنطيين من موضوع زواج التحالف ، ولكن ماذا عن موقف الكنيسة اليونانية الارثوذكسية من أمـر الزواج بين البيزنطيين وغيرهم من العناصر الاخرى ؟

لقد كانت الكنيسة اليونانية تطلب دائما أن يكون الزوجان ليس فقط على نفس الدين ، وانما على نفس المذهب • لذلك كان زواج البيزنطيين من العناصر الاخرى المختلفة الديانة أو المذهب ، يعتبر من وجهة نظر الكنيسة الارثوذكسية زواجا غير شرعى • وفى القرار الرابع عشر لمجمع خلقيدونية حرم على المسيحى الارثوذكسى أن يعقد « زواج مع امرأة هرطيقة » • وقد أعاد القرار الثانى والسبعين لمجمع Trullo هذه الصيغة ، وأضاف أنه اذا كان الزواج قد تم بالفعل فانه يجب أن يفسخ • وفى القرن الثانى عشر قرر عالم اللاهوت والقانون ورجل الدين Theodore Balsamon ان النسـاء الارثوذكسيات اللاتى يتزوجن من رجال هـراطقة يجب أن يقطن فورا من الكنيسة[1] •

ورغم أن قسطنطين الاكبر ومن تلاه من أباطرة بيزنطيين قد أباحوا الزواج من عنصر الفرنجة اللاتين ، الا أن الموقف كان لابد وأن يتغير بعد القطيعة الدينية بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ذلك أن انقسـام عام ١٠٥٤م • كان لابد وأن يلقى ظلاله القاتمة على امكانية الزواج بين أصحاب

(1) Nicol : Byzantium, its ecclesiastical history and relations with the western world, variorum Reprints, London, 1972, p. 160.

(الخبز قبل الاختمار) Prozymites وهم اليونان ، و (الخبز غير المختمر) Azymites وهم اللاتين .

وزاد الطين بلة ، أحداث عام ١٢٠٤م . الخاصة باستيلاء اللاتين على العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، وتنصيب بطريرك لاتينى كاثوليكى فى كنيسة القسطنطينية ، وقد أصبح رجال الدين من كلا الطرفين اللاتينى واليونانى يتهم كلا منهما الآخر بالهرطقة وقال ديمتريوس خوماثيانوس Demetrios chomatianus رئيس أساقفة أوخريدا ، وهو رجل الدين اليونانى الاكثر ثقافة بين رجال الدين فى القرن الثالث عشر الميلادى ، انه لا خير يأت من الزواج بين اليونان واللاتين ، وأصدر حكمه بأن الطرف الارثوذكسى فى هذا الزواج يجب أن يقطع من الكنيسة ، أما رجل الدين اليونانى الذى يعقد مثل هذا الزواج فيجب أن يطرد من وظيفته فورا[1] .

أما المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونياتيس Nicetas choniates الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى فقد وصف اللاتين بأنهم (دعاة سابقون للمسيح الدجال)[2] .

وفى مثل هذه الظروف أصبح الزواج بين الطرفين اليونانى واللاتينى يعتبر خروجا على القانون الكنسى .

---

(1) Demetrios Chomatianus, ed. Pitra, in (Analecta Sacra Spicilegio Solesmensi Parata) Rome, 1891, VII, p. 713.

(2) Choniates N. : Historia, ed. Bekker. in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1835, p. 763.

على أن دوافع السياسة العليا للبيزنطيين ، أجبرت رجال الدين الارثوذكس على أن يقتنعوا بوجهة نظر أباطرتهم اليونان ، الذين تطلعوا للزواج من نساء الطبقة الحاكمة اللاتينية فى الشرق ، ووضعوا مصالحهم القومية فوق قيود القانون الكنسى ، لانه طالما بقيت الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية قائمة ، فان زواج الاباطرة اليونان من الاسرة الحاكمة اللاتينية ، يظل أمرا من أمور التنظيم الدبلوماسى لليونان ، فالذى لا يستطيعون الحصول عليه عن طريق الحرب ، يمكنهم الحصول عليه عن طريق المصاهرة ، وكانت العاصمة الام القسطنطينية هى هدفهم الاول والاخير •

لذلك فقد تغاضى البطريرك اليونانى عن زواج بعض الاباطرة البيزنطيين من لاتينيات غربيات ، مثل زواج الامبراطور ثيودور لاسكاريس الاول (١٢٠٤ — ١٢٢٢) من ماريا أوف كورتناى شقيقة الامبراطور اللاتينى للقسطنطينية روبرت أوف كورتناى (١٢٢١ — ١٢٢٨) • وتزويجه اثنتين من بناته الثلاثة الى زوجين لاتينيين،فقد زوج ابنته ماريالاسكاريس من ابن ملك هنغاريا ، وزوج ابنته الثانية أيدوكيا لاسكاريس من البارون الفرنسى للقسطنطينية Anseau of Cahieu [1] وقد تجاهل البطريرك الاعتراضات الكنسية التى يمكن أن يبرزها ويتمسك بها فى الظروف الاخرى •

---

(1) Geórgii Acropolitae opera, ed. Heisenberg, Leipzig, 1903, pp. 26, 41, 85.

لكن البطريرك كان يشترط أن يكون الاولاد أرثوذكسا ، اذا كان أحد طرفى الزواج أرثوذكسيا ، لان الطرف غير الارثوذكسى يكون هرطيقا ، اذن يجب أن يكون الابناء أرثوذكسا وليسوا هراطقة[١] .

كان هذا عن موقف اليونان ، ولكن ما هو موقف البابوية والكنيسة الكاثوليكية من الزواج من الارثوذكس ؟

لقد بنى موقف البابوية بعد انقسام عام ١٠٥٤م . على مبادىء صارمة ، وكان لابد للكاثوليك فى حالة الزواج من أرثوذكس أن يحصلوا على موافقة وتصديق بابا روما على هذا الزواج ، أما بعد أحداث عام ١٢٠٤ فقد كان من الممكن أن يقتنع البابوات بمثل هذا الزواج اذا أبدى الاباطرة اليونان رغبتهم الواضحة الصريحة فى ادخال الكنيسة اليونانية فى اتحاد مع كنيسة روما[٢] .

ورغم نصائح وتحذيرات قسطنطين الاكبر وتأكيده على عدم عقد زواج تحالف بين الاسرة الحاكمة فى بيزنطه وبين بعض الاسر الحاكمة الاجنبية فيما عدا الفرنجة ، الا أن زيجات تحالف عديدة قد تمت بالفعل

---

(1) Nomocanon Photii Patriarchae Constantinopolitani, ed. Christophorus Iustellus, Latins trans., Paris, 1615, pp. 133 — 134, 194 — 196.

(2) Nicol : Op. cit., p. 171.

على امتداد التاريخ البيزنطى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، تزوج الامبراطور قسطنطين الخامس من أميرة من الخزر هى ابنة ملك الخزر • وكذلك زوج الامبراطور رومانوس ليكابينوس حفيدته ماريا من الامير بطرس البلغارى ، وقد ترتب على هذا الزواج اطلاق البلغار لسراح عدد كبير من الاسرى البيزنطيين[١] •

أما الامبراطور باسيل الثانى المقدونى (٩٧٦ — ١٠٢٥م) فقد اضطرته ظروفه السياسية الداخلية الى التضحية باخته الاميرة آنا Anna حفيدة قسطنطين السابع نفسه ، وتزويجها من فلاديمير Vladimir قيصر الروسيا •

وتتلخص هذه الظروف السياسية الصعبة التى واجهها باسيل الثانى فى بداية حكمه فى عام ٩٧٦ ، فثورة أهلية خطيرة قام بها أحد كبار القادة البيزنطيين ويدعى بارداس سكليروس Bardas sclerus ، وكان يرمى من وراء ثورته هذه الى انتزاع العرش الامبراطورى من أصحابه الشرعيين باسيل الثانى وقسطنطين الثامن • ومما زاد الموقف سوءا أن القائد البيزنطى برداس فوقاس ، وهو الاخر من عائلة بيزنطية شهيرة ،

---

(1) Constantini Porphyrogeniti : De Administrando Imperio, Cap,1 3, pp. 87 — 88.

(٢) ذكره المؤرخون المسلمون باسم (ورد بن منير) أو (ورد الرومى) ، انظر على سبيل المثال :

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٨٠ •

أبو شجاع : ذيل تجارب الامم ، ص ١٣ •

أما المؤرخ يحيى الانطاكى فقد ذكرم باسم (بردس السقلاروس) ، انظر: يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٥٨ •

الذى أرسلته الحكومة البيزنطية بالجيش للقضاء على ثورة سكليروس ، انتهى به الامر الى التحالف مع هذا الثائر ، وتم الاتفاق بينهما على اقتسام الامبراطورية البيزنطية ، بحيث يأخذ سكليروس الجزء الآسيوى ، ويأخذ فوقاس الجزء الاوروبى منها[1] .

وهكذا تفاقمت الامور ، وأصبح الموقف يهدد بالقضاء على الاسرة المقدونية ، ولم يجد باسيل منفذا للخروج من هذه الظروف العسيرة الا بمساعدة خارجية ، فاتجه بانتظاره نحو حاكم كييف الامير الروسى فلاديمير Vladimir (٩٧٢ - ١٠١٥) الذى ذكره المؤرخ البيزنطى زوناراس باسم بلاديميرو Bladimero[2] .

وقد تم عقد معاهدة بين الطرفين تضمنت تقديم فلاديمير المساعدة العسكرية لباسيل ، وارسال بعثات تبشيرية لتحويل الروس من الوثنية الى المسيحية ونصت أحد بنود هذه المعاهدة على زواج شقيقة باسيل الثانى الاميرة آنا من هذا الامير الروسى فلاديمير[3] .

ويعلق المؤرخ ستيفن رانسيمان على هذا الزواج بقوله انه كان مهينا بوجه خاص ، وذلك لان الامير فلاديمير كان همجيا بربريا لا يرجى صلاحه[4] .

---

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٦٧ .
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968, p. 269.
(2) Zonaras : Epitomae Historiarum, Bonn, 1838, Liber XVIII, pp. 552 — 553.
(3) Zonaras : pp. 552 — 553.
Ostrogorsky : op. cit., p. 269.
C. Med. H., Vol IV, ed. Bury, Cambridge 1926, p. 88.
(4) Runciman : Byzantine Civilisation, Seventh impression, great Britain, 1975, p. 160.

وقد تمكن باسيل عن طريق المساعدة العسكرية التى أرسلها له فلاديمير والتى تمثلت فى ستة آلاف مقاتل من الروس أن ينزل الهزيمة بخصومه وتم اخماد هذه الفتنة الاهلية[1] ، وتوطد نفوذ الاسرة المقدونية ورسخت أقدامها على العرش البيزنطى •

وهكذا تمت التضحية بهذه الاميرة البيزنطية الشابة فى سبيل تحقيق أهداف سياسية عليا للدولة البيزنطية • ولكن لا يمكن أن نغفل الدور العظيم الذى قامت به هذه الاميرة البيزنطية فى حفظ العرش لاسرتها وتحويل الروس من وثنيتهم الى ديانة سماوية •

ومن أمثلة زواج التحالف أيضا ، ذلك الذى حدث بين الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) وبرتا أوف سلزباخ Bertha of Sulzbach

---

(١) بخصوص هذه الفتنة الاهلية من بدايتها حتى نهايتها انظر المصادر التالية :

Zonaras : Epitomae Historiarum, Liber XVIII, pp. 539 — 557.
Psellos : Chronographie, Collection Byzantine Publiee Sous le Partonage de l'association tullaume pudé, Serie par Renauld, Paris, 1928, Tome 1, pp. 14 — 20.
Finlay : History of The Byzantine Empire, pp. 336 — 340.
Schlumberger : L'epopeé Byzantine, Vol, pp. 338 — 340.
Ostrogorsky : op. cit., pp. 265 — 270.
C. Med. H. Vol. IV, ed. Bury, pp. 83 — 88.

ومن المصادر العربية راجع :
ابن الاثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٨٠ وما بعدها .
ابو شجاع : ذيل تجارب الامم ، ص ١٣ وما بعدها .
يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٣ وما بعدها .

شقيقة زوجـة الملك كـونراد الثـالث ملك الالمـان (١١٣٨ ـ ١١٥٢) ، وكان هذا الزواج يخدم أهدافا سياسية . فحين وجد كل من البيزنطيين والالمان أن ملك الصقليتين روجر الثانى (١١٣٠ — ١١٥٤) يهدد نفوذهما فى ايطاليا ، اتجها للتحالف معا ، وكان تحالفهما هذا موجها ، وفى المقام الاول، ضد روجر الثانى ، وتأكيدا لتحالفهما ، تم زواج الامبراطـور البيزنطى مانويل كومنين من برثا الالمانية فى القسـطنطينية فى عام ١١٤٩ ، وخلعت عليها الكنيسة اليونانية اسما يونانيا هو ايرين[١] .

ولم يخل عصر الحروب الصليبية كذلك من زيجات تحالف ، هدفت الى تحقيق المصالح السياسية العليا للصليبيين فى الشرق ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، زواج التحالف الذى تم بين ايزابيلا ، ملكة مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية ، وعموري لوزجنان ملك قبرص .

ذلك أنه بعد وفاة الملكة سيبل ملـكة بيت المقـدس ، وزوجة جاى لوزجنان ، فى أكتوبر ١١٩٠ ، عاد العرش الى أسرتها من جديد،حسبقانون مملكة بيت المقدس ، وهكذا انتقل العرش الى شقيقتها ايزابيلا ، التى كانت متزوجة من شخص يدعى انفروى الرابع دى تورون Onfroi IV de toron ولكنه لم يحز على رضاء الصليبيين ، اذ كانوا يرونه خاملا لن يستطيع أن يقودهم الى انتصارات على صلاح الدين والمسلمين فى هذه المرحلة المصيرية فى تاريخ الصليبيين فى الشرق بعد انهيار مملكتهم على يد صـلاح الدين

---

(1) Cinnamus : Historiarum, éd Bonn, 1836, p. 87.

الايوبى عقب معركة حطين فى ١١٨٧ ، لذلك فقد طلقها الصليبيون من زوجها، واختاروا لها زوجا رأوا فيه رجل الساعة وهو كونراددى مونتفرات الذى وجدوا فيه القدرة والكفاءة على احياء مملكة بيت المقـدس الصـليبية ، وزوجوها منه فى نوفمبر ١١٩٠[1] .

على أن كونراد لم يلبث أن قتل فى ٢٨ أبريل ١١٩٢ ، وعلى الفـور ، وبعد يومين فقط من مقتل زوجها السابق ، زوجهـا الصليبيون من هنرى دى شامبنى الذى كانت تربطه صلة القرابة بريتشـارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسـا .

على أن هنرى دى شامبنى لم يلبث أن توفى فى ١٠ سـبتمبر ١١٩٧ ، وأخذ الصليبيون يعملون فكرهم لاختيار زوجا جديدا لايزابيلا ، وسرعان ما اتجهوا بأنظارهم نحو جزيرة قبرص ، وأدركو أن ضمها لاملاكهم بالشام لا شك أنه يخدم مصالحهم السياسية ، نظر لموقع الجزيرة الاستراتيجى الممتاز ، التى كثيرا ما اتخذها الصليبيون قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد بلاد الشام ، ومركزا عسكريا لحملاتهم ضد البلاد الاسـلامية فى الشرق الادنى .

وهكذا خطط الصليبيون لضم قبرص الى الشام ، وكان أقصر طريق لذلك هو زواج التحالف ، فأتموه بالفعل ، وزوجوا ايزابيـلا فى ١١٩٨ من

---

(1) Dodu (G.) : Histoire des Institiones Monarchiques dans le Royaume Latin de Jerusalem, Paris, 1894, pp. 120 — 121.

Eracles, 11, pp. 152 — 154.

حاكم جزيرة قبرص الملك عمورى لوزجنان ــ شقيق جاى لوزجنان ــ وبذلك تم توحيد تاجى قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية (الاسمية) ، وأصبح لزاما على الملك عمورى أن يجند امكانيات قبرص وجهوده الذاتية للدفاع عن مصالح الصليبيين بالشام[1] .

هناك أيضا زواج التحالف الذى تم بين يولاندى برين ابنة حنادى برين ومارى دى شامبنى ، ووريثة عــرش مملكة بيت المقــدس الصليبية (الاسمية) وبين الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هوهنستاوفن .

فحينما بلغت يولاند الحادية عشر من عمرها ، وقع اختيار البــابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ ــ ١٢٢٧) عليها لتكون زوجــة للامــبراطور العظيم فــردريك الثانى (١١٩٧ ــ ١٢٥٠) ، وذلك من أجــل أهــداف سياسية بحتة .

فقد كانت البابوية دائمة الالحاح على الامبراطور فردريك الثانى من أجل القيام بحملة صليبية ضد المسلمين بالشرق الادنى لتعويض الفشــل الذى حاق بالحملات الصليبية المتعاقبة ، واعادة مــدينة بيت المقــدس للصليبيين واقرار أمورهم بالشام . ولمــا كان فردريك الثانى يحب المسلمين ويميل اليهم ، وهو الذى قضى بينهم طفولته وصباه فى صقلية ، ولمــا كان

(1) Stubbs : Seventeen Lectures on The Study of Medieval and modern History, Oxford, 1900, p. 196.
Setton : A History of Crusades, Pensylvania, 1958, Vol II, pp. 523 — 529.
سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٣٧

كذلك على درجة كبيرة من الثقافة والحضارة نأت به عن خوض بحور الدماء التي دأب الملوك الغربيون على خوضها خلال صراعهم مع المسلمين ، لذا فقد أخذ يراوغ البابوية ، والبابا يلح عليه للقيام بهذه الحملة المرتقبة .

وهكذا ، وفي محاولة من جانب البابوية لايجاد الدافع لدى فردريك الثاني للقيام بهذه الحملة ، خطط البابا لزواج يولاند وريثة عرش المملكة الصليبية بالشام من فردريك الثاني واشترط البابا أن يتم الزواج في الشام حتى يجبر الامبراطور فردريك على الرحيل بجيوشه الى الشام . وقد نفذ الامبراطور رغبة البابا الخاصة بالزواج من يولاند ، لما في ذلك من مصالح سياسية ستعود عليه، لكنه بدلا من الذهاب الى الشام، استدعى عروسه هي ووالدها حنا دي برين الى صقلية ، وتم زواجه بها في صقلية في ٩ نوفمبر ١٢٢٥ ، وعن طريق هذا الزواج كسب الامبراطور فردريك الثاني عرش المملكة الصليبية بالشام الذي كان حقا من حقوق زوجته ، وأصبح ملكا على هذه المملكة . على أن العمر لم يمتد بيولاند ، وتوفيت في ابريل ١٢٢٨ ، ولم تتعد السابعة عشر من عمرها ، وبعد أن أنجبت طفلا لفردريك أطلق عليه اسم كونراد ، وأصبح هو الوريث الشرعي لوالدته[1] .

والى جانب هذه الامثلة والنماذج لزواج التحالف عند العناصر المختلفة التي عرفت في العصور الوسطى ، نستعرض مثالا آخر لزواج التحالف عند البلغار .

---

(1) Archer & Ringsford : The Crusades, London, 1894, p. 381.
Runciman: A History of the Grusades, Vol III, p. 177.

.. فبعد أن كان البلغار من العناصر البربرية ، التى كان البيزنطيون ينظرون اليهم بتعالى وغطرسة ، والذين خاض ضدهم الامبراطور باسيل الثانى حروبا عنيفة متصلة أكسبته لقب (سفاح البلغار) Bulgaroktonos، وانتهت هذه الحروب بادخال بلغاريا ضمن دائرة النفوذ البيزنطى واحتلالها، قام البلغار بعد ذلك وحرروا بلادهم من نير الحكم البيزنطى ، بل وأقاموا امبراطورية أصبح لها شأنها وثقلها السياسى منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، وساعد على ذلك انهيار الامبراطورية البيزنطية تحت الضربة العنيفة التى وجهها اليها اللاتين الغربيين فى عام ١٢٠٤ ، والتى أدت الى اقامة مملكة لاتينية فى القسطنطينية ، وامارات لاتينية صغيرة فى شبه جزيرة البلقان ، الى جانب الامارات التى أقامها البيزنطيون فى أبيروس غرب بلاد اليونان ، ونيقية فى آسيا الصغرى ، وطرابيزون على ساحل البحر الاسود • وهكذا أصبح التفكك هو الصفة المميزة لهذه المنطقة من عالم العصور الوسطى •

وفى وسط هذا كله ، بزغت الامبراطورية البلغارية ، وأصبح لها الدور الاقوى والاهم فى الاحداث السياسية الجارية فى هذه المنطقة ، وأصبح يخطب ودها ويطلب تحالفها كل من اللاتين واليونان على حد سواء ، ليستعين كل منهما ، بقوتها العسكرية لتدمير قوة أعدائه وجنى ثمارا سياسية •

وقد لعب زواج التحالف لعبته وسط هذه الاحداث • ذلك أن ابنة ملك البلغار ، يوحنا آسن تهافت على الزواج منها بلدوين الثانى الامبراطور

اللاتينى للقسطنطينية ، وفى نفس الوقت رأى يوحنا فاتاتزيس امبراطور نيقية البيزنطية ألا تضيع هذه الصفقة السياسية من بين يديه ويدع خصمه اللاتينى يكسبها ويكسب معها تحالف البلغار ومساعدتهم العسكرية له . لذلك فقد أرسل الى والدها يخطبها لابنه ثيودور الثانى لاسكاريس . وقد كسب فاتاتزيس هذه الجولة ، وتم بالفعل فى عام ١٢٣٥ زواج ثيودور لاسكاريس الثانى من هيلينا يوحنا آسن وتعرض المؤرخ البيزنطى نقفورجريجوراس لهذا الزواج بقوله :

«Helenam Asanis filiam decem annos natam Imperatoris filio nendum puberi Theodoro Lascari iuniori Coniungunt». (1)

وقد تم عقد تحالف بين الطرفين اليونانى والبلغارى ، كان الهدف الاساسى من ورائه هو أن يستغل فاتاتزيس قوة البلغار العسكرية من أجل استرجاع العاصمة الام القسطنطينية من يد اللاتين ، وقد بدأ تنفيذ هذا المشروع بالفعل واجتمعت القوات البلغارية بقيادة يوحنا آسن، واليونانية بقيادة يوحنا فاتاتزيس وحاصرت القوات المتحالفة مدينة القسطنطينية .

لكن سرعان ما أدرك آسن أنه فى حالة سقوط القسطنطينية فى أيديهم فان فاتاتزيس فقط هو الذى سيجنى الثمار ويستولى عليها بصفته صاحب الحق الشرعى فيها ، لذلك فكر آسن فى الانسحاب من أمام القسطنطينية وقلب ظهر المجن لفاتاتزيس ولكنه خشى أن ينتقم اليونان من ابنته هيلينا ، لذلك ، وقبل أن يقدم على أى تصرف ، طلب من فاتاتزيس أن يسمح لهيلينا

---

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, ed. Weberi, Bonn, 1829, pp. 29—30.

بزيارة أهلها وعشيرتها ، وفهم فاتاتزيس الخطة التى رسمها آسن ، ورغم ذلك سمح لها بمغادرة نيقية بناء على طلب والدها[١] .

وبعد أن اطمأن آسن الى وصول ابنته اليه ، رفع الحصار وانسحب من أمام القسطنطينية ، بل أكثر من ذلك فانه تحالف مع اللاتين فى القسطنطينية ضد فاتاتزيس واشترك جيش لاتينى بلغارى فى حصار مدينة Tzurulum فى اقليم تراقيا ، التابعة ليوحنا فاتاتزيس .

ولم يلبث آسن أن جاءته الانباء بوفاة زوجته وابنه فى آن واحد ، فأدرك أن هذا هو عقاب السماء له لخيانته فاتاتزيس ، فنقض حلفه مع اللاتين وانسحب من أمام Tzurulum ، وأعاد ابنته هيلينا الى زوجها ثيودور لاسكاريس الثانى ، وعاد من جديد حليفا ليوحنا فاتاتزيس[٢] .

وهكذا كانت هذه الفتاة هيلينا يوحنا آسن دمية فى يد والدها يحركها كيفما أراد ، فتارة يزوجها من ابن حليفه اليونانى ، وتارة أخرى ينتزعها من زوجها وقتما يريد ويعيدها الى ديارها بناء على شكوك ومخاوف سياسية ، ثم حينما يقرر اعادة تحالفه السياسى مع فاتاتزيس يعيدها هى الاخرى لزوجها . والموضوع كله مصالح سياسية بحتة ، والفتاة لا تملك من أمرها شيئا ، عليها فقط أن تتحرك وفقما يحركها والدها لخدمة أغراضه ومصالحه السياسية .

---

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople, Chapter I, p. 219.
(2) Wolff : op. cit., p. 220.

واكتفى بالاشارة لهذه النماذج الانسانية لفتيات من مختلف العناصر كن ضحية لهذه الزيجات السياسية ، وأبدأ فى عرض وتحليل زواج تحالف واحد مستعرضة مختلف التفاصيل الخاصة به ، من حيث الظروف السياسية التى أدت الى عقده ، والنتائج التى ترتبت عليه ، ثم تتبع حياة الفتاة بعد الزواج والاحداث التى عرضت لها حتى وفاتها •

الفصل الثاني

العوامل التي أدت للمصاهرة بين اليونان واللاتين

– الظروف السياسية ليوحنا ڤاتاتزيس ، وعلاقاته بالبابوية ٠

– فردريك الثاني ونضاله السياسي والديني ضد البابوية ٠

لقد تم هذا الزواج بين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤) وكونستانس هوهنستاوفن ابنة الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هوهنستاوفن وكانت دوافع وأهداف هذا الزواج سياسية بحتة .

ذلك أن فاتاتزيس كان قد تولى عرش امبراطورية نيقية البيزنطية بعد وفاة مؤسسها ثيودور الاول لاسكاريس فى ١٢٢٢ ، وكان ثيودور قد زوج ابنته ايرين لاسكاريس من يوحنا فاتاتزيس . والواقع أن فاتاتزيس كان كفؤا لتولى عرش الامبراطورية البيزنطية المنفية التى اتخذت من نيقية فى آسيا الصغرى مركزا وقاعدة وعاصمة مؤقتة لحين استرجاع العاصمة الام من يد اللاتين . وقد بلغت نيقية فى عهده مركزا مرموقا ، وغدت موئلا للعلماء والمثقفين ، وتبوأت مكانة أثينا فى العصور القديمة ، وقد أولى فاتاتزيس عناية كبيرة لمختلف شئون دولته ، فنظم الادارة الداخلية تنظيما رائعا ، على نفس النمط البيزنطى المعروف فى الادارة ، كما اهتم بتحسين الزراعة وتربية المواشى والدواجن، ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد ، أن فاتاتزيس اشترى لزوجته ايرين لاسكاريس تاجا مرصعا باللالىء والجواهر النادرة ودفع ثمنه من المبالغ التى تسلمها ثمنا لما باعه من بيض ودجاج احدى مزارعه وقد سمى هذا التاج باسم (تاج البيض) Egg Crown (١)

أما فى ميدانى السياسة والحرب ، فقد ابلى فاتاتزيس بلاءا حسنا

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 443.

وحافظ على المكاسب التى حققها سلفه ثيودور الاول لاسكاريس ، بل وزاد كثيرا فى حدود امبراطورية نيقية بما قام به من حروب ضد مختلف الاعداء المحيطين بدولته ، وخاصة اللاتين الذين كان القضاء عليهم واســترجاع القسطنطينية من أيديهم هو حلمه الاكبر الذى سعى من أجل تحقيقه طوال سنوات حكمه،والذى كان زواجه من كونستانس هوهنشتاوفن احدى وسائله لتحقيق هــذا الحلم .

والواقع أن قضية اليونان واللاتين ، والتعاطف الذى أبداه الامبراطور فردريك الثانى تجاه اليــونان وتأييده لقضــيتهم ولحقهــم الشرعى فى القسطنطينية ، وكذلك تأييد فردريك لفاتاتزيس فى موقفه ضد بابا روما ، كل ذلك مما أدى الى التقارب بين الطرفين وساهم مساهمة فعالة فى اتمام هذا الزواج .

ذلك أن فاتاتزيس قد قضى العامين الاولين من حكمه مشغولا فى تنظيم الامور الداخلية والاستعداد عسكريا لمعركته ضد اللاتين ، فدعم الاسطول البحرى الذى كان قد أنشأه سلفه ثيودور الاول لاسكاريس ، وقد ساهم هذا الاسطول الى حد كبير فى احراز الانتصار على أعدائه فى هذه المرحلة .

ولم يلبث فاتاتزيس أن بدأ حــربه مع الــلاتين فى ١٢٢٥ وأحــرز انتصارات عديدة عليهم ، وفتح معظم أملاك اللاتين فى آسيا الصغرى ، كما قام أسطوله بالاستيلاء على شبه جــزيرة غاليبــولى Gallipoli ، ذات الاهميــة الكبيرة ، نظــر لوقوعها عند مدخــل مضيق الدردنيل ،

واستولى كذلك على جزر لسبوس Lesbos ، خيوس Chios ، ساموس Samos ، ايكاريا I Caria ، وورودس Rhodes [1] .

وقد شجعت هذه الانتصارات اليونان فى أوروبا ، فطلب يونان ادرنه Adrianople المساعدة العسكرية من فاتاتزيس الذى وجدها فرصة كبيرة لنقل فتوحاته ضد اللاتين الى أوروبا ، فلبى نداءهم ، وانتقل بقواته الى الساحل الاوروبى واستولى على العديد من المدن الساحلية ، واقتحمت القوات النيقية مدينة ادرنه التى تعتبر قاعدة فتوحات اللاتين فى أوروبا ، وقد خشى اللاتين من تقدم فاتاتزيس فى أوروبا ، فتوصلوا الى عقد هدنه معه فى عام ١٢٢٥ ، بمقتضاها اعترفوا لفاتاتزيس بملكية جميع فتوحاتهم فى آسيا الصغرى فيما عدا مدينة نيقوميديا التى بقيت فى يد اللاتين • وقد وافق فاتاتزيس على عقد هذه الهدنة مع اللاتين حتى يتفرغ لمواجهة خطر حاكم أبيروس اليونانى ثيودورانجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠) الذى استولى على سالونيك فى ١٢٢٤ وتوج بها امبراطورا ، وأطلق على نفسه لقب : Basileus and Autocrator of the Romaioi وأصبح بذلك منافسا خطيرا لفاتاتزيس فى الاستيلاء على القسطنطينية[2] .

ذلك أن ظهور قوات نيقية فى أوروبا واستيلائهم على مدينة ادرنة هدد نفوذ ثيودور ، الذى اندفع شرقا من سالونيك ليستولى على معظم اقليم تراقيا فى شمال بلاد اليونان ، ووصل حتى بوابات ادرنه ، وحث سكانها على طرد قوات فاتاتزيس ، ثم استولى عليها وواصل فتوحاته بتراقيا حتى

---

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, p. 29.
(2) Ostrogorsky : op. cit., pp. 433 — 435 ; Whitting : Byzantium. Oxford, 1981, p. 114.

وصل الى أسوار القسطنطينية فى ١٢٢٦ ، وبدا مـركز اللاتين يائسـا حـرجا[١] .

لكن تدخل البلغار فى الوقت المناسب ، أنقذ القسطنطينية من الوقوع فى يد ثيودور امبراطور سالونيك ، ولم يكن تدخل البلغار فى الواقع بدافع من حرصهم على مصلحة اللاتين ، ولكن تدخلهم كان دافعه الاساسى هـو الاحتفاظ بالقسطنطينية لانفسهم نظرا لاطماعهم فيها . وبنـاء على ذلك عقد ملك البلغار يوحنا آسن الثانى (١٢١٨ — ١٢٤١) معاهـدة سلام فى ١٢٢٠ ، ومع ثيودور انجيلوس ، الذى زوج شقيقه مانويل انجيلوس من ابنة يوحنا وتدعى ماريا Maria ، وقد توسط يوحنا بين ثيودور وامبراطور القسطنطينية روبرت أوفكورتناى (١٢٢١ — ١٢٢٨) ، ونجح فى أخـذ وعد من ثيودور بعدم مهاجمة اللاتين فى تراقيا . وقد تم عقد هـدنه بين الطرفين اليونانى واللاتينى فى ١٢٢٨ نصت على تبادل التجـارة وفتـح الحدود بينهما ، واستمر امتـلاك الـلاتين لثلاث مـدن فى تراقيـا هى Sergen, Pinarhisar and Vizya [٢] .

وقد قام امبراطور القسطنطينية روبرت أوفكورتناى بزيارة لروما ، وفى طريق عودته توفى فى بلاد اليونان فى ١٢٢٨ ، وبعد وفاته انتقل العرش لشقيقه الاصغر بلدوين الثانى (١٢٢٨ — ١٢٦١) الذى كان لا يزال طفلا صغيرا فى الحـادية عشر من عمـره ، وقد اختـار البـارونات النبيل

---

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople, Chapter I, p. 215.
(2) Wolff : op. cit., p. 215.

ليحكم كومى على بلدوين Narjot of Toucy • وعندما بلغ بلدوين السابعة عشر من عمـره تزوج من مارى دى برين ابنة حنا دى برين من زوجته برنجاريا Brengaria شقيقة الملك فرديناند الثالث حاكم قشتاله الاسبانى (١٢١٧ — ١٢٥٢) • وبعـد زواج بـلدوين الثانى من مارى فوض والدها فى تصريف شئون الحكم نيابة عنه[1] •

ولم يلبث ثيودور انجيلوس أن نقض تحـالفه مع يوحنا آسن ملك البلغار ، وتقدم لغزو بلغاريا ، فسار من ادرنه الى ماريتسا Maritsa وعند Klokotnitsa التقى بقوات آسن الذى تمكن من هزيمة ثيودور وأسره ، ثم اندفع آسن فاستولى على ادرنه وديموتيكا وكل غرب تراقيـا حتى تساليا ، والجزء الاكبر من البانيـا ، وشـحن معظم الحصـون فى امبراطوريته البلقانية الجديدة ، وقد عامل سكانها بعطف بالغ ، أما ثيودور فقد تم سمل عينيه ، وأسند آسن حكم سالونيك الى زوج ابنته وشـقيق ثيـودور فى نفـس الوقت مانويل (١٢٣٠ — ١٢٣٧) وقد أطلق يوحنا آسن على نفسه ، مثل سـلفه جوها نيتزا ، لقب قيصر البلغـار واليونان Tsar of Bulgarians and the Greeks.

وقد أراد يوحنا آسن تكوين بطريركية بلغارية مستقلة ، فاتجه صوب نيقية وفتح باب المفاوضات بينه وبين يوحنا فاتاتزيس ، وحول ولاء بعض الاسقفيات فى البلاد التى فتحها من البطريركية اللاتينية فى القسطنطينية

---

(1) Wolff : op. cit., p. 217.

الى بطريركية نيقية الارثوذكسية[1] ، ولا شك أن ذلك كان كسبا أدبيا كبيرا حصلت عليه امبراطورية نيقية •

وعلى الجانب السياسى أراد يوحنا آسن تكوين أئتلاف من القوات الارثوذكسية بهدف استرجاع القسطنطينية من يد اللاتين ، غير أن فاتاتزيس أجل البت فى هذا الامر حتى عام ١٢٣٥ ، وذلك بسبب فتح باب المحادثات بينه وبين بابا روما جريجورى التاسع •

وكان بطريرك نيقية هو الذى بدأ هذه المحادثات حين انتهز فرصة مرور خمسة من الرهبان الفرنسيسكان ، وأرسل معهم رسالة الى البابا جريجورى ، وعلى الفور أرسل البابا بعثة مكونة من اثنين من الرهبان الفرنسيسكان ، واثنين من الرهبان الدومينيكان الى نيقية لبحث مسألة انهاء الانقسام بين الكنيستين الغربية والشرقية ، وقد وصلوا الى نيقية فى عام ١٢٣٤ ، وتناقشوا طويلا حول السؤال الدائم عن (filioque) [٢] واستعمال الخبز غير المختمر فى رقائق الطقوس الدينية ، وقد استعلم فاتاتزيس عما اذا كان باستطاعة البابا اعادة حقوق بطريرك نيقية كبطريركا شرعيا للكنيسة اليونانية الشرقية الرئيسية ، اذا ما وعد بالطاعة للكنيسة

---

(1) Miller : The Empire of Nicaea and The Recovery of Constantinople, C.M. ed H. ed. Bury, Vol IV, p. 89.

(٢) معنى هذه الكلمة باللغة العربية (والابن) Filius = Son
que = and والمقصود هو السيد المسيح ، وهذه الكلمة كانت محل مناقشات دينية وخلاف بين الكنيستين الشرقية الارثوذكسية والغربية الكاثوليكية منذ امد طويل سابق لعصر فاتاتزيس .

الكبرى فى روما • وقد أجاب الاخوة الفرنسيسكان والدومينيكان بأن بطريرك نيقية سيجد تفاهما واضحا من جانب البابا[1] •

وقد دعاهم فاتاتزيس لحضور المجمع العام للكنائس الارثوذكسية ، ولكنهم رفضوا ذلك وأوضحوا أن تعليمات البابا أن تكون مهمتهم محددة ، ثم غادروا نيقية الى القسطنطينية بعد أن وعدوا فاتاتزيس بالعودة الى نيقية مرة أخرى ، وفى القسطنطينية وجدوا أن الحال بها مروعا ، وقد سجلوا ذلك فى تقرير جاء به :

« ان أرض القسطنطينية محرومة من كل حماية ، السيد الامبراطور هنا (حنا دى برين) فقيرا معدما ، وقد غادرها كل الفرسان المرتزقة ، وتتأهب للرحيل سفن البنادقة ، البيزيين الانكونيين ، وسائر الجنسيات الاخرى ، وقد رحل بعضهم بالفعل ، وحينما رأينا أن الارض قد هجرت ، توقعنا الخطر ، لانها محاطة بالاعداء من كل جانب • آسن ملك الوالاش يحيط بها من الشمال ، فاتاتزيس يحيط بها من الشرق والجنوب ، ومانويل من الغرب ، لذلك اقترحنا هدنة لمدة عام واحد بين امبراطور القسطنطينية وفاتاتزيس ، وأننا نفعل ذلك على مسئوليتنا ، وقد تشاورنا فى هذا الامر مع رجال الدين فى آياصوفيا ، ومع الامبراطور ، ونصحنا الجميع بفعل ذلك »[2] •

---

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople. p. 218..

(2) Rocaglia (M.) : Les Fréres Mineurs et l'eglise grecque Orthodoxe au XIIIe Siécle, 1231 — 1274, Biblioteca della terra Santa e dell' Oriente francescano, Ser. 4, Studi II Cairo, 1954, pp. 23 ff.

وبناء على ذلك عاد الاخوة الفرنسيسكان والدومينيكان الى نيقية ، وحضروا المجمع العام للكنائس الارثوذكسية فى Nymphaeum وقد نبه الاخوة الامبراطور فاتاتزيس الى ضرورة استعمال الخبز غير المختمر فى الطقوس الدينية ، ولكنه أكد من ناحية أخرى على ضرورة نبذ اللاتين (filioque) من العقيدة ، لهذا لم تسفر المفاوضات بين الطرفين عن شىء .

وحين وجد فاتاتزيس ذلك اتجه الى البلغار ، وعقد مع يوحنا آسن معاهدة زوج بمقتضاها ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس من هيلينا ابنة يوحنا آسن على النحو الذى سبق التعرض له ، وتعاون الإثنان فى حصار القسطنطينية . لكن البابا جريجورى التاسع تزعم حركة المقاومة ضد فاتاتزيس ، فتوسط لدى ملوك وامراء الغرب لارسال المساعدات العسكرية من أجل انقاذ القسطنطينية ، وبناء على ذلك أرسل كل من ملكى فرنسا وهنغاريا مساعدات عسكرية ، وكذلك تعاون جيوفرى فيلها ردوين الثانى (١٢٢٨ — ١٢٤٦) أمير آخيا Achaea فى بلاد المورة ، مع امبراطور القسطنطينية فى مواجهة ذلك الخطر ، وجاءت مساعدات بحرية من كل من جنوا وبيزا والبندقية ، ومن دوق الارخبيل Angelo Sanued وقد أرسل البابا جريجرى التاسع رسالة الى فاتاتزيس يخيره فيها بين أن يستسلم لحنادىبرين ، أو أن يقاسى الدمار على يد جيوش غربية جديدة . فرد عليه فاتاتزيس فى أسلوب لا يخلو من السخرية قائلا :

« لن أتنازل أبدا عن هجومى على لصوص وقتلة ، احتلوا مدينة أعتبر أنا حاكمها الشرعى ، أن الامبراطور الحقيقى يحكم شعبا ، ولا يحكم

فقط أخشابا وحجارة صنعت منها الاستحكامات »[1] .

وفى عام ١٢٤١ توفى البابا جريجورى التاسع ، وخلفه البابا اينوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) الذى لم يقل قوة وحزما عن سلفه ، والذى سار على نفس سياسته تجاه اليونان . وقد توفى فى نفس العام ملك بلغاريا يوحنا آسن الثانى ، وخلفه ابنه الصغير كولومان الاول Coloman I (١٢٤١ — ١٢٤٦) ولم يلبث أن توفى فى عام ١٢٤٦ ولم يتعد عمره الثانية عشر عاما ، وقد خلفه أخاه الصغير غير الشقيق ميخائيل (١٢٤٦ — ١٢٥٦). وقد شجعت هذه الاحداث التى مرت بها دولة البلغار ، يوحنا فاتاتزيس للتدخل فى شئون البلقان ، ومحاولة اكتساب حدود اقليمية جديدة غير تلك التى كانت أيام يوحنا آسن . وقد انتقل فاتاتزيس الى الاراضى البلقانية فى عام ١٢٤٦ ، واجتاح تراقيا Thrace حتى وصل الى نهر ماريقا Marica ، وفى مقدونيا وصل حتى نهـر الفـردار Vardar وبذلك وسع ممتلكاته على حساب البلغار ، ثم اتجه الى سالونيك ، ودخلها دون مقاومة تذكر فى ديسمبر ١٢٤٦ ، وأخذ امبراطورها اليونانى ديمتريوس انجيلوس (١٢٤٤ — ١٢٤٦) — الذى كان يحـكمها مـع والده الضرير ثيودور انجيلوس ، بعد أن أطلق البلغار سراحه — أسيرا الى نيقية . وهكذا حطم فاتاتزيس قوة منافسه حاكم سالونيك ، وضمها لممتلكاته وعين لحكمها أحد رجاله وهو أندرونيكوس باليولوجوس Andronicus Poleologus

(1) Grumel (V.) : L'Authenticité de la lettre de Jean Vatatzes, empereur de Nicée, au Pape gregoire 1 X, Echos D'Orient, XXIX, 1930, p. 450.

الذى خول له فاتانزيس حكم جميع ممتلكات امبراطورية نيقية فى الجانب الاوروبى[1] .

وقد قام أحد أبناء ميخائيل الاول انجيلوس ، وهو ميخائيل الثانى ، واستقل بابيروس عن سالونيك ، وضم اليها تساليا Thessally وكون منهما امارة خاصة به . وقد عقد معه فاتانزيس فى عام ١٢٤٩ معاهدة صداقة وزوج ابنتــه ماريا Maria الى ابن ميخــائل ووريثــه نقفــور[2] .

وبذلك أثبت فاتانزيس انه المطالب الوحيد بعرش القسطنطينية ، بعد أن دمر منافسه اليونانى امبراطور سالونيك ، وبعد أن انهارت امبراطورية البلغار بعد وفاة يوحنا آسن الثانى .

وهكذا وبينما فاتانزيس يناضل نضالا عنيفا ويجاهد جهادا حارا من أجل استرداد العاصمة الام من يد اللاتين وحلفاءهم فى الغرب الاوروبى من جهة وبابوات روما واحدا تلو الاخر من أجل الاعتراف بشرعية بطريرك نيقية على أنه البطريرك الرئيسى للكنائس الارثوذكسية فى الشرق من جهة أخرى ، اذا به يجد تعاطفا وتأييد المطالبة السياسية والدينية على حد سواء، من أكبر ملوك الغــرب الاوروبى فى ذلك الوقت ، وهــو فــردريك الثانى هوهنستاوفن . أما هذا التعاطف ، وهذا التأييد لليونان ، فكان وراءه دوافع عديدة وجدت لدى فردريك الثانى سيتم شرحها فى السطور التالية .

---

(1) Miller : The Empire of Nicaea, p. 493.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 439 — 440.
(2) Miller : The Empire of Nicaea, p. 494.
Ostrogorsky : op. cit., p. 440.

فردريك الثانى هو ابن هنرى السادس ملك ألمـانيا ، وكونستانس صاحبة صقلية ، وحفيد كل من فردريك الاول بربروسا وروجر الثانى ملك صقلية ، لذلك فقد جمع الوالدان فى ابنهما أسمى والديهما معا ، فأطلقوا عليه اسم فردريك روجر Frederick Roger ، أما معـاصروه فقد أطلقوا عليه اسم Stupor Mundi أى أعجوبة الدنيا .

ولد فردريك فى المدينة الصغيرة عيسى Jesi فى ماركية انكونا فى صقلية ، وذلك فى ٢٦ ديسمبر ١١٩٤ ، وعندما بلغ الثالثة من عمره توفى والده هنرى السـادس فى ريعان الشـباب فى ٢٨ ديسمبر ١١٩٧ ، وأعلن فردريك ملكا على ألمانيا وصقلية فى نفس العـام ، تحت وصـاية والدته كونستانس . ولما كانت ألمـانيا تعج بالصراعات السياسية العنيفة ، لذلك فقد فضلت والدته الابتعاد بابنها عن هذه الصراعات وعاشت معه فى موطنها الاصلى فى صقلية .

على أن والدته لم تلبث هى الاخرى أن توفيت فى عام ١١٩٨ ، وكانت قد طلبت أن يكون البابا اينوسنت الثالث وصيا على ابنها الصغير ، وقـد شارك البـابا فى الوصـاية مسـتشارى هنرى السـادس من الالمـان والصقليين (١) .

وهكذا قضى فردريك الثانى سنوات طفولته وصباه تحت سماء صقلية فى بالرمو ، حيث كان يعيش اليونان ، فالمسلمين ثم النورمان ، وكان لذلك

---

(1) Michelangelo Schipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C. Med. H. Vol VI, ed.Bury, Cambridge, 1968, p. 131.

أثره الكبير فى تكوين شخصية فردريك ، فقد اتقن اللغات اليونانية ، العربية ، والايطالية ، أما الالمانية فكان أقل اتقانا لها ، وقد نهل فردريك من ثقافة اليونان والمسلمين ، وكان شغوفا بالدراسات الفلسفية والرياضيات.

كان فردريك يعتبر واحدا من أذكى رجال عصره ، وكان متفقهـا فى العلوم ، الفلسفة ، فقه اللغة ، الفلك ، الهندسة ، الجبر ، الطب ، والتاريخ الطبيعى . وقد ألف كتابا يعتبر أصلا من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا ، وهذا الكتاب يسمى (فن الصيد بالصقور) أو البزدرة[1] .

De Arte Venandi Cum Avibus

وهذا الكتاب عبارة عن بحث قائم على أساس الملاحظات والمعلومات المستقاة من المصادر السابقة لعصره ، وقد ظل فردريك يدون ملاحظاته فى هذا الكتاب على مدى ثلاثين عاما . وهذا البحث ينقسم الى ستة فصول ، ويبحث فى تدريب الطيور وترويض الصقور من أجل الصيد ، وقد استخدم فردريك كمراجع العديد من كتب الحيوان والاحياء التى كانت معروفة فى عصره ، وخاصة كتب أريسطو والعالم العربى ابن سينا ، اللذين ترجم معظم أعمالهما ميخائيل سكوت Mtchaclscotus بناء على طلب فردريك . وقد أتم فردريك هذا الكتاب فى عام ١٢٤٨ ، ويقال أن النسخة الاصلية التى دونها فردريك فقدت فى احدى المعارك التى دارت بالقرب من بارما Parma ، لكن مانفريد ابن فردريك قام بتدوينه من جديد

---

(١) البزدرة هى فن تدريب البزاة (الصقور) اى الصيد بالاستعانةبالبزاة.

مع عدة تنقيحات ، وهذا الكتاب الاخير هو المصـــدر الاســاسى لجميــع الطبعات المنشورة لهذا الكتاب[١] .

وقد اعتبر فردريك نفسه ايطاليا ، رغم أنه فى واقع الأمر ينتمى الى عائلة الهوهنستاوفن[٢] Hohenstaufen الالمانية ، وقد أصبح بلاط فردريك فى بالرمو موئلا للعلماء والادباء من جميع الجنسيات والعناصر ، وأنشأ فردريك جامعة نابلى ، وتعهد بالرعاية مدرسة الطب فى ســالرنو ، وهى المدرسة التى حازت شهرة عريضة فى العصور الوسطى ، وفى كلمــة موجزة،فان فردريك الثانى فاق معاصريه فى تفكيره وعقليته ونظرته للامور، وخاصة الدينية منها على النحو الذى يتضح خلال عرضنا التالى للاحداث. ولم يكن معاصريه ليفهموه ، ويمكن اعتبار عصره فى القــرن الثالث عشر الميلادى تمهيدا لحركة النهضة الايطالية ، والمؤرخ الفرنسى Huillard — وهو من مؤرخى القرن التاسع عشر الميلادى — كتب يقول أن فردريك

---

(1) Wood & Fyfe, Transla. anded., The Art of Falconry (1963).

(٢) الهوهنستاوفن أسرة المانية حكمت الامبراطورية الرومانية المقدســة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ويعتبر حكمها اعظم الفترات فى تاريخ المانيا العصور الوسطى ، واتخذ الاسم نسبة الى احدى قلاعهم المسماة ستاوفن Staufen فى اقليم سوابيا . والهوهنستاوفن يرجع اصلهم الى الكونتات الذين حكموا قلعة Weiblingen فى ســوابيا وأطلــق عليهم الايطاليون اسم Ghibellines ، وهذا الاسم أصبح اسم حزب ظهر فى ايطاليا عند نهاية القرن الثانى عشر وخلال القرن الثالث عشر ، وكان يتلقى المساعدة من الامبراطور فردريك الثانى واصبح معروفا بمناصرته للسياسة الامبراطــورية ضد الحزب المناصر للسياسة البابوية وهو حزب الجلف Guelphs راجع :
Buchler J : Die Hohenstaufen (1925).
Hyde : Society and Politics in Medieval Italy (1973).

الثانى « أعطى الدفعة القوية لحركة النهضة التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة »[١] .

وقال المؤرخ الايطالى Amari عن فردريك الثانى انه كان «رجلا ذا ابداع وعبقرية جسورة »[٢] . أما المؤرخ الالمانى Kantarowiez ، فان تقييمه لفردريك الثانى يتلخص فى العبارة التالية : « فى شموليته كان عبقرى نهضة حقيقى يجلس على عرش امبراطورى ، وفى نفس الوقت فانه كان امبراطورا ذا عبقرية فذة »[٣] .

وهكذا سيظل الموضوع الشيق بالنسبة للمؤرخين الباحثين فى حياة هذا الامبراطور ، انه كان — وبكل الاحترام — لغزا لم يحل حتى الان .

أما عن نشاطه السياسى سواء فى ألمانيا أو فى صقلية فهذا هو الموضوع الشائك ، نظرا للمتاعب السياسية الكثيرة التى أثارها أمامه خصومه سواء فى ألمانيا أو فى ايطاليا ، ومما زاد الامور تعقيدا تأييد البابوية لخصومه هؤلاء فى محاولات مستميتة من جانبها لسحقه والقضاء عليه ، وقام البابوات بتوقيع قرار الحرمان عليه المرة تلو الاخرى حتى مات فى ١٢٥٠ وهو ملعونا من البابوية ومقطوعا من الكنيسة .

---

(1) Huillard B. : Introduction à l'histoire diplomatique de l'empereur Fredric II, Paris, DL VII, p. 567.

(2) Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia, 1937, p. 628.

(3) Kantarowicz E. . Frederick the Second, English transl., London, 1931, p. 613.

والواقع أن العلاقات بين فردريك الثانى والبابوية - برغم مرارتها - الا أنها من الموضوعات الشائقة الممتعة ، التى تظهر لنا كيف جرؤ هـذا الامبراطور بمبادئه وأفكاره المتحررة ، وهو الذى بدأ حياته متحالفا مـع البابوية وتحت وصايتها ، والذى كانت البابوية ترى فيه الحليف والسند فى تحقيق أهدافها ومخططاتها الدينية والسياسية معا ، كيف جرؤ بعد ذلك على مناهضة البابوية واختصها بكراهيته والتشنيع على البابا الى حـد نعته بالدجال ، فى عصر كان فيه للبابا كل التبجيل والاحترام بصفته خليفة القديس بطرس الذى بيده مفاتيح الجنة والنار ، ولا يغيب على أحد من الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى المكانة السامية التى تبوأها البابا فى تلك العصـــور •

ونظرا للتاريخ السياسى الحافل للامبراطور فـردريك الثانى ممـا لا يتسع المجال هنا لعرضه بالتفصيل ، لذا تتم الاشارة السريعة لهـــذا الموضوع ، مع التركيز بصفة خاصة على علاقاته بالبابوية نظرا لمـا ترتب عليها من نتائج أدت الى التقارب بينه وبين امبراطـور اليـونان يوحنا فاتاتزيس •

لقد استمرت وصاية البابا اينوسنت الثالث على فردريك الثانى كما سبق أن أشرت ، وفى عام ١٢١٢ وقع البابا اينوسنت قرار الحـرمان على أوتو الرابع أوف برنسويك Otto IV of Brunswick ، الذى اغتصب العرش فى ألمانيا مستغلا وجود فردريك الثانى فى ايطاليا ، وقد بدأ البابا اينوسنت بارسال فردريك الثانى الى ألمانيا للمطالبة بالعرش ، وسرعان

ما انتخب فردريك ملكا على ألمانيا ، وهزم أوتو عند Bouvines في ١٢١٤ رغم تحالف أوتو مع فيليب الثانى ملك فرنسا ، ولكي تحكم البابوية قبضتها على فردريك أجبرته بعد انتصاره على خصومه أن يتنازل عن سلطاته للنبلاء ورجال الدين .

وفى سنة ١٢١٥ توج البابا فردريك الثانى ملكا على الرومان فى كنيسة اكس لا شابل Aix - La - Chapelle ، وبما أن فردريك الثانى ظهر حتى ذلك الوقت كحليفا مطيعا للبابوية ، بالاضافة للوعد الذى قطعه لها بالقيام بحملة صليبية من أجل استرداد بيت المقدس من يد المسلمين ، لذا فقد تم تتويجه امبراطورا فى عام ١٢٢٠ كما توج ابنه الاكبر هنرى ملكا على ألمانيا ، رغم أنه كان آنذاك فى التاسعة من عمره[1] .

ولم تلبث نوايا فردريك الثانى أن بدأت تتضح أمام ناظرى البابا ، ذلك أنه هدف الى ادماج ايطاليا وصقلية فى مملكة متحدة داخل امبراطوريته، وكان ذلك بلا شك ضد مصلحة البابوية وعصبة المدن اللومباردية The lombard League [2] .

---

(1) Michelangelo Schipa; op. cit., p. 132.

(٢) يطلق هذا التعبير على الاتحاد الذى قام بين المدن والقومونات فى شمال ايطاليا ، وقد تالف هذا الاتحاد للمرة الاولى فى عام ١١٦٤ لمقاومة السياسة الامبراطورية للامبراطور الالمانى فردريك الاول بربروسا . وكان هذا الحلف تحت زعامة مدينة ميلان ، وايده البابا الكسندر الثالث . وقد تجدد هذا الحلف فى عام ١٢٢٦ لمقاومة نفوذ الامبراطور فردريك الثانى حينما بدا هذا الامبراطور يتدخل فى شئون شمال ايطاليا . وبرغم الهزائم التى أنزلها بها فردريك الثانى الا أن هذه العصبة ظلت اقوى القوى المعادية للامبراطور والمؤيدة لسياسة البابوية . وحينما مات الامبراطور فردريك الثانى فى ١٢٥٠ استقلت هذه المدن ، ولم يلبث الصراع الداخلى أن قام بينها وقضى عليها . انظر :

Waley D. : The Italian City Republics, 1969.

بعد نهضتها وازدياد قوتها ، لذا فقد عملا معا لافساد ذلك المشروع •
فما كان من فردريك الا أن أجل رحيله الى الاراضى المقـدسة فى حمـلة صليبية ، واتجه الى صقلية ، حيث قضى على ثورة اقطاعية وأسس حكومة مركزية على أساس بيروقراطى ، وفى ١٢٣١ أصدر فردريك ما عرف باسم تشريعات ملفى Constitutiones of Melfi

وكان الدافع له لاصدار هذه التشريعات هو اخضاع مملكته لقانون موحد يقضى على الاضطراب المتفشى فيها ، بعد أن (علا الصدأ القانون القديم لطول اهماله) على حد تعبير فردريك نفسه •

وقد جمع الامبراطور لجنة للقيام بهذا العمل كان أبرز أفرادها هـو Giacomo وهو رئيس أساقفة كابوا ، وكذلك Peter della Vigna الذى يعود اليه الفضل الاكبر فى انجاز هذا العمل • وقد انتهت اللجنة من عملها بعد شهرين فقط ، وأطلق على هذه القوانين اسم كتاب الامبراطور العظيم Liber Augustalis أو قانون الامبراطور العظيم Lex Augustalis واذ يعت هذه القوانين فى احتفال كنسى فى مدينة ملـفى ومن ثمة عـرفت باسم تشريعات ملفى ، وأصبح يعمل بها ابتداء من أول سبتمبر ١٢٣١ • وقد ترجمت على الفور الى اللغة اليونانية ، التى كانت لا تزال سائدة فى صقلية • وتنقسم هذه التشريعات الى ثلاثة مجموعات ، المجموعة الاولى عن القانون العام ، المجموعة الثانية عن الاجراءات القانونية التى تتبـع فى المحاكم ، والمجموعة الثالثة عن الاقطاع والعسكرية والعقوبات • ثم أضيفت الى هذه التشريعات واحد وستين تشريعا جـديدا عرفت باسم

Constitutiones Novellae وهى القـوانين المستحـدثة التى اقتضت الظروف اصدارها من وقت لآخر[١] • وقد جعلت هذه التشريعات صقلية الدولة الاكثر تقدما فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى •

وهكذا تغيرت العلاقات بين فردريك الثانى وبين البابوية ، فقد أثبتت سياسة الامبراطور فى ادماج صقلية وايطاليا وأحكام قبضته عليهما بمـا أصدره من تشريعات ، أن آمال البابا اينوسنت الثالث فى السيطـرة على فردريك واستغلاله لتحقيق مصالح البابوية ، كانت غـير واقعيـة ، وأن (الولاية) البابوية التى مركزها روما ، أصبحت محاطه بممتلكات امبراطور قوى ، لذلك ففى عام ١٢٢٥ شجعت البابوية عناصر الجلف Guelph [٢] فى المدن الايطالية للثورة ضد فردريك الثانى ، بينما أخذت فى الضغط عليه من أجل تحقيق وعده بالقيام بالحملة الصليبية • وبمجرد أن اعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) وبالرغم من أنه كان طاعنا فى السن الا أنه صمم منذ الوهلة الاولى على تصعيد الموقف مع فردريك الى أشده • وفى ١٢٢٨ وقع عليه قرار الحرمان ، ومنح الشرعية للثورات

---

(1) Michoelangelo Schipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C. Med. H., Vol VI, p. 148.

(٢) الجلف هو حزب سياسى ايطالى ، وقد خلف هذا الحزب حزب الولف Welf الالمانى الذى كان يعارض سياسة عائلة الهوهنستاوفن المعادية له فى المانيا . وكانت مهمة حزب الجلف هو مساعدة الاحزاب المعارضة لسياسة فردريك بربروسا ثم فردريك الثانى فى ايطاليا ، وقد تحالف الجلف مع البابوية . وبعد وفاة فردريك الثانى فى ١٢٥٠ فقد الحزب مغزاه الاصلى ، ومع ذلك استمر، ثم انقسم الى احزاب عديدة ، واختفى عند بداية القرن الخامس عشر الميلادى . انظـر :

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy, 1973.

التى تقوم ضده فى ايطاليا ، حيث أعيد احياء الحلف اللومباردى ، لذلك فقد قرر فردريك القيام بحملته الصليبية ، وفى ٢٨ يونيو ١٢٢٨ خرج من ميناء برنديزى فى ايطاليا فى طريقه الى الشرق ، وعن طريق المفاوضات نجح فردريك فى أن يتسلم مدينة بيت المقدس سلميا ، ودخل اليها فى يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتوج نفسه بيده فى كنيسة القيامة بها[١] .

وأثناء غياب فردريك فى حملته الصليبية،أعاد البابا جريجورى التاسع توقيع قرار الحرمان على الامبراطور كما أشاع بأنه قد توفى ، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، مما أشاع الفوضى فى مملكة فردريك ، الذى ما أن عاد الى الغرب فى ١٠ يونيو ١٢٢٩ حتى أقر الامور بها وسحق الثورات التى قامت ضده فى ايطاليا بتحريض من البابا الذى رفض فى البداية ، الاعتراف بما حققه فردريك من مكاسب واسترداده لبيت المقدس

---

(١) عن كل ما يتعلق بحملة فردريك الثانى على الاراضى المقدسة التى عرفت باسم الحملة الصليبية السادسة ، راجع :

العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، حوادث سنة ٦٢٤ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار ايوب ، الجز الثانى ، ورقة ٢٢٦ ب ، وورقة ٢٥٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، حوادث ٦٢٣ سنة هـ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، الجزء الاول ، ص ص ٢١٥ — ٢٣٠ .

سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى فى الشرق العربى ، بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادى عشر ، سنة١٩٦٣

Grousset : Histoire des Croissades, Paris, 1946, Vol III, pp. 280 — 320.

Runciman : A History of the Crusades, Cambridge, 1957, Vol III, pp. 177, 191.

Kantorowicz : Frederick The Second, London, 1931, pp. 139 — 199.

ليد المسيحيين من جديد • على أن البابا لم يستطع الاستمرار فى تجاهل هذه المكاسب التى حققها فردريك ، وفى معاهدة سان جرمانو San Germano فى ٢٣ يوليو ١٢٣٠ ، أعترف بما أنجزه فردريك ورفع عنه قرار الحرمان[1] •

أما فى ألمانيا فقد ثار عليه ابنه هنرى فى عام ١٢٣٣ ، ولكن فردريك ذهب الى ألمانيا حيث قضى على الثورة ، وعزل هنرى فى ١٢٣٤ ، وأودعه السجن مدى الحياة ، وعين بدلا منه ابنه الثانى كونراد الرابع ملكا على ألمانيا ، وثبت النفوذ الامبراطورى على الامراء هناك ، وعاد فردريك الى شمال ايطاليا حيث هزم العصبة اللمباردية عند كورتنوفا Cortenouva فى ١٢٣٧ ، وفى ١٢٣٨ ظهر أن قوة الامبراطور قد اشتدت وتوطدت تماما ، وعين ابنه Enzo ملكا على ساردينيا Sardiina • وواقعيا أصبح الحاكم لكل ايطاليا[2] •

وقد أزعج نمو سلطة فردريك الثانى على هذا النحو البابا جريجورى التاسع ، الذى خشى على استقلال البابوية وممتلكاتها ، فما كان من البابا جريجورى التاسع الا أن أوقع قرار الحرمان على الامبراطور فردريك الثانى فى ٢٠ مارس ١٢٣٩ •

وقد أعاد ذلك فتح باب العداء بين الطرفين من جديد ، وزاد من شدة هذا العداء ايمان فردريك ايمانا عميقا بفكرة سيادة الامبراطور على العالم

---

(1) Michelangelo Schipa ; Italy and Sicily Under Frederick II, p. 147.
(2) Michelangelo Schipa : op. cit., p. 154.

كله بتفويض من الله ، كشيئا مطلقا ومسلما به ، وهذه الفكرة تتعارض تعارضا صارخا مع فكرة سيادة البابوية على العالم وسمو سلطة البابا على سلطة الملوك .

وقد كان نضال البابوات ضد فردريك نضالا عنيفا ، وقد وضع البابوات خلال هذا النضال الغرض الدينى جانبا ، وكانوا ينتقمون لانفسهم من أعدائهم الشخصيين « هؤلاء ذرية الافاعى من الهوهنستاوفن » الذين كان البابوات مصرين على ابادتهم[1] .

وقد اعتمد فردريك فى حربه ضد البابوية على مذهب التقشف عند طائفة الفرنسيسكان لمحاربة دعاوى البابوات الدنيوية ، وكتب فى سنة ١٢٢٧ يقول : « ان الكنيسة المسيحية الاولى قامت على الفقر والبساطة فى تلك الايام التى كانت فيها أما رؤوما لجميع المسيحيين وليس لاحد أن يشرع للناس قواعد غير تلك التى شرعها السيد المسيح »[٢] .

وهكذا فان عداء فردريك الثانى للبابوية اتسع ليشمل كل من يتلقى مساعدة من البابوات ، مثل الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، التى رأت فيها البابوية وسيلة للاتحاد بين الكنائس الغربية والشرقية ، كما أن عداء فردريك للبابوية أيضا قاده للتقرب من اليونان الاعداء الالداء للبابوية وللامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وجعله يتعاطف معهم

---

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol II, p. 527.

(٢) فيشر : اوروبا العصور الوسطى ، جا ، ص ٢٥٣ .

ويتفهم قضيتهم ويؤيدهم ويشد أزرهم من أجل استعادة حقهم المسلوب واسترداد عاصمتهم القسطنطينية من يد اللاتين .

وقد انعكست أراء فردريك الثانى على علاقاته مع اليـونان ، وعبر عنها بوضوح فى رسائله اليهم التى نشرها العالم الايطالى Festa باليونانية واللاتينية فى مجلة الارشيف التاريخى الايطالى ، العدد الثالث عشر لسنة ١٨٩٤[١] .

وقد حدث تقارب بين فردريك الثانى وأمير أبيروس اليـونانى ثم امبراطور سالونيك ثيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠) وأرسـل اليـه فردريك مساعدات مالية ، وكتب اليه يقول : « نحن نرغب فى الدفاع ليس فقط عن حقنا ، ولكن أيضا عن حقوق أصدقاءنا وجيراننا الاعزاء ، الذين يحبون المسيح بنقاء واخلاص ، ويتحدون معنا ، وبصفة خاصة اليونان ، أصدقاؤنا الحميمين ، .... ان البابا يدعى أنه الاكثر تقوى ،وان اليونان هم الاكثر اثما وهرطقة »[٢] .

وردا على العلاقات الودية التى قامت بين فردريك الثانى وثيودور انجيلوس ، أوقع البابا جريجورى التاسع قرار الحـرمان واللعنـة على كلا منهما[٣] .

---

(1) Festa N. : "Le lettre greche di Federigo II", Archivio Storico italiano, XIII, 1894.
(2) Festa : op. cit., pp. 15 — 16.
(3) Vasiliev : op. cit., Vol II, p. 528.

ولما كان فردريك يتعاطف مع اليونان ، ويؤيد قضيتهم ضد الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وضد البابوية ، لذا لم يكن غريبا أن تقوم العلاقات الودية بينه وبين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتزيس ، فراسله هو الآخر ، وأعلن فردريك فى احدى رسائله الى فاتاتزيس انه لا يتحرك بدافع من شعوره الشخصى لفاتاتزيس فقط ، ولكن كذلك بواسطة حماسه العام من أجل مساعدة مبادىء السلطة الدينية . كما كتب لفاتاتزيس يقول : « نحن جميعا ، ملوك وأمراء الارض ، وبصفة خاصة المتحمسين للارثوذكسية ، ديانة وعقيدة ، نؤيد الخصومة مع الاساقفة ، والمقاومة الروحية لزعماء الكنيسة » .

وهتف فردريك فى خطاب آخر لفاتاتزيس :

« آسيا ، أيتها السعيدة ، أيتها القوى المغتبطة فى الشرق ، انهم لا يخشون أسلحة رعاياهم ، ولا يهابون الاصطدام مع البابوات » .

كتب كذلك فردريك محرضا فاتاتزيس ضد البابا قائلا :

« لماذا هذا الذى يدعى البابا يقطع سموك من الكنيسة كل يوم ، بالاسم ، وفى حضور كل الرجال من رعاياك الرومان ؟ وبوقاحة ، يطلق اسم الهراطقة على الارثوذكس الرومان ، الذين عن طريقهم وصلت الديانة المسيحية الى أقصى حدود المعمورة »(1) .

---

(1) Festa : op. cit., p. 22.

وقد كانت أسباب عداء كل من فــردريك الثــانى ويوحنا فاتاتزيس للبابوية مختلفا ، ذلك ان فردريك تمنى أن ينبذ البابوات ادعاءاتهم للسلطة الدنيوية ، على حين تمنى فاتاتزيس أن تعترف البابوية بالكنيسة الشرقية القائمة بالفعل فى عاصمته نيقية على أنها الكنيسة الرئيسية لليونان ، وبذلك تفقد البطريركية اللاتينية بالقسطنطينية أسباب بقائها ومساندة البابوية لها ، وحينئذ يصبح الامل كبيرا لدى فاتاتزيس فى أن تختفى الامبراطورية اللاتينية ويعود اليونان الى عاصمتهم القسطنطينية •

كذلك فان نظرة البابا تجاه كل من فردريك الثانى وفاتاتزيس كانت مختلفة ، فقد نظر البابا لفردريك علىأنه ابن غير مطيع للكنيسة الكاثوليكية، اعتدى على (نائب المسيح) ، وخليفة القديس بطــرس • أما بالنســبة لفاتاتزيس فانه كان فى نظر البابا منشقا وهرطيقا ، عرقل تحقيق أعز حلم للبابوية وهو اعادة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية •

وهكذا قربت هذه الظروف السياسية وعداء كل من الطرفين للبابا ، بين الامبراطورين فاتاتزيس وفردريك الثانى ، وقد أرادا توثيق صلتهما عن طريق عقدزواج تحالف بين فاتاتزيس وكونستانس ابنةفردريك الثانى• أما تفاصيل هذا الزواج فيتم شرحها فى الفصل التالى من هذا البحث •

الفصل الثالث

زواج التحالف

بين يوحنا فاتاتزيس وكونستانس هوهنستاوفن

ـ إتفاقية التحالف بين فاتاتزيس وفردريك الثانى ٠

ـ زواج فاتاتزيس وكونستانس ٠

ـ النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ٠

ـ الظروف والأحداث التى مرت بكونستانس حتى وفاتها ٠



استعرضنا فى الفصل السابق الظروف السياسية لكل من يوحنا فاتاتزيس وفردريك الثانى ، وعداء كل منهما للبابا ، وقد ساعدت ظروف أخرى معينة كل من الطرفين على توثيق صلتهما ، والارتباط معا برابطة المصاهرة •

ذلك أن زوجة فاتاتزيس الاولى ايرين لاسكاريس ، توفيت فى ١٢٤١، وبعد وفاتها أصبح الامبراطور يعانى من الوحدة ، وأشار المؤرخ البيزنطى جريجوراس الى ذلك بقوله : « ان الامبراطور لم يعد قادرا على أن يتحمل وحدته »[1] ، لذلك تم الاتفاق بين الطرفين على عقد زواج تحالف بين الامبراطور اليونانى يوحنا فاتاتزيس وكونستانس هوهنستاوفن ، وقدسبق هذا الزواج عقد اتفاقية بين فاتاتزيس وفردريك الثانى فى ١٢٤٤ نصت على ما يأتى :[2]

١ ـ تعهد فردريك لفاتاتزيس بأن يتعاون معه فى تحرير القسطنطينية من يد اللاتين واعادتها لامبراطورها الشرعى •

٢ ـ تعهد فاتاتزيس فى حالة تحقيق فردريك الثانى لوعده باسترداد القسطنطينية أن يصبح فصلا Vassal للامبراطور فردريك الثانى•

٣ ـ تعهد فاتاتزيس للامبراطور فردريك بأن يعيد اتحاد الكنيستين

---

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, II, p. 45.

(٢) بخصوص نصوص الاتفاقية راجع :
Vasiliev : op. cit., Vol II, p. 528.
Nicol : op. cit., Chapter III, p. 316.
Diehl : op. cit., p. 209.

الشرقية والغربية ، اذا قدر له استعادة القسطنطينية عن طريق مساعدة فردريك الثانى له •

فيما يتعلق بالنص الاول فى هذه الاتفاقية الخاص بوعد فردريك الثانى لفاتاتزيس بالعمل على تحرير القسطنطينية من يد اللاتين ، فقد سبقت الاشارة الى أن عداء فردريك الثانى للبابوية اتسع ليشمل كل من يتعاطف معهم البابا ، وكان الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية أحد هؤلاء الذين يتمتعون بعطف البابا ورعايته • كذلك فان الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية كانت أحد مصادر قوة البابوية ونفوذها ، وكم تمنى فردريك أن تفقد البابوية قوتها ونفوذها • يضاف لذلك أن أحد أهداف فردريك الثانى كان اكتساب نفوذا وامتيازات فى القسطنطينية ذاتها اذا ما ساعد اليونان على استعادتها بالفعل •

أما فيما يتعلق بالنص الثانى فى الاتفاقية الخاص بأن يصبح الامبراطور البيزنطى فصلا (تابعا) للامبراطور فردريك الثانى • فالمرجح أن فاتاتزيس قبل التعهد به حتى يكسب عطف فردريك ومساعدته العسكرية له • ومما لا شك فيه أنه اذا كان قد قدر لفاتاتزيس أن يستعيد القسطنطينية بالفعل، حتى عن طريق المساعدة العسكرية من جانب فردريك الثانى ، لكان أول شىء فعله هو خلع الولاء والتحلل من هذا النص ، لانه لم يحدث من قبل أن قبل امبراطور بيزنطى أن يصبح تابعا لامبراطور غربى • اذ المعروف أن نظرة الامبراطور البيزنطى للملوك وأباطرة الغرب الاوروبى وخاصة لاباطرة الالمان ، كانت نظرة تعالى واحتقار لهؤلاء الاباطرة (المحدثين)

الذين لم يحصلوا على لقب الامبراطور الا سنة ٨٠٠ ميـلادية بتتويـج شارلمان امبراطورا • أما الامبراطور البيزنطى فهو وريث الاباطرة الرومان العظماء •

وان كان نفس هذا النص فى صالح فردريك الثانى ، فكون الامبراطور الشرقى يصبح تابعا له ، فان ذلك كان مما يعزز مركزه أمام البابوية وباقى ملوك الغرب الاوروبى خاصة وأنه حدث لم يسبق لاحد من ملوك الغرب أن حققه •

أما فيما يتعلق بالنص الثالث فى تلك الاتفاقية ، وهو الخاص باعادة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، فهذا فى الواقع محل دهشة ، لانه لم يعرف عن فردريك الثانى اهتمامه بالامور الدينية ، كما أن العـداء الذى اشتعل بينه وبين البابوية كان مما لا يسمح له بالعمل على توطيد نفوذها عن طريق اعادة اتحاد الكنيستين ، وتحقيق هذا الحلم الذى سعت اليـه البابوية طويلا • فهل يعقل أن فردريك الثانى هوهنستاوفن يهتم فجـأة بتعزيز مركز البابوية ويعمل على اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ؟

الامر فى الغالب ، ليس أكثر من مناورة سياسية من جانب فردريك الثانى قصد من ورائها خدمة مصالحه السياسية ، وليس مصالح البابوية الدينية ، لانه سيثبت للبابوية وبشكل عملى قـدرة (الامبراطـور) على تحقيـق ما عجزت (البابوية) عن تحقيقه ، فها هو حلمها الاعظم يتحقق على يديه ، أو بمعنى آخر يحققه هو لها ، وبذلك يثبت لها مقدرته وكفاءته ، ويضع نفسه فى المركز الاعلى ، وهى فى المـركز الادنى ، وبذلك يبرهن للبابوية عمليا ،

أن السلطة الدنيوية الممثلة فى الامبراطور ، أسمى وأعظم من السلطة الدينية الممثلة فى البابا ، لان الاولى استطاعت أن تحقق للثانية حلمها الاعظم الذى عجزت عن تحقيقه قرون طويلة •

وهكذا يتضح أن هذا النص الخاص باتحاد الكنيستين والذى يبدو للوهلة الاولى هدفا دينيا بحتا قصد به خدمة البابوية وتحقيق حلمها ، ما هو فى الواقع الا هدفا سياسيا قصد به فردريك خدمة أهدافه ومصالحه السياسية ، وكسب جولة جديدة فى سلسلة صراعه الطويل مع البابوية •

وبعد ابرام هذه الاتفاقية بين الطرفين ، تم زواج الامبراطور يوحنا فاتاتزيس من كونستانس هوهنستاوفن فى عام ١٢٤٤ فى مدينة بروسا Brusa فى آسيا الصغرى[1] • ويدعى بعض المؤرخين أن كونستانس كانت ابنة غير شرعية لفردريك الثانى[2] •ولكن هذا الادعاء غير صحيح ، فهى ابنة شرعية لفردريك ، وهى شقيقة ابنه مانفريد ، وقد أنجبهما كلاهما من زوجته الثالثة بيانكا لانسيا Bianca Lancia[3] •

---

(1) Diehl : Figures Byzantines, Deuxieme Série, Paris, 1921, p. 211.
Miller : The Empire of Nicaea, in C.M.H. Vol IV, p. 495.
(2) Nicol : op. cit., p. 316.
Whitting : Byzantium, Oxford, 1981, p. 115.
(3) Diehl : op. cit., p. 210.
Marinesco : Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen imperatrice de Nicée, dans (Byzantion), Revue International Des Etudes Byzantines, tome I, Paris, 1924, p. 452. Vasiliev : op. cit., p. 528.
=

وكان فاتاتزيس آنذاك فى الثانية والخمسين من عمره ، على حين كانت كونستانس فى الثانية عشر فقط أى بفارق بينهما فى العمر أربعين عاما . وقد اشترط فاتاتزيس أن تعتنق العروس مذهبه هو ، أى المذهب الارثوذكسى ، مذهب الكنيسة اليونانية التى منحتها اسما يونانيا هو آنا Anna [1] .

وقد منحها فاتاتزيس بمناسبة الزواج ، ثلاث مدن فى آسيا الصغرى ، عائدها السنوى يبلغ ثلاثون ألف بيزانط[2] ، أما والدها فقد منحها الكثير من الاموال والجوهرات كما زودها بحاشية كبيرة من الوصيفات الايطاليات[3] .

= والجدير بالذكر أن الزوجة الاولى لفردريك الثانى كانت كونستانس اوف اراجون ، شقيقة بطرس الثانى حاكم اراجون ، وقد خطبها له البابا اينوسنت الثالث اثناء زيارة شقيقها لروما فى ١٢٠٤ ، وتزوجها فردريك وتوفيت فى ٢٣ يونيو ١٢٢٢ ، وكانت الزوجة الثانية له هى يولاند ابنة حنا دى برين وقد خطبها له البابا هونوريوس الثالث وتزوجها فردريك فى ٩ نوفمبر ١٢٢٥ كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وتوفيت فى ابريل ١٢٢٨ ، راجع عن ذلك :

C. Med. H. Vol VI, ed, Bury Cambridge, 1968, pp. 14, 144, 161.

(1) Diehl : op. cit., p. 211.

(٢) البيزانط Byzant هو الاسم الذى عرفت به دول اوروبا العملة البيزنطية المعروفة باسم النوميسما Nomisma ، وهى عملة ذهبية كانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين من الرطل من الذهب منذ عهد قسطنطين الاكبر ، وان كان سعرها يرتفع او يهبط حسب ظروف الامبراطورية وكانت النوميسما تنقسم الى ١٢ ميلياريسيا ، وهى تنقسم بدورها الى اثنى عشر نلسا . راجع :

Hetherington : Byzantium, City of Gold, City of Faith, Obris Publishing Limited, London, 1983, p. 75.

Runciman ; Byzantine Civilisation, pp. 176 — 177

(3) Marinesco : op. cit., p. 455.

Diehl : op. cit., p. 224.

وهكذا تمت هذه المصاهرة بين الشرق اليـونانى والغـرب اللاتينى وتوثقت الصلة بينهما •

ولكن ما هى النتائج التى ترتبت على هذا الارتباط ؟ وما هو مـوقف بابا روما من هذه المصاهرة ؟ وما هو موقف بطريرك نيقية أيضا والشعب اليونانى ؟ وهل نجحت هذه المصاهرة فى تحقيق مكاسب سياسية هامة لكلا الطرفين ؟ وهل سعدت كونستانس ، أعنى (آنا) بهذا الزواج ؟

ان أول نتيجة ترتبت على هذا الارتباط هو غضب بابا روما اينوسنت الرابع (١٢٤٣ ــ ١٢٥٤) غضبا شديدا ، لتخلى كاثوليكية عن عقيدتها ، واعتناقها المذهب الارثوذكسى وزواجهامنأرثوذكسى يعتبر منشقا وهرطيقا فى نظر البابا • وكان ان أوقع البابا قرار الحـرمان واللعنة على كـلا من الامبراطورين ، وذلك فى مجمع ليون فى ٢٨ يونيو ١٢٤٥ ، يوحنا فاتاتزيس لانه منشقا وهرطيقا ، وفـردريك الثانى لانه زوج ابنتـه من منشـق وهـرطيق[1] •

وقد وصف ماثيو الباريسى Mathew Paris الصدمة التى سببها هذا الزواج فى الغرب الاوروبى بقوله :

« نظر الى هذا الزواج من جانب البابا وكل رجال الدين الرومان على أنه اثم خطير ، لانه من خلال يوحنا فاتاتزيس نفسه ، ازداد الانقسـام

---

(1) Diehl : Figures Byzantines, p. 210.
Marinesco: Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen, p. 452.
Wolff : The Latin Empire, p. 225.

اتساعا بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، حينما أطلقت عليه الكنيسة الرومانية وصف الهرطيق »[١] •

واذا نحينا موضوع الهرطقة والانشقاق جانبا ، فان البابا كان يرى أن هذا الارتباط بين الطرفين ارتباطا غير مرغوب فيه ، لانه يجمع بين عدوين للبابوية فى تحالف لابد وأن يثير المتاعب فى وجهها مستقبلا •

أما بالنسبة لموقف بطريرك نيقية من هذا الزواج ، فقد سبق أن أوضحت أن البطريرك اليونانى كان على استعداد لتجاهل الاعتراضات الكنسية التى كان من الممكن أن يبرزها فى موقف آخر ويتمسك بها ، اذا كان من وراء هذا الزواج منفعة سياسية تخدم قضية اليونان ضد اللاتين • أضف الى ذلك أن اعتناق كونستانس للمذهب الارتوذكسى ، مذهب الكنيسة اليونانية ، قد قضى على أية اعتراضات من الممكن أن يحتج بها البطريرك الارثوذكسى •

أما شعب نيقية ، فقد رحب بهذا الزواج ، ونظمت الاشعار التى توضح مدى فرحتهم وابتهاجهم بهذا الزواج ، ومنها ما قاله نيقولاس ايرنيكوس[٢] :

تلتف شجرة اللبلاب التفافا رقيقا حول شجرة السرو المحبوبة

---

(1) Mathew Paris : Chronica Majora, 1877, Chapter IV, p. 299.

(٢) انظر أبيات الشعر فى المرجع التالى :
Vasiliev : op. cit., pp. 528 — 529.

الامبراطورة هى شجرة السرو ، وامبراطورى هو شجرة اللبلاب

أما على المستوى السياسى ، فلم تسفر هذه المصاهرة عن أية نتائج ايجابية للطرفين على حد سواء ، فلم نعثر فى المصادر المعاصرة أو المتأخرة زمنيا ، على أية اشارة لاية محاولة عسكرية مشتركة قام بها الحليفان من أجل استعادة القسطنطينية ، ولم يقدم فردريك لفاتاتزيس أية مساعدة عسكرية من أجل استرداد العاصمةالبيزنطية ، وتحقيقا لنص الاتفاقية بينهما ، بل ان الذى حدث هو أن فاتاتزيس قدم المساعدة العسكرية لفردريك وأرسل اليه بفوات يونانية حاربت معه فى ايطاليا[١] .

واذا بحثنا عن أسباب ذلك وجدنا أن صراع فردريك الثانى مع البابوية ، والذى حرضت فيه البابوية وأيدت جميع القوى المعارضة لفردريك سواء فى ايطاليا وصقلية ، أو فى ألمانيا ، لم يتح له الفرصة لتقديم المساعدة العسكرية لفاتاتزيس[٢] .

على أية حال ، فقد استمرت العلاقات طيبة بصفة عامة بين الطرفين حتى وفاة فردريك الثانى فى ١٢٥٠ ، لكن العلاقات لم تلبث أن تغيرت الى الاسوأ فى عهد ابنه مانفريد الذى خلفه فى حكم صقلية . وهكذا فان

---

(1) Diehl : op. cit., p. 209.
Vasiliev : op. cit., p. 528.

(٢) انظر تفاصيل هذا الصراع فى البحثين التالبين :

Michealangelo Echipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C. Med. H. Vol VI, ed. Bury, pp. 157 — 165.

Austin Lanepoole : Germany in the reign of Frederick II, in C. Med. H., Vol VI, pp. 80 — 109.

« التحالف الذى حلم به فردريك الثانى ، أصبح لا شىء أكثر من مجـــرد ذكرى » . على حد تعبير المؤرخ الفرنسى شارل ديل[1] .

أما عن حظ كونستانس فى هذا الزواج، فقد كان تعيسا الى أبعد الحدود، ذلك أن زوجها الامبراطور يوحنا فاتاتزيس ، لم ترق له هذه الطفلة التى تزوجها فقط لاسباب سياسية بحتة ، فوقع فى غرام احـــدى وصـــيفاتها الايطاليات Lady - in - Waiting التى ذكر المؤرخون البيزنطيون أنها تسمى المـــاركيزة nomine Marcesina[2] والتى امتازت بجمـــال أخاذ ، وعينين رائعتين ، واناقة فائقة . وقد فتنت هذه الماركيزة الامبراطور فاتاتزيس ، ولبى لها جميع طلباتها ، فأسكنها فى قصر خاص لا يقل جمالا وفخامة عن القصر الامبراطورى ، وسمح لها باتخاذ كافة الشارات الملكية التى كانت وقفا فقط على الامبراطورة ، وقد حظت بكل مظاهر الاحترام وكأنها امبراطورة شرعية ، حتى أن كونستانس تراجعت الى المرتبة الثانية بعد هذه الماركيزة .

وقد لخص المؤرخ البيزنطى نقفورجريجوراس ، المـــوقف فى هـــذه العبارة ، التى أوضح فيها كيف أصبح واضحا للعيان أن الامبراطور يعيش قصة حب مشتعلة مع هذه الماركيزة ، وكيف انه خـــدع الامبراطـــورة آنا وأهملها ، قال جريجوراس[3] :

---

(1) Diehl : op. cit., p. 220.
(2) Gregoras : Historiae Byzantinae, ed. Bonn, II, p. 45.
(3) Gregoras : Historiaɾ Byzantineae, II, p. 45.

"Imperatoris oculos in se convertit amorque sui sic incendit, at iam hau — dissìmulanter Imperatrix Anna prae ea negligeretur."

وقد أثارت علاقة فاتاتزيس بهذه الماركيزة الايطالية شعور الكراهية والبغض لها لدى الشعب اليونانى ، كما أثار تعاطفهم مع الامبراطورة (آنا) وقد تسببت هذه الماركيزة فى اثارة بعض الفضائح والاضطرابات مما أساء أبلغ الاساءة لشعور كونستانس •

من ذلك تلك الحادثة التى كان لها دوى هائل ، ذلك انه حوالى عام ١٢٤٨ أصبح الكاتب والعالم الشهير نقفور بليميدس Nicephorus Blemmydes رئيسا لدير القديس جريجورى St. Gregory بالقرب من أفيسوس • وكان معروفا عن نقفور كراهيته الشديدة لهذه الماركيزة ، بسبب تحررها الزائد عن الحدود ، وبسبب جنسيتها الايطالية ، وهو الراهب الذى اختص النساء عموما والاجانب بكراهيته ، فصممت هذه الماركيزة على تحديه • وذات يوم من عام ١٢٥٠ ، اقتحمت الماركيزة كنيسته فى موكب امبراطورى محاطة بحاشيتها ، وكان من بينها عدد من الفرسان ، فى نفس اللحظة التى كان يقوم فيها بليميدس بالشعائر الدينية الخاصة برسم أحد رجال الدين • وعلى الفور أمر بليميدس بطرد (هذه المرأة الفاجرة التى دنست هذا المكان المقدس بحضورها اليه) على حد تعبيره • فاندفع أحد حراسها من الفرسان ليذبح هذا الراهب الجرىء بليميدس وهو واقف عند مذبح الكنيسة ، لتطاوله على سيدته الماركيزة ، لكن سيفه التصق بغمده ولم يخرج منه • وقد ردت الماركيزة على غضب بليميدس بتماديها فى مجونها ومرحها الصاخب ، ثم غادرت الكنيسة ،

وطالبت بمحاكمة بليميدس بعد أن وجهت اليــه تهمتى ، العيب فى الذات الملكية ، والسحر .

وقد دافع بليميدس عن نفسه فى خطاب عنيف اللهجة ، ولم يعاقبــه الامبراطور فاتاتزيس ، بل برأه من التهمتين المنسوبتين اليه[1] . وربمــا كان الدافع لهذا التصرف من جانب الامبراطور هو خوفه من حدوث صدام بينه وبين بليميدس الذى كان يتمتع بحب الجماهير واحترامهم نظرا لمــا عرف عنه من طهر أخلاقه ووطنيته الصادقة . أو ربما أدرك الامبراطور أن تصرفات هذه الماركيزة قد تجاوزت كل الحدود بشكل أصبح يهدد علاقته بشعبه ، فأراد أو يضع حدا لتصرفاتها هذه .

وبعد هذه الفضيحة لم يأت ذكر لهذه الماركيزة فى المصادر اليونانية . ويرجح المؤرخ ميللر Miller انها تزوجت من أحــد الايطاليين فى ١٢٥٣ وعادت معه الى موطنها الاصلى فى ايطاليا حيث استقرت هناك[2] .

وبعد أختفاء هذه الماركيزة أتيح لكونستانس أخيرا أن تأخذ مكانتها كامبراطورة شرعية لليونان فى نيقية ، وأن تمارس بعض النفوذ على زوجها، ولم يطل ذلك اذ توفى فاتاتزيس فى العــام التالى مبــاشرة فى ٣ نوفمــبر ١٢٥٤[3] ، أى بعد عشر سنوات من زواجه من كونستانس ، التى أصبحت أرملة ولم يتعد عمرها الثانية والعشرين عاما .

---

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, II, pp. 45 — 46.
(2) Miller : The Empire of Nicaea, p. 496.
(3) Georgii A Cropolites opera, p. 103.
Ostrogorsky : op. cit., p. 444.
Polimes : The Doukai, p. 108.

وقد خلف فاتاتزيس على العرش ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس من زوجته الاولى ايرين لاسكاريس ، الذى كان يكن كراهية خاصة للاتين ، ولزوجة أبيه كونستانس ، يضاف الى ذلك عداء مانفريد شقيق كونستانس لامبراطورية نيقية البيزنطية،وقد أدى كل ذلك الى القبض على كونستانس ووضعها فى السجن ، وقد ظلت به حتى تولى ميخائيل باليولوجوس عرش نيقية فى عام ١٢٥٩ ، وفى ١٢٦١ تم له استرداد القسطنطينية من يد اللاتين، وقد انتقلت كونستانس من سجن نيقية ، لتوضع فى سجن القسطنطينية . ولم يلبث ميخائيل باليولوجوس أن أغرم بشدة بالارملة الشابة كونستانس وأراد أن يقيم معها علاقة غير شرعية،ولكنها رفضت باصرار وأباء ، وأفهمته أنها ابنة امبراطور ، وأرملة امبراطور ، ولا يليق بها أن تنزلق الى هـذا المنحدر ، أما ان أراد أن يتخذها زوجة فلا مانع لديها[1] . وقـد وافـق ميخائيل على أن يتزوجها ، بل انه حلم بذلك ، ولكن برزت أمامه مشكلة ، وهى انه كان متزوجا بالفعل ، وحينما أراد أن ينفصل عن زوجته ثيودورا تمهيدا لزواجه من كونستانس رفضت زوجته ، وأيدها بطريرك القسطنطينية فى موقفها ، وأمام نصائح وتهديدات البطريرك ، صدع ميخائيل بالامر ، وتم الاتفاق بين الجميع على أن يصرح لكونستانس أن تغادر الاراضـى البيزنطية ، فرحلت الى شقيقها مانفريد فى صقلية[2] .

ولم يكن ذلك نهاية المطاف بالنسبة لكونستانس ، فلم تلبث أن روعت بفقد أخيها مانفريد ، اذ أن البابا أيربان الرابع (١٢٦١—١٢٦٤)

---

(1) Diehl : op. cit., pp. 220 — 221.

(2) Marinesco : Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen, p. 453.

استأنف الصراع ضد الهوهنستاوفن ممثلا فى مانفريد ، فوقع عليه قرار الحرمان فى ٢٩ مارس ١٢٦٣ ، وجاء خليفته البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥ – ١٢٦٨). الذى كان من أصل فرنسى ، فقدم تاج صقلية الى شارل دانجو Charles D'Anjou الفرنسى[١] ، وجرت المعركة الحاسمة بينه وبين مانفريد فى ٢٦ فبراير ١٢٦٦ عند مدينة بنفنتو الايطالية ، وقتل مانفريد فى هذه المعركة[٢] . وبعد المصير الذى آل اليه والدها وزوجها وشقيقها ، لجأت كونستانس الى اسبانيا ، عند ابنة أخيها مانفريد وتسمى كونستانس أيضا ، التى كانت قد تزوجت من بطرس الثالث Peter III وريث عرش مملكة أراجون . وقد وصلت كونستانس

---

(١) ولد شارل دانجو فى عام ١٢٢٦ ، وهو الابن العاشر لملك فرنسا لويس الثامن ، الذى منحه حكم كونتية انجو التى تقع الى الغرب من فرنسا على ضفافه نهر اللوار . وعن طريق زواجه من بياتريس Beatrix وريثة اقليم بروفانس ، اصبح ايضا كونتا على بروفانس ، ثم بدأ يتدخل فى شئون ايطاليا وبمساعدة شقيقه لويس التاسع ملك فرنسا حارب شارل دانجو ، مانفريد هوهنستاوفن ، وفتح صقلية ، وحاول تأسيس مملكة تسيطر على البحر الابيض المتوسط تكون صقلية عاصمتها . ثم قامت الاضطرابات السياسية فى صقلية بتحريض من ملك اراجون بطرس الثالث الذى كانت زوجته كونستانس ابنة مانفريد هى وريثة عرش صقلية ، حتى كانت الثورة الكبرى فى صقلية Sicilian Vespers فى ٣٠ مارس ١٢٨٢ ، التى اطاحت بحكم شارل دانجو فى صقلية ، وتم اعلان بطرس الثالث الاراجونى ملكا على صقلية فى عام ١٢٨٢ ، وعادت كونستانس ابنة مانفريد كملكة على ملك ابيها فى صقلية. اما شارل دانجو فقد نقل مقر حكمه الى نابلى ولم يلبث أن توفى فى ٧ يناير عام ١٢٨٥ .

راجع :

Previté - Orton : Italy (1250 — 1290), C. Med. H. Vol VI, pp. 197 — 202.
Runciman : The Sicilian Vespers, 1958.
Lewis : Later Medieval France, 1968.
Chaytor : A History of Aragon and Catalonia 1933.

(2) Previté - Orton : op. cit., pp. 183 — 186.

الى أراجون فى سبتمبر ١٢٦٩ ، واستقبلها الملك جاك الاول Jacques I (١٢١٢ ـــ ١٢٧٦) استقبالا طيبا جدا ، ومنحها مدن وأراضى فى مملــكة فلنسية • وخلال حكم من تلاه من ملوك أراجون وهم بطرس الثالث (١٢٧٦ ـــ ١٢٨٥) ، وابنه وخليفته الفنســو الثالث Alfonso III (١٢٨٥ ـــ ١٢٩١) ، وجاك الثانى Jacques II (١٢٩١ ـــ ١٣٢٧) عاشت كونستانس محفوفة بكل مظاهر الرعاية والاهتمام •

وفى أواخر حياتها ترهبت كونستانس ، والتحقت بدير للراهبات فى فلنسية يدعى Saint - Barbe • وحينما شعرت بدنو أجلها ، أحصت ثروتها وممتلكاتها التى كان والدها وزوجها قد منحاها اياها ، وكانت هذه الثروة تقدر بحوالى ٣٠٠ ألف بيزانط ، وكانت موجودة كلها داخل أراضى الدولة البيزنطية • وقد حاولت كونستانس استرداد ثروتها هذه ، مرة خلال أقامتها بصقلية ، وأخرى خلال أقامتها باراجون ولكن المحــاولتين باءتــا بالفشل ، بعد أن رفض الاباطرة البيزنطيون ردها اليها •

لذلك فقد كتبت وصيتها ، وتنــازلت فيهــا عن كل ممتلكاتها لــدى البيزنطيين لصالح جاك الثانى الاراجونى[1] ، اعترافا منها بفضله عليها هو وأسلافه من ملوك أسبانيا •

---

(١) هذا وقد أرسل جاك الثانى رسولا من عنده الى الامبراطور البيزنطى اندرونيكوس الثانى باليولوجوس (١٢٨٢ ـــ ١٣٢٨) فى ١٣٢٢ للمطالبة بتنفيذ وصية كونستانس وتسليمه ممتلكاتها ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، كذلك أعاد المحاولة من جاء بعده من الملوك الاسبان ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . راجع:
Marinesco : op. cit., pp. 456 — 457.

وفى عام ١٣١٣ وافاها الاجل ، بعد حياة امتدت لاكثر من ثمانين عاما ، ودفنت فى كنيسة صغيرة تسمى Saint - Jean فى فلنسية ، فى تابوت من الخشب كتب عليه باللغة الاسبانية ما معناه :

« ترقد هنا كونستانس ، الامبراطورة العظيمة لليونان »[1] .

وعلى هذا النحو وضعت الخاتمة لحياة كونستانس هو هنستاوفن بعد قصة زواج تحالف كانت فيه الضحية لاهداف سياسية خاصة بوالدها وحليفه يوحنا فاتاتزيس ، ثم رحل والدها الامبراطور العظيم فردريك الثانى ، ورحل زوجها الامبراطور يوحنا فاتاتزيس ، ورحلت معهما أهدافهما السياسية ، ولم يبق من ذلك كله سوى ضحية بريئة استمرت فى المعاناة ما بقى لها من الحياة داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ، من جراء هذا الزواج الذى لم تسعد به يوما واحدا ، ثم رحلت عن هذه الاراضى التى شهدت تعاستها ، وخلعت عنها هذا الاسم اليونانى (آنا) الذى كان لابد وأنه يذكرها بهذه التعاسة ، واستردت اسمها اللاتينى (كونستانس) وهو كل ما تبقى لها ، بعد أن جردها اليونان من جميع ممتلكاتها ، وحتى متعلقاتها الشخصية ، ولولا استضافة الملوك الاسبان لها ، لما تمكنت من مواصلة الحياة الكريمة ، بعد كل المصائب التى حلت بها وبعائلتها .

كانت هذه قصة زواج تحالف واحدة ، من بين قصص عديدة ، لزيجات تحالف عديدة لم تبحث بعد ، ترى كيف كانت حياة العديد من الفتيات

---

(1) Diehl : op. cit., p. 207.
Marinesco : op. cit., p. 457.

اللاتى تزوجن زواج تحالف ؟ كيف كانت حيـاة ماريا حفيـدة رومانوس ليكابينوس وسط قبائل البلغار ؟ وكيف مضت حياة آنا حفيدة قسطنطين السابع وشقيقة باسيل الثانى المقدونى وسط القبائل الروسية ؟ وماهـو المصير الذى آلت اليه برثا أوف سلزباخ الالمانية أو أيرين كما أسمتهـا الكنيسة اليونانية ؟ وغيرهن وغيرهن •

ان الموضوع مفتوح ، وفى حاجة للمزيد من الجهود والابحاث •

المصادر والمراجع



— Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia, 1937.

— Angold : A Byzantine Empire in Exile, Government and Society Under the Laskarids of Nicaea 1204-1261, Oxford, 1975.

— Archer and Kingsford : The Crusades, London, 1894.

— Austin — Lane Poole : Germany in The Reign of Frederick 11, in C. Med. H. Vol VI, ed. Hussey, Cambridge, 1968.

— Barrachough : The Medieval Papacy, London, 1976.

— Brehier : Vie et.Mort de By Zance. ed. Albin Michel, Paris. 1969.
: La Civilisation By zantine, ed Albin Michel, Paris, 1970.
: L'Institutions de L'Empire Byzantine, ed. Albin Michel, 1970.

— Buchler : Die Hohenstaufen, 1925.

— Chaylor : A History of Aragon and Catalonia, 1933.

— Choniates : Historia, ed. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1835.

— Cinnamus : Historiarum, in C.S.H.B. Bonn, 1836.

— Clari (R.) : La Conquete De Constantinople, ed. par Lauer, Paris, 1924.

— Constantini Porphyrogeniti; De Administrado Imperio, C.S.H.B., Bonn, 1840.

— Demetrios Chomtianus, ed. Pitra, in (Analecta Sacra Spicilegio Solesmensi Parata) Rome, 1891.

— Diehl (Ch.) : Figures Byzantines, Deuxiéme Serie, Paris, 1921.

— Festa (N.) : "Le Lettre greche di Federigo II", Archivio Strico italiano, XIII, 1894.

— Finlay : History of the Byzantine Empire. from DCXIV to MLVII, london. 1856.

— Ford : The Byzantine Empire, London, 1911.

— Georgii Acropolites opera, ed. Heisenberg. Leipzig. 1903. (Bililiotheca Scriptorum Greacorum et Rommanorum Teubneriana).

— Gregoras (N.) : Historiae Byzantinae, in C.S.H.B. ed. Weberi, Bonn, 1829.

— Grousset (R.) : Histoire des Croissades et du Royaume Franc de Jerusalen, Paris, 1946.

— Grumel (V.) : L'Authenticité de La Lettre de Jean Vatatzes empereur de Niceé, au Pape Gregoire 1 X, echos d'orient, XXIX, 1930.

— Guillon : La Civilisation Byzantine, Arthand, Paris, 1974.

— Hetherington : Byzantium, city of Gold, City of Faith, obris Publishing limited, 1983.

— Huillord (B.) : Introduction d'histoire diplomatique de l'empereur Fredric 11, Paris, DL VII.

— Hussey (J.) : The Later Macedoniany The Comneni and The Angeli, 1024 — 1204, in C. Med. H. Vol IV, Part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

— Hyde : Society and Politics in Medieval Italy, 1973.

— The Illustrated Encyclopediae of Medieval Civilization, U.S.A. 1980,

— Kantarowicz (E.) : Frederick The Second, English Transl. London 1931.

— Lewis : Later Medieval France, 1968.

— Lexicon Universal Encyclopedia, Published by Lexicon Publications, U.S.A. 1983.

— Lincoln Library of Essential Information, Thirty — Ninth edition, U.S.A. 1978.

— Marinesco : Du Nouvean Sur Constance de Hohenstaufen, in (Byzantion) Revue Internationale des Etudes Byzantines, tome I, Paris, 1924.

— Mas - Latrie : Histoire de l'ile de Chypre Sous les Princes de la maison de Lusignan, 3 Vols, Paris, 1852 — 1961.

— Mathew de Paris : Chronica Majora, 1877.

— Michelangelo-Schipa : I taly and Sicily Under Frederick 11, in C. Med. H. ed. Bury, Vol VI, Cambridge 1968.

— Miller : The Empire of Nicaea and the recovery of Constantinople, in C. Med. H. ed. Bury, Vol IV, 1923.

— Miller : I mperial Constantinople, U.S.A., 1969.

— Nicol (D.) : Byzantium, its ecclesiastical history and relations with Western World, Variorum Reprints, London, 1972.

— Nomo canon Photii Patriarchae Constantinopolitani, ed. Christophorus Iustellus, Latins transl. Paris, 1615.

— Ostrogorsky : History of the Byzantine State, English transl. by Hussey, Oxford, 1968.

— Painter : A History of The Middle Ages, New York 1954.

— Pears : The Fall of Constantinople being The Story of The Fourth Crusade, New York, 1975.

— Polemis (D.) : The Doukai, A Contribution to Byzantine prosopography, University of London, Historical Studies, XXII, 1968.

— Previté - Orton : Italy (1250 — 1290) in C. Med. H. Vol. VI, ed Bury, Combridge, 1968.

- Psellos : Chronographie, Serie par Renauld, Paris, 1928.
- Roncaglia (M.) : Les Freres Mineurs et l'eglise grecque Orthodox du XIII^e Siécle, 1231 — 1274. Bililioteca della Terra Santa edell, Oriente Francescono, Ser. 4. Studi Cairo, 1954.
- Runciman : the history of the the Crusades, 3 Vols, Cambridge University Press, 1966.
- Runciman : The Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.
  : The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977.
- Schlumberger (G.) : L'epopeé Byzantine à la fin du dixième Siécle, 3 Vols, Paris, 1896 ; 1950.
- Setton : A History of Crusades, Pensylvania, 1958.
- Stubbs : Seventeen Lectures on the Study of Medieval and Modern History, Oxford, 1900.
- Vasiliev : History of the Byzantine Empire, (324 — 1453), 2 Vols, U.S.A. 1971.
- Villehardouin : La Conqueste de Constantinople Par Les Barons Français associez que Venitians l'an: 1204, English Trans. by Sir Marzials, London, 1965.
- Waley (D.) : The Italian City Republics, 1969.
- Whitting : Byzantium, Oxford, 1981.
- Wood and Fyfe, Trans. and ed., The Art of Falconry. 1943.
- Zonaras : Epitomae Historiarum, C.S.H. B. Bonn, 1838.

طبع بمطابع جريدة السفير





رقم الايداع بدار الكتب
٥٥٨٨ / ٨٨
بتاريخ ٣٠ / ٨ / ١٩٨٨

البحث الرابع


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معركة بلاجونيا
ونهاية الصراع بين نيقية وإبيروس حول القسطنطينية

دكتورة
إسمت غنيم

١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير الأزاريطة
الإسكندرية






بسم الله الرحمن الرحيم



ليس هناك حدث فى تاريخ منطقة شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى ، أثناء الفترة السابقة مباشرة على استرداد امبراطورية نيقية البيزنطيـة للقسطنطينية فى عام ١٢٦١م ، أكثر أهمية من معركة بلاجونيا(١) أكتـوبر ١٢٥٩م ، والانتصار الذى حققته قوات ميخائيل باليولوجوس على قوات الحلف الثلاثى ضده ، الذى تكون من ميخائل الثانى أنجيلوس اليونانى الاصل ، حاكم امارة ابيروس ، وما نفـريد هو هنستاوفن ، الالمانى - النورمانى ملك صقلية ، ووليم الثانى أوف فيلها ردوين ، الفـرنجى ، أمير امارة آخايا فى شبه جزيرة المورة .

والمعروف أنه كان هناك تنافس شديد بين نيقية وابيروس ، وهمـا الامارتان اللتان أسستا بعـد الفتـح اللاتينى للقسطنطينية فى ١٢٠٤م ، وظلتا تناضلان من أجل استعادة القسطنطينية ، وقد استطاع الامبراطور يوحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ - ١٢٥٤م) وهو ثان امبراطور يتولى عرش امبراطورية نيقية البيزنطية ، أن يجرد امبراطور القسطنطينية اللاتينى من معظم أملاكه فى آسيا الصغرى وأوروبا . ففى عام ١٢٢٥م . نجح فاتاتزيس فى فتح معظم أملاك اللاتين فى آسيا الصغرى ، كما قام أسطوله بالاستيلاء على شـبه جزيرة غاليبـولى Gallipoli ، وجزر لسـبوس ، خيوس ، سـاموس ، ايـكاريا ، ورودس . وقد اضطـر اللاتين الى عقـد هدنة معه اعترفوا له بكل فتوحاته على حساب ممتلكاتهم فى آسـيا الصغرى ،

---

(١) يطلق على هذه المعركة أيضا اسم معركة كاستوريا Castoria وهو اسم المدينة التى يقع على سهل بلاجونيا بالقرب منها فى غرب اقليم مقدونيا ، راجع :

Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire (324-1453) U. S. A. 1971, Vol. 11, P. 537.

فيما عدا مدينة نيقوميديا التى بقيت فى أيديهم(١) .

ولم يلبث فاتاتزيس أن نقل نشاطه العسكرى الى الجانب الاوروبى واستولى على العديد من المدن الساحلية، ثم استولى على مدينة أدرنة وهى المدينة الرئيسية للاتين فى الجانب الاوروبى ، مما أشعل النضال بينه وبين حاكم ابيروس اليونانى ثيودور انجيلوس (١٢١٥ - ١٢٣٠م)، الذى كان قد استولى على مدينة سالونيك فى ١٢٢٤م ، وتوج بها امبراطورا وأطلق على نفسه لقب ، امبراطور وأوتوقراطور الرومان ، Basileus and Autocrator, of the Romaioi فقد اندفع ثيودور من سالونيك شرقا وفتح معظم اقليم تراقيا فى شمال بلاد اليونان ، وانتزع أدرنة من يد فاتاتزيس ، وواصل فتوحاته بتراقيا حتى وصل الى أسوار القسطنطينية(٢) .

وقد انتهى الصراع بين الطرفين اليونانيين ، باجتياح فاتاتزيس لاقليمى تراقيا ومقدونيا ، ووصوله حتى نهر ماريقا Marica فى تراقيا ، ونهر الفاردار Vardar فى مقدونيا ، ثم اتجه الى سالونيك ودخلها فى ديسمبر ١٢٤٦ ، وقبض على امبراطورها اليونانى ديمتريوس انجيلوس (١٢٤٤ - ١٢٤٦م) الذى كان يحكمها مع والده الضرير ثيودور انجيلوس، وأرسله الى نيقية أسيرا ، وعين لحكم سالونيك أحد رجاله وهو اندرونيكوس باليولوجوس ، الذى أصبح له حكم جميع فتوحات نيقية فى الجانب الاوروبى(٣) .

---

1) Nicephorus Gregoras : Historiae Byzantinae, in C. S. H. B. Ed weberi, Bonnae, valumen I, P. 29.
2) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople; London 1976, chapter I, P. 215.
3) Miller : The Empire of Nicaea and the recovery of constantinople in C. Med. H. Ed. Bury, Cambridge, 1923, Vol. IV, P. 493.
Ostrogorsky : History of the Byzantine state, English translation by Hussey, Oxford, 1968, PP. 439-440.

لكن أحد أبنـاء ميخائيل الاول أنجيلوس ، وهو ميخائيل الثـانى استـطاع أن يستقل بابيروس وضم اليهـا اقليم تسـاليا Thessally ، وكون منهمـا امارة خاصـة به(١) ، اسـتأنفت الصراع مع امبراطورية نيقيـة البيزنطية ، خاصـة وأن ابن يوحنا فاتاتزيس وخليفته ثيـودور الثـانى لاسـكاريس (١٢٥٤ ـ ١٢٥٨م) لم يفـرط فى فتوحات والده فى الجانب الاوروبى ، بل لقد نجح فى امتلاك مدينة سرفيا Servia ومدينة ديراخيوم Dyrrachium (دورازو) على ساحل البحر الادرياتيكى ، والمدينة الاولى تقع الى الشرق من امارة ابيروس ، أما المدينة الثانية فتقع الى الغرب من هذه الامارة(٢) .

وقد استغل ميخائيـل الثـانى انجيلوس ، حاكم ابيروس الاحداث الداخلية التى مرت بها امبراطورية نيقية البيزنطية ، ليوسع ممتلكاته على حساب أملاكها فى الجانب الاوروبى وليطرد نفـوذها من هنـاك ، تمهيدا لانفراده بالاستيلاء على القسطنطينية .

وتتلخص هذه الاحداث ، فى أن ثيودور الثانى لاسكاريس كان مصابا بمرض الصرع وفى اواخر ايامه ، حينما اخذت نوبات المرض تشتد عليـه ونظـرا لأن ابنـه الذى سوف يخلفه عـلى العـرش ، وهو يوحنا الرابع لاسكاريس ، كان لايزال طفلا صغيرا لم يتعد بعد السابعة من عمره ، فقد

---

1) Miller : Op. Cit., P. 494.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 440.

2) Pappadopoulos (J.); Theodore II Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1098, PP. 97-98.

وهذا الكتاب على جانب كبير من الاهمية فيما يتعلق بعصر ثيودور الثانى لاسكاريس وعلاقاته بمختلف القوى فى عصره .

Brehier(1.); vie et Mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris 1969, P. 316.

Gardner : The lascarids of Nicaea, London, 1922, P. 219.

أخذ اسم ميخائيل بالبولوجوس(١) يتردد بين مختلف الاوساط فى نيقية ، وكان قد شغل عدة مناصب منها منصب حاكم المدينتين التراقيتين ميلنيك وسيريس Melnik and Serres ، تحت قيادة والده الدمستق الاكبر اندرونيكوس باليولوجوس ، ثم أخذ ميخائيل فى الترقى حتى وصل الى منصب القائد الاعظم Megas Dux ثم منصب الامير Despot وتمتع بشعبية كبيرة فى مختلف الاوساط البيزنطية فى نيقية(٢) .

لكن الامبراطور ثيودور الثانى لاسكاريس ، اختار أحد أصدقائه من ذوى الاصل الوضيع ويدعى جورج موزالون George Muzalon وصيا على

---

(١) ينحدر ميخائيل باليولوجوس من نسل كبرى بنات الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ - ١٢٠٣م) وتدعى ايرين ، التى تزوجت من اليكسوس باليولوجوس ، وأثمر هذا الزواج ابنة واحدة هى ثيودورا ، التى تزوجت الدمستق الاكبر اندرونيكوس باليولوجوس وأنجبا ميخائيل فى عام ١٢٢٤ أو ١٢٢٥م فى مدينة نيقية ، أو Nymphaeum التى كان الامبراطور فاتاتزيس قد اتخذها عاصمة ثانية له . ونظرا لأن والدى ميخائيل كانا من نفس عائلة باليولوجوس ، فقد أطلق عليه اسم Diplopalaiologos وحينما بلغ ميخائيل سن الصبا ، لفت نظر الامبراطور فاتاتزيس الذى نقل اقامته الى القصر الامبراطورى ، وعامله كما لو كان ابنه ، خاصة وأنه كان فى نفس عمر ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس ، وحينما بلغ سن الشباب أرسله فاتاتزيس ليتولى القيادة فى بعض غزواته فى اقليمى مقدونيا وابيروس . راجع عن حياة ميخائيل باليولوجوس :

Pachymeres : Historiae Byzantinae, liberl, De Mechaele palaeólogo, weberi, 1835. Bonnae; Geanak oplos (D.), Emperor Michael Paleologus and the west, 1258-1282, Harvard university press, 1959, PP. 16-38; laurent, V. la Genealogie Des premiers paleologues, dans (Byzantion), Revue internationale des Etudes Byzantines, Tome VIII, Bruxelles, 1933, PP. 125-149.

2) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 447.
Finlay (G) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time B. C. 146 to A. D. 1864, AMS press, New York, vol. IV, P. 324.

ابنــه الصغير ، ثم توفى ثيودور فى اغسطس ١٢٥٨م فى ســن الســادســة والثلاثين . وبعد تســع ايام فقط من وفاته ، وبينما كان جورج موزالون داخل كنيسة دير سوسندرا Sosandra فى مغنيسيا حيث دفن ثيودور بـجوار والده فاتاتزيس ، لحضور الاحتفال باحيــاء ذكرى الامبراطور الراحل ، تم تنفيذ المؤامرة ضده ، فتم ذبحه هو وشقيقه أمام مذبح الكنيسة حيث كانا يقفان(١) وعلى اثر ذلك تولى ميخائيل باليولوجوس الوصــاية على الامبراطور الطفل يوحنا الرابع لاسـكاريس (١٢٥٨ - ١٢٦١م) . ولم يلبث ميخــائيل باليــولوجوس أن توج امبراطورا مشــاركا فى العـــرش للامبراطور الطفل ، وكان ذلك فى بداية عام ١٢٥٩م(٢) .

وقد انتهــز ميخائيل الثــانى انجيلوس ، أمير ابيروس ، كل هذه التطورات وما صاحبها من احداث واضطرابات داخلية فى نيقية ، واراد ان يـحقق حلمه فى تـحطيــم القوة الرئيسية المنافســة له فى الصراع حول القسطنطينيــة ، وهى قوة امبراطورية نيقيــة عن طريق تـجريدها من الاقاليــم الاوروبية التــابعــة لهــا ، بما فى ذلك مدينة ســالونيك عاصمة الامبراطورية التى كان عمــه ثيودور انجيلوس قد اقامهــا ، كمــا ســبق ان ذكرت .

وكانت الادارة المدنية لممتلكات امبراطورية نيقيــة البيزنطيــة فى الـجانب الاوروبى ، منذ عهد ثيــودور الثانى لاسكاريس ، فى يد المؤرخ جورج اكروبوليتيس(٣) وقد أخذ أمير ابيروس فى تـحــريض ســكان هذه الاقاليم ضد النفوذ النيقى ، وحثهم على خلع الطاعة ، كما قام بـحصار اكروبوليتيس فى قلعة بريلاب Prilap ، وقد تعرض اكروبوليتيس لـخيانة

---

1) Poppadopoulos : Theodore II lascaris, PP. 131-132. Brehier, Op. Cit., P. 318.

2) Pachymeres : Historiae Byzantinae liber I, De Michaele palaeologe, vol. 1, P. 81.

3) Pappadopoulos, Theodore II lascaris, PP. 116-117.

الحامية التى قام أفرادها بفتح بوابات القلعة للمحاصرين ، وتم القبض على اكروبوليتيس وسيق مكبلا بالسلاسل حيث وضعه أمير ابيروس فى سجن مدينة أرتا Arta ، احدى المدن الرئيسية لامارة ابيروس ، وفى سجنه أصبح لديه متسعا من الوقت ليكتب الاحداث التاريخية لعصره(١) .

وقد استولى ميخائيل أنجيلوس كذلك على بقية الاقاليم الاوروبية التابعة لنيقية فى الجانب الاوروبى ، ومد بذلك حدود امارته حتى نهر الفاردارا ، ثم شرع فى المطالبة بميراث عمه والعمل على استعادة سالونيك ليد عائلة انجيلوس(٢) .

لكن أمير ابيروس ، كان يعلم أن ميخائيل باليولوجوس ، ليس بالخصم الهين ، بل هو داهية سوف ينشد الانتقام حينما تستقر سلطته بصفة نهائية فى نيقية ، ولذلك قرر انشاء تحالف قوى مع بعض حكام عصره ، فاتجه صوب ما نفريد هوهنستاوفن ملك صقلية ، ووليم الثانى أوف فيلها ردوين ، أمير آخايا فى شبه جزيرة المورة . وقد استغل حاكم ابيروس بناته الجميلات لخدمة أهدافه السياسية ، فزوج ابنته الكبرى هيلن من مانفريد ، وزوج ابنته الثانية من وليم الذى اعتقد من جانبه أن زواجه من يونانية سوف يرضى رعاياه اليونان . وقد عرض المؤرخ باكيميريس لهذا الحدث بقوله(٣) :

"Generos enin habebat et Helena quidem filia Manfredum Apulia regem fratrem Anna Augustae, quam Ionnes imperator iam senier uxorem, et Anna vero altera filia principam Achaiae Gulielmum"

---

1) Miller, W. The latins in the levant, A History of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908, P. 109.
Brehier, vie et Mort de Byzance, P. 316.

2) Georgii Acropolitae, opera, ed Heissnberg leipzig, 1093, P.. 139
pachymeres, P. 82.
Gregoras, P. 71.

3) Pachymeres : P. 82.

=

ولكن لماذا اختار امير ابيروس التحالف مع مانفريد هوهنستاوفن ملك صقلية ، ووليم أوف فيلهاردوين أمير آخايا ، بالذات دون باقى حكام عصره ؟

لقد أراد أمير ابيروس أن يستفيد من فرسان آخايا الفرنجة المشهورين بمهارتهم فى القتال ، كما أراد الاستفادة كذلك من الفرسان الالمان التابعين لمانفريد ، يضاف لذلك أنه كان لمانفريد ووليم دوافع ومصالح قوية وهامة فى هذه المنطقة ، كما كان لهما نفس أهداف أمير ابيروس ضد امبراطورية نيقية ، وقد أراد ميخائيل انجيلوس استغلال هذا كله وتوجيهه لخدمة مصالحه وأهدافه .

وقد أوضح المؤرخ باكيميريس أهداف ميخائيل انجيلوس من هذا التحالف فقال(١) :

Constituit videlicet contractas quam passet plurimas copias ipis protinus admovere constantinopli, eamque obsidere et occupare conari, tum si negotium surcederet. efficere ut ibi Romanorum imperator ipse proclamaretur. naminem enim esse putanat qui alus ad id halberet vel verisimilis spei, non lascarin, non alu:.: quemliber, utique quorum nulli vires sustinendo imperio idoneae adessent. quippe se et nobilem et ex Angelorum gente."

والترجمة العربية لهذا النص هى :

« جمع (اميرابيروس » قوات كثيرة بقدر استطاعته ، لمهاجمة

=

ويذكر باكيميرس أن مانفريد ملك أبوليا وشقيق الامبراطورة آنا التى كانت متزوجة من الامبراطور يوحنا . والمقصود هو الامبراطور يوحنا فاتاتزيس ، عن زواج فاتاتزيس وآنا راجع :
اسمت غنيم، زواج التحالف فى العصور الوسطى - الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ص ٦١ - ٧٥ .

1) Pachymeres : P. 82.

القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء عليها ، وحينئذ ينادى به امبراطورا على الرومان ، لأنه يعتقد أنه لا أحد هناك ، سواء عائلة لاسكاريس أو أى عائلة أخرى ، أحق بالامبراطورية من أنجيلوس » .

ويعود باكيميريس للتاكيد مرة أخرى على أهداف ميخائيل إنجيلوس فيقول(١) :

"his igitur tunc congregatis in unum omnibus despota, et eodem adiecties quot ex suis ipse terris potuerat cogere, cogitabat primum quidem acie decernere cum adversaris ducibus tum is, ut sperabat, victis aggredi Thessalonicom et Occidnas regiones incursionibus vastare, ipsamque adeo tentare constantionpolim,"

« بعد أن جمع اقطاب حلفه ورجالهم الكثيرين ، خطط أولا للهجوم على القادة (قادة نيقية) ثم لمهاجمة سالونيك والتغلب على الاقاليم الغربية ، وبعد ذلك يتجه للهجوم على القسطنطينية ذاتها » .

كان هذا فيما يتعلق باهداف ميخائيل انجيلوس من وراء هذا التحالف الثلاثى ، أما عن مانفريد ملك صقلية ، فقد كان متمسكا بخطط اسلافه النورمان فى غزو وفتح بلاد البلقان ، ويذكر المؤرخ جريجوراس أن هدف مانفريد كان الاستيلاء على « كل الاقاليم اليونانية من البحر الايونى الى القسطنطينية »(٢) .

وقد انتهز مانفريد فرصة انشغال أمير ابيروس فى بداية عام ١٢٥٨م. بقتال قوات نيقية فى اقليم مقدونيا وقام بغزو بلاد البلقان ، واستولى على الممتلكات السابقة للنورمان سادة ابيروس السابقين ، على ساحل البحر الادرياتيكى .

وهناك وثيقة مؤرخة فى ٢٦ فبراير ١٢٥٨م . توضح أنها أول سنة

---

1) Pachymeres : liberI, P. 83.
2) Gregoras : P. 72.

لسيادة مانفريد على الاقاليم التى حول ديراخيوم وافلونا ، وجاء فى الوثيقة أن هذه الاقاليم هى ديراخيوم التابعة لامبراطورية نيقية البيزنطية ، وبلجراد ، وافلونا ، وجبال سفينا ريزا Sphinariza mountains وكلها تتبع امير ابيروس[1] .

وفى ٢ يونيو ١٢٥٩م . تم زواج مانفريد من هيلين ، والغريب أن والدها ميخائيل الثانى أنجيلوس لم يعتبر فتح مانفريد لهذه الاقاليم التابعة له فى البلقان ، اغتصابا لممتلكاته ، ولكنه أكثر من ذلك أباح لمانفريد اضافة أقاليم جديدة حسبما يريد .

ويعلل المؤرخ دينوجياناكوبلوس Dino Geanakoplos ذلك بقوله ، اننا لكى نفهم ذلك يجب علينا أن نعلم أن أمير ابيروس وجد أن مانفريد احتل هذه الاقاليم بالفعل (بحق الفتح) لذلك زوج ابنته من مانفريد ، واعتبر هذ: الاقاليم وغيرها مما يتاح لمانفريد فتحه فى البلقان بمثابة صداق هيلين Dowry ، وبهذه الطريقة تجنب امير ابيروس خوض صراع مع مانفريد ، يكون له أثره فى اعاقته عن نضاله ضد امبراطورية نيقية البيزنطية ، وفى نفس الوقت كسب حليفا نافعا ومفيدا له فى صراعه المرتقب ضد هذه الامبراطورية .

ويستطرد جياناكوبلوس قائلا ، أنه فى ضوء التحالف السابق بين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتزيس وفريدريك الثانى[2] ، يبدو للوهلة الاولى أن الغاء السياسة الصقلية الودية نحو نيقية كان شيئا مستغربا ، ولكن مانفريد كان الآن فى مركز قوى بما يكفى فى ايطاليا لينبذ تحالف والده ، ولينظر باتجاه أى شخص يساعده فى تنفيذ طموحاته فى

---

1) Buchon (J.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moreé, et ces hautes baronnies, I, Paris, 1845, PP. 103-104.

(٢) عن هذا التحالف وظروفه راجع :
اسمت غنيم : زواج التحالف فى العصور الوسطى ، ص ص ٣٣ - ٦٨ .

امتلاك البلقان(١) .

أما المؤرخ الالمانى نوردن فقد رأى أن مانفريد كان يريد مملكة على ساحل البحر الادرياتيكى ، وفى المقابل فانه يجيز لحماة أمير ابيروس ان يستولى على القسطنطينية(٢) .

وذكر المؤرخ الفرنسى بيشون Buchon أن مانفريد طلب اقليما تابعا لامارة ابيروس فى منطقة البلقان ، ووعده ميخائيل انجيلوس بان يحقق له ذلك ، فى مقابل مساعدته فى نضاله ضد امبراطورية نيقية ، ثم فى الاستيلاء على القسطنطينية(٣) .

وقد أورد المؤرخ جياناكوبلوس رأيا للمؤرخ اليونانى Dendias مؤداه أن مانفريد طلب الاقاليم التابعة لابيروس كصداق لهيلين ، ليتخذها ماوى يلجأ اليه فى حالة هزيمته فى صراعه مع البابوية . لكن المؤرخ جياناكوبلوس يرد على هذا الرأى بقوله أن سطوة ونفوذ مانفريد فى ايطاليا فى ذلك الوقت تعارض وجهة النظر هذه ، التى تبدو بعيدة الاحتمال ، ويضيف الى ذلك قوله انه من الهام أن نذكر أن دوافع مانفريد للاشتراك فى هذا الحلف تتعلق أهدافه الاساسية الثابتة باعتراف البابوية بسيادته على صقلية ، وسيادة الهوهنستاوفن على كل ايطاليا وأن نجاحه فى السيطرة على بلاد البلقان والتحالف مع اليونان فى ابيروس تخدم أهدافه فى ايطاليا ، ، وتظهره بمظهر القوة على الاخص أمام البابوية ، الحامية الحقيقية للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وبلاد اليونان(٤) .

كان ذلك فيما يتعلق بأهداف مانفريد ملك صقلية ، أما عن أهداف

---

1) Geanakoplos : Op. Cit., P. 50.
   Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.
2) Norden : Der vierte Kreuzzog im Rahmem der Beziehungen des Abendandes zu Byzanz. Berlin; 1898, PP. 333-334.
3) Buchon : Op. Cit., P. 279.
4) Geanakoplos : Op. Cit., PP. 53-54.

وليم الثانى أوف فيلها ردوين أمير آخايا ، فقد أوضح المؤرخان البيزنطيان اكروبولتيس وباكيميريس ، أن وليـم توقع جنى مكاسـب هامة من هذا التحالف ، لاعتقاده أنه بمساعدة ميخائيل أمير ابيروس يستطيع أن يخضع البارونات الفرنجة المتمردين عليه فى وسط بلاد اليـونان ، أو على الاقل يستطيع أن ينمى ولاء الحكام اليونان التـابعين لامارة آخايا ومنعهم من خلع طاعته مثلهم مثل غيرهم ٠ علاوة على ذلك فانه يستطيع أن يكسب حليفا هاما ضد ميخائيل باليولوجوس الذى أصبح اهتمامه ينمو بوضـوح فى استرداد الاقاليم البيزنطية السابقة على حسـاب بلاد اليونان الخاضعة للفرنجة(١) ٠

وذكر المؤرخ ميللر Miller أن وليم كان يتوق لاحياء مملكة أسلافه اللومبارديين فى سالونيك التى أسست بعد الفتـح اللاتينى للقسطنينية فى عـام ١٢٠٤م ، وكـان يحلـم بأن يحـكم من مقدونيـا حتى ماتابان Matapan (٢) ٠

أما المؤرخ أوستروجورسكى فقال أن نجم دوق آخايا فى ذلك الوقت كان آخذا فى الصعود ، لأن دوقيـة أثينا القريبة ، واللوردات الثلاثة لايوبيا Euboea اعترفوا به سيدا أعلى لهم ، وقد شجعه هذا على أن يحقق المزيد من المكاسب الاقليمية(٣) ٠

لـكن ما هـو موقف بلـدوين الثـانى ، الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية من هذا التحالف الثلاثى بين امارة ابيروس ومملكة صقلية وامارة آخايا ، وهل اشـترك فى هذا التحـالف ضـد امبراطورية نيقيـة البيزنطية ؟

المرجح أن المتحـالفين أرادوا ضم بلدوين الى جانبهم على الاقل ،

---

1) Acropolites : P. 165.
Pachymeres : PP. 87-88.
2) Miller : The latins in The levant, P. 110.
3) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.

حتى يتخذوا من القسطنطينية قاعدة لمهاجمة نيقية ، التى لا تبعد عنها اكثر من اربعين ميلا فقط ، خاصة وأن امبراطورية نيقية البيزنطية كانت العدو الاول للامبراطور اللاتينى وكان الهدف الاول لاباطرة نيقية واحدا تلو الآخر هو القضاء على الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية واسترداد العاصمة البيزنطية . وقد أراد بلدوين أن يستغل هذا التحالف الثلاثى للضغط على ميخائيل باليولوجوس ، وعن هذا الطريق يمكنه أن يكسب أقاليم تزيد من أملاكه من ناحيـة ومن ناحيـة أخرى تكون بمثابة المنطقة الحاجزة Buffer area بينه وبين الحلفاء الثلاثة فى اقليم البلقان .

وفى أواخر عام ١٢٥٨م أرسل بلدوين سفارة الى ميخائيل باليولوجوس،وكله ثقة فى أن ميخائيل سوف يرحب بتقديم تنازلات اقليمية لصالحه ، مقابل عدم انضمامه لهذا الحلف الثلاثى ، لذلك فقد طلب الرسل من باليولوجوس التخلى عن سالونيك وكل الاقاليم الواقعة بينهـا وبين القسطنطينية للامبراطور اللاتينى . وقد أجاب باليولوجوس أنه يعتبر سالونيك فى منزلة موطنه الاصلى ، وأنه لا يفكر فى التنازل عنهـا ، عندئذ طالب الرسل بمدينة سيريس Serres والاقاليم التى تقع شرقهـا حتى القسطنطينية ولكن باليولوجوس أعلن أن هذا الموقع كان مركز قيادته العسكرية الاولى وعلى هذا الاساس فانه لن يتخلى عنه . ولما قصر الرسل مطالبهـم فى أخذ اقليـم يقـع من فوليرون Voleron الى الشرق ، كان رد ميخائيل باليولوجوس أن هذا هو المكان المفضل لديه لممارسة هواية الصيد(١) .

وأخيرا ، سأل الرسل ، الذين أصيبوا بالاحباط ، ما هى الارض التى هو على استعداد للتنازل عنهـا لامبراطور القسطنطينية ؟ وكانت الاجابة أنه ليس على استعداد للتنازل عن أية أرض ، وأنه اذا أراد امبراطور القسطنطينية اللاتينى أن يسالم ميخائيل باليولوجوس ، فان

1) Acropolites : P. 161.
Wolff : Op. Cit., P. 228.

عليه أن يتنازل له عن نصف عائد الرسوم الجمركيـة للقسطنطينية وكذلك عن نصف محصول النعناع(١) ٠

والواضح أن رد ميخائيل باليولوجوس على هذا النحو ، هو انعكاس لثقته الكاملة فى النصر ٠ ورغم ذلك فان المصـادر لم تشر الى اشـتراك بلدوين فى هذا الحلف الثلاثى ٠

والواقع أن هذا يدل على بعـد نظر من جانب الامبراطور بلدوين الثانى أو البابوية المسيطرة على المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، لأنه يبدو للوهلة الاولى أن هذا التحالف الذى قصد به فى المرتبة الاولى القضاء عـلى امبراطورية نيقيـة البيزنطيـة وتدمير قوة ميخائيل باليولوجوس المطالب الاول بعرش القسطنطينية ، هو لصالح الامبراطور اللاتينى بلدوين الثانى ٠ لـكن النظـرة البعيـدة العميقة للامور توضح أن القضـاء على باليولوجوس وتدمير قوة نيقية ليس معناه القضاء على المطالب الوحيـد بعرش القسطنطينة ، لأن هناك مطالبين آخرين ، أولهم ميخائيل الثاذى انجيلوس امير ابيروس ، ثم مانفريد ملك صقلية الذى كان يرى أن استمرار الامبراطورية اللاتينية فى الشرق ، عاملا من عوامل قوة البـابوية وكان تدميرها والاستيلاء عليها عاملا من عوامل القضاء على قوة البـابوية ، وكسب جولة جديدة وهامة فى سلسلة الصراع بين البابوية وآل هوهنستاوفن بصفة عامة ، وهى نفس سياسة والده الامبراطور فردريك الثانى ٠

وهناك أيضا وليم أوف فيلها ردوين دوق آخايا الذى لا تقل أطماعه فى القسطنطينية عن أطماع الاثنين الآخرين ، خاصة وأن وليم يعتبر تابع اقطـاعى Vassal لبـلدوين وكان يحلـم بان يحـل محـله على عرش القسطنطينية ٠

وهكذا ، فقد كان القضـاء على باليـولوجوس وامبراطورية نيقيـة

---

1) Acropolites : P. 163.
Wolff : Op. Cit., P. 229.

البيزنطية ، ليس فى صالح بلدوين الثانى تماما ، لأنه فى حال النصر فان الحلفاء الثلاثة سيتفرغون له ، ويكون هو الفريسة التالية السهلة لهم ، فالأفضل أن يستمر باليولوجوس وامبراطوريته على قيد الحياة ، تناوىء وتناضل الحلفاء الثلاثة فيشغل بهم ويشغلون به ويبقى بلدوين متخذا موقف المتفرج .

وقد قام ميخائيل باليولوجوس بمحاولات ديبلوماسية تجاه المتحالفين الثلاثة لتبديد تحالفهم ، وأورد المؤرخ البيزنطى اكروبوليتيس أخبار هذه المحاولات فروى أن ميخائيل باليولوجوس ارسل الى ميخائيل الثانى أنجيلوس ، أمير ابيروس ، رسولا كفيفايدعى ثيودور فيلس Theodoros philes الذى عرض عليه امتيازات اقليمية مقابل السلام ، لكن امير ابيروس رفض ورد « ردا مهينا وتفوه بالفاظ بذيئة »(١) .

ولما لم تفلح محاولة السلام التى تقدم بها باليولوجوس الى أمير ابيروس ، اتجه امبراطور نيقية الى الحليفين الآخرين ، فارسل الى مانفريد ملك صقلية رسولا يدعى نقفور الالياطى Nikephoros Alyattes

وقد ذكره الرسول بالحلف النيقى الصقلى السابق بين يوحنا فاتاتزيس وفردريك الثانى ، وأعلن عن رغبة امبراطور نيقية فى احياء هذا الحلف ، كما أعلن الرسول أيضا عن رغبة الامبراطور ميخائيل باليولوجوس فى اطلاق سراح كونستانس (آنا) أرملة الامبراطور الراحل يوحنا فاتاتزيس وشقيقة مانفريد التى كانت فى سجن نيقية منذ وضعها به ثيودور الثانى عقب وفاة والده فى ١٢٥٤م(٢) .

لكن مانفريد رفض هذه المقترحات كلها « لأن خياله صور له مكاسب اكبر » على حد تعبير المؤرخ اكروبوليتس وقد قبض على الرسول ووضعه

---

1) Acropolites : P. 163.
2) Schlumberger G. le Tombeau d'une imperatice Byzantine Avalence En Espagne. dans le livere de "Byzance et croisades" pages Medievales, Paris, 1927, P. 71.

فى السجن وبقى به لمدة عامين(١) .

كذلك كان الحال مع وليم أوف فيلها ردوين حاكم امارة آخايا الذى رفض الاستجابة لمبادرة ميخائيل باليولوجوس للسلام ،وكان هو الآخر يتوقع فوائد كثيرة من وراء هذا الحلف الثلاثى(٢) وهكذا لم يعد امام باليولوجوس الا أن يقوم بمحاولة أخيرة فاتجه نحو البابوية ، العدو اللدود لآل هوهنستاوفن والقادرة على كبح جماح مانفريد والحد من أطماعه وقد قدم باليولوجوس عرضا للبابوية ضرب به على الوتر الحساس لديها ، وهو اتحاد الكنيستين اليونانية واللاتينية ، مقابل أن يعترف البابا باعتلاء باليولوجوس لعرش نيقية ، وأن يمنع البابا أية محاولة للاعتداء على امبراطورية نيقية تأت من جهة الغرب . لكن البابا الاسكندر الرابع Alexander IV ، لم يرد على سفارة باليولوجوس ، لأنه وجد أن الثمن الذى سيدفعه مقابل اتحاد الكنيستين يعتبر ثمنا باهظا(٣) .

وعندما وجد باليولوجوس أن مبادراته للسلام لم تنجح لم يعد أمامه سوى اللجوء للقوة العسكرية .

وقد أراد باليولوجوس ان ينفرد بميخائيل انجيلوس أمير ابيروس ، قبل أن تصله قوات من حليفيه ، فاصدر أوامره الى شقيقه جون الذى كان يشغل منصب الدمستق الاكبر loani palaeologo magno Domestico والقائدان الآخران وهما اليكسيوس ويوحنا رائولى Alexios et loanni Rauli ليشعلوا الحرب فجاة على أمير ابيروس(٤) . وقد خرجوا بصحبة الجيش فى أواخر سبتمبر ١٢٥٨م ، أما ميخائيل باليولوجوس نفسه فقد ظل فى نيقية ، وظهر يوحنا باليولوجوس فى أعالى مقدونيا عن طريق

---

1) Acropolites, P. 165.
2) Acropolites : P. 165.
3) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople, P. 646 ff.
Miller : The latins in levant, P. 110.
Geanakoplos : The Emperor Michael paleologos, PP. 61-62.
4) Pachymeres : De Michaele palaeologe, liber I, P. 83.

عبور فودينا Vodena ، وفاجا أمير ابيروس وجيشه الذى كان يعسكر بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria فى غرب اقليم مقدونيا وقد أصابت المفاجاة أمير ابيروس وجيشه مما أدى الى أن يسود الارتباك بينهم فتقهقروا سريعا عبر الممرات الصخرية ، مما أدى الى قتل الكثير من رجاله ، أما أمير ابيروس نفسه فقد انسحب خلف جبال بندوس Pendus وعسكر بالقرب من افلونا Avlona التى تقع داخل أملاك مانفريد ، ومنها أرسل يستدعى النجدة من حليفيه مانفريد ووليم ، أما يوحنا باليولوجوس فقد استولى على أخريدا Ochridal ديافوليس Deavolis ، برسبا ، بلاجونيا Pelagonia ، وسوسكوس Soskes (١) . وعلى الفور وصلت الى أمير ابيروس مساعدة حليفيه وقد طلب الحليفان تنفيذ خطط الفتح المتفق عليها بينهم منذ بداية تأسيس حلفهم ، وقد أرسل مانفريد الى حمية أمير ابيروس مساعدة عسكرية ذكر المؤرخ باكيميريس أنها تالفت من ثلاثة آلاف فارس من الفرسان الألمان المعروفين بقوتهم وشجاعتهم فى القتال ، فقال(٢) :

":... et a Manfredo quidem permissos ad eum certos homines impetraverat tria millia lectorum ex Germanis militum, virorum fortium, quos ipsi caballarios Vocant".

أما المؤرخ اكروبوليتيس فقد ذكر أن المساعدة العسكرية التى أرسلها مانفريد لحمية كانت مكونة من أربعمائة فارس ألمانى مجهزين تجهيزا تاما بالاسلحة(٣) . وربما كان عدد القوات التى ذكرها اكروبوليتيس أقرب الى الحقيقة ، خاصة وأن ما نفريد كان يخوض حربا ضد أعدائه من حزب

1) Acropolita : PP. 165-166.
Finlay : Op. Cit., PP. 338-339.
Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 319.
2) Pachymeres : P. 83.
3) Acropolites : P. 168.

الجلف فى ايطاليا(١) وبالتالى كان فى حاجة ماسة الى قواته ، وليس من المنطق أن يرسل عددا كبيرا مثل ثلاثة آلاف فارس مساعدة لأمير ابيروس ٠

وقد ذكر كل من المؤرخ البيزنطى جريجوراس(٢) وأحد أصحاب الحوليات الايطالين ويدعى ماتيوسبينللى Matteo Spinelli أن مانفريد جاء بنفسه على رأس قواته(٣) ٠ ولكنى أتفق مع المؤرخ دينو جياناكوبلوس الذى أوضح أن هذا القول ليس له ما يؤكده ، كما أنه مرفوض تماما من جانب المؤرخين الحديثين(٤) ٠

والمرجح أن مانفريد لم يات على رأس قواته ، نظرا لأنه كان مشغولا آنذاك بحروبه ضد الجلفيين فى ايطاليا ، كما سبق أن ذكرت ٠

وان كان وجد لدى مانفريد من الظروف ما أعاقه عن الحضور بنفسه على رأس قواته الا أن وليم اوف فيلها ردوين أمير آخايا ، قد جاء بنفسه على رأس قوات كثيرة ، بعد أن فرض تجنيدا اقطاعيا فى مارس ١٢٥٩م على كل أتباعه ، وقد اشتمل جيش وليم على قوات من الارخبيل وآثينا ، وعدد كبير من اللوردات الاقطاعيين صاحبوه بانفسهم على رأس قواتهم مثل الكونت ريتشارد صاحب كيفالونيا Count Richard of Cephalonia وتوماس الثانى صاحب سالونا Thomas II if Salona واوبرتينو صاحب بودونيتزا Ubertino of Boudonitza وفرق عسكريةمن ثيبس Thebes وآثينا Athens (٥)٠

---

1) Previté-Orton : Italy, 1250-1290, C. Med. H. Vol. VI ed. Hussey, Cambridge, 1968, PP. 180-182.
2) Gregoras : P. 75.
3) Geanakoplos : P. 64.
4) Geanakoplos : Op. Cit., P. 64.
Brehier : Op. Cit., P. 319.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.
5) A cropolit es : P. 168.
Pachymeres : P. 83.
Gregoras : P. 71.

وقد جاء ابنى امير ابيروس الى والدهما ومعهما قواتهما وهما نقفور Nikephoros والابن الآخر جون John وهو ابن غير شرعى لامير ابيروس وكان متزوجا من ابنة تارون Taron زعيم قبائل الوالاش الذين يقيمون فى والاشيا الكبرى باقليم تساليا(١) .

وهكذا لم يتاح لأمير ابيروس أن يقود جيشا كبيرا مثل هذا الجيش جمع من جميع أنحاء بلاد اليونان(٢) . أما عن القوات التى استعدت بها امبراطورية نيقية لمواجهة هذا التحالف الثلاثى ، فقد تمت الاستعانة بالقوات المرتزقة لمواجهة سلاح الخيالة الفرنجة ذات الصيت الذائع فى القتال ، وكانت على النحو التالى : ثلاثمائة فارس المانى تحت قيادة دوق كارينثيا Duke of Carinthia ، ١٥٠٠ فارس من رماة السهام من هنغاريا ، وأكثر من ٦٠٠ فارس من سرفيا Servit ، وكتيبة من الجنود من البلغار وعدد من المحاربين من اقليم الاناضول وهم معروفون بحروبهم ضد الاتراك ، ٥٠٠ فارس من الاتراك الذين يقيمون عند نهر الدانوب ، ٢٠٠٠ فارس من الخيالة من عنصر الكيومان ، بالاضافة الى رماة السهام من اليونان ، وحاميات مقدونيا وتراقيا(٣) .

والمرجح أن قوات الحلف الثلاثى فاقت فى العدد قوات امبراطورية نيقية ، لذلك فقد كان واضحا أنه اذا أراد الجانب النيقى أن يحرز الانتصار ، فانه عليه أن يخطط لاستراتيجية جديدة مبنية على أساس استغلال الثغرات فى جانب المتحالفين . وقد لجأ جيش نيقية الى حيل مختلفة حتى يبدو حجم جيشهم أكبر من الحقيقة بكثير . وقد أرسل قادة جيش نيقية بعض رجال الكشافة سرا لنشر بذور الخلاف والفرقة بين العناصر المختلفة التى ضمها جيش المتحالفين وخاصة عنصرى اليونان

1) Pachymeres : P. 83.
2) Miller : The Latins in The Levant, P. 110.
3) Pachymeres : P. 83.
Miller : The latins in the Levant, P. 111.

والفرنجة(١) .

وقد ازداد اتساعا الافتقار الى الانسجام بين الحلفاء ذوى الاهواء المختلفة نتيجة لخلاف شخصى بين وليم أمير آخايا والابن غير الشرعى لامير ابيروس ، الذى ذهب الى وليم شاكيا من أن بعض فرسانة الفرنجة قد أبدوا اعجابهم بطريقة غير لائقة بزوجته الوالاشية الجميلة ، وبدلا من انصافه من جانب وليم ، فانه أهانه ولمح الى مولده غير الشرعى ، وكنوع من الانتقام ، فان جون فر وانضم الى جانب جيش نيقية فى هذه اللحظات الحاسمة(٢) .

وقد ارسل امبراطور نيقية ميخائيل باليولوجوس الى شقيقه جون بعدة تعليمات عسكرية ، اهمها أن يتجنب الصدام المباشر مع العدو ، وأن يحاول اكتشاف المناطق التى تفتقر الى الاتحاد ، وذلك عن طريق المناوشات العديدة والمفاجئة ، ونتيجة لاتباع هذه التعليمات ،قام جون باليولوجوس بتوزيع قواته ببراعة ، وذلك اثناء اقترابه من قوات العدو فى غرب مقدونيا وقد أسند جون باليولوجوس مهمة احتلال المواقع القوية فى التلال المحيطة بهم الى القوات المسلحة تسليحا قويا ، بينما أسند الى من يرمون السهام والمسلحين تسليحا خفيفا والاكثر حركة من الكيومان والاتراك واليونان مهمة ارهاق العدو فى السهول بهجمات وانسحابات مفاجئة ، وقد تقابلت طليعتا الجيشين فى مكان يدعى فوريللالونجوس فى سهل بلاجونيا **Pelagonia** بالقرب من مدينة كاستوريا **Castoria** فى غرب اقليم مقدونيا ، وذلك فى أكتوبر ١٢٥٩(٣) .

وحسب الخطة التى وضعها قائد جيش نيقية جون باليولوجوس فقد

---

1) Miller : Op. Cit., P. 111.
   Finaly : Op. Cit., P. 339.
2) Miller : The Latins in the Levant, P. 111.
3) Acropolites : P. 164.
   Geanakoplos : Op. Cit., P. 67.
   Brehier : Op. Cit., P. 319.

قامت القوات ذات التسليح الخفيف بمناوشــات مع العدو ليلا ونهارا دون انقطاع ، كما قاموا بسلب ونهب القوافل التى تحمل المؤن . وهكذا فقد هلك سلاح الفرسان الفرنجة الذى كان يحارب على أرض لم يعتاد عليها ، كما بدأت المؤن فى النقص بسرعة ، وفقد جيش أمير ابيروس معنــوياته تمـــــاما . وحسب رواية المؤرخ البيزنطى جريجـــــوراس ، فان جون باليــولوجوس قام بمحاولة لبث الفــرقة والانقســام بين صفوف الاعداء ، فارسل سرا رجلا ادعى أنه هارب من جيش نيقية ، وأخبرا أمير ابيروس أن حليفيــه عقــدا اتفاقيــة سرية لخيــانته مع جون باليولوجوس قائد جيش نيقية وذلك مقابل مبالغ ضخمة من المال ، وأن الحل الوحيد أمامه للنجاة هو الهرب ، وبعد أن اقتنع أمير ابيروس بما سمعه من الرجل ، فر هاربا ليلا وصحب معه كل من استطاع جمعه من رجاله ، أما الباقون فبعد ما علموا برحيله ، فروا هاربين هم الآخرون ليلا ، وفى الصباح عنــدما اكتشفت القوات التابعة لمانفــريد ووليــم هروب أمير ابيروس من أرض المعركة ، أدركوا فى الحال أنه تمت خيانتهم(١) .

وقد ظهر لبعض الوقت أن شجاعة أمير آخايا وليم أوف فيلها ردوين قد خانته ، ولكن قدوم أحد أتبــاعه ، وهو ابن شقيقه البــارون القوى جيوفرى دى بريير Goeffroy de Bryeres جعـــله يتغلب عــلى ضعفه ، وقد قاتل الفرنجة بكل الشجاعة المعروفة عن عنصرهم آنذاك ، واختصوا الفرسان الالمان التابعين لجيش نيقية ، وركزوا عليهم هجومهم مما أدى الى انسحابهم قبل أن يجتثوا « مثلما يجتث العشب من المروج » عندئذ أمر قائد نيقية الفرسان الهنغاريين ورماة السهام من الكيومان بالرمى فى اتجاه الفرسان الفرنجة ، وسقط فارس بعــد فارس وأخذ أسيرا جيوفرى دى بريير « زهرة فرسان آخايا » وبينما كان الامير وليم يحــاول انقــاذ ابن أخيه من أيدى الاعداء ، سقط عن فرسه ، وقد حاول وليم أن يختفى تحت كومة من القش ولكنــه كشف وعرف عن طريق أســنانه الاماميــة

---

1) Gregoras : P. 71.

البارزة ، وسبق وليم دوق أخايا وباقى الاسرى الرئيسيين الى خيمة قائد جيش نيقية الذى أرسلهم بدوره الى شقيقه الامبراطور ميخائيل الذى كان آنذاك فى مدينة لامبساكوس Lampsakos ، وكان الذين نجوا من المعركة هم فقط والاش تساليا الذين ظلوا مخلصين للابن غير الشرعى لامير ابيروس ، وقد أخذوا طريقهم عائدين الى بلادهم(١) .

هذا وقد تابع القائد جون باليولوجوس انتصاره فاتجه بجزء من الجيش المنتصر الى بلاد اليونان حيث نهبوا ليفاديا Livadea ، واتجه جزء آخر من جيشه بقيادة القائد الكسيوس فاستولى على جوانينا Joannina وآرتا وهما المدينتين الرئيستين فى امارة ابيروس ، وتم تحرير المؤرخ اكروبوليتيس من سجنه ، واستقر اليكسيوس فى ابيروس(٢) ، بينما سار جون باليولوجوس وجون انجيلوس الابن غير الشرعى لامير ابيروس خلال تساليا الى نيوباتراس Neopatras الى ثيبيس Thebes ، ونهبوا المدينة بينما عاود جون انجيلوس خيانته مرة أخرى وفر الى والده أمير ابيروس ، الذى كان قد اتخذ مع عائلته من جزيرتى ليوكاس Leukas وكيفالونيا Ephalonia ملجأ لها(٣) .

وهكذا أحرزت امبراطورية نيقية البيزنطية هذا الانتصار على هؤلاء المتحالفين الثلاثة ، وتم هزيمتهم وتشتيتهم على النحو الذى سبق ذكره ، وعن هذا الانتصار يقول المؤرخ المعاصر اكروبوليتيس : « بفضل التعليمات الامبراطورية ، حققت قواتنا انتصارا باهرا ، طبقت شهرته أرجاء العالم ، حتى تضاءلت الشمس الى جواره »(٤) .

وفى تحليل أسباب هزيمة الحلف الثلاثى ، تجدر الاشارة الى أن من

---

1) Miller : The latine in the Levant, PP. 111-112.
2) Finaly : Op. Cit., P. 339.
3) A cropolites : P. 172.
Miller : The latins in the Levant, P. 112.
Finlay : Op. Cit., P. 339.
4) Acropolites : P. 108.

أهم الأسباب هو تعدد القيادات ، وتعدد العناصر فى جيش المتحـالفين ، وتأصل الكراهية بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر منذ قرون عديدة سابقة نتيجة لاختلاف العنصر واللغة والاهواء والمذاهب الدينية ، ثم جاءت أحداث عام ١٢٠٤م وفتح اللاتين للقسطنطينية واقامة مملكة لاتينية بها ، والتفرقة العنصرية والدينية التى تحملها اليونان طوال سنوات الاحتلال لتضيف عاملا جديدا وهاما زاد من كراهيـة العنصر اليـونانى للاتين ، خاصة وأن اليونان كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى مرتبة من اللاتين ، وكانوا يميلون الى النظر اليهم بتعالى واحتقار ، واعتبارهم هراطقة أما رأى اللاتين فى اليونان فقد كان أكثر سوءا من رأى اليونان فيهم ٠ فقد اعتبروا اليونان مجردين من الاخلاق وجبناء ومنشقين ولم يكن من الممكن أن تذوب هذه الكراهية بين العنصرين بعد أن توارثوها جيلا بعد جيل ، بين يوم وليلة نتيجة لهذا التحالف ٠

أما بالنسبة لمانفريد ملك صقلية ، سليل الالمان والنـورمان ، فقـد ورث كراهية هذين العنصرين لليونان ، كما ورث أطماعهما فى بلاد البلقان وفى القسطنطينية ذاتها وقد أدى ذلك كله الى انعدام الثقة بين الحلفـاء الثـلاثة ٠

وقد كان ميخائيل باليولوجوس وشقيقه جـون قائـد الجيش الذى خاض هذه المعركة بارعين فى فهم هذه العوامل كلها واستغلالها لبث الفرقة والانقسام بين صفوف المتحالفين ، ونجحا فى تحقيق هدفهما الى حد بعيد ، على النحو الذى تم توضيحه فى ثنايا هذا البحث ٠

أما عن الاهميـة التاريخية لهـذه المعـركة ، فان المؤرخ دينوجينـا كوبلوس يقول فى هذا الصدد : « ان معركة بلاجونيا كانت واحدة من أهم المعارك فى القرن الثالث عشر الميلادى[1] ٠ ويقول المؤرخ جاردنر : « ان النتائج الكبيرة للمعركة تؤهلها لأن تتبوأ مكانة سامية كأحد المعارك الفاصلة

---

1) Geanakplos : Op. Cit., P. 73.

فى تاريخ أوروبا»(١) .

ولم يبعد هذان المؤرخان عن الحقيقة ، اذ كان لهذه المعركة بالفعل نتائج بالغة الاهمية ، وخاصة فيما يتعلق باسترداد العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، فقد استطاعت امبراطورية نيقية عقب هذه المعركة ونتيجة للانتصار الذى أحرزته أن تقضى على قوة المنافسين لها ، وقد تقلصت أملاك أمير ابيروس وانحصرت فيما ورثه عن آبائه أما فتوحاته فى منطقة ابيروس وتساليا ، فقد تم لامبراطورية نيقية الاستيلاء عليها .

كذلك فان أحد نتائج هذه المعركة كان انهيار النفوذ اللاتينى فى شبه جزيرة المورة ، ويقول المؤرخ Setton ان معركة بلاجونيا هى « نقطة التحول والتغيير الماساوى The dramatic peripeteia (٢) ليس فقط فى مجرى حياة وليم أوف فيلها ردوين ولكن فى تاريخ امارة الفرنجة فى آخايا »(٣) وقد أصبح لامبراطورية نيقية القدم الراسخة هناك ، وبذلك فقد الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية مساعدة امارة آخايا المهزومة وأصبح على بلدوين الثانى ، الاعتماد على نفسه وعلى موارده المحدودة فى حماية القسطنطينية والدفاع عنها .

وهكذا كان انتصار بلاجونيا هو الحد الفاصل ، الذى وضع النهاية للصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية اذ بعد هذه المعركة أصبح واضحا للعيان أن مصير القسطنطينية قد تحدد ، وأنها ستكون من نصيب الطرف الاقوى الذى أصبحت له السيطرة على الموقف فى هذه المنطقة ، وأعنى به امبراطورية نيقية البيزنطية .

---

1) Gardner A. : The Lascarids of Nicaea, London, 1922, P. 248.

(٢) كلمة Peripeteia هى فى الاصل كلمة يونانية περιπετια وهى بمعنى Change .

(٣) لقد ظل وليم أوف فيلها ردوين فى الاسر أكثر من سنتين ، وللمزيد عن تاريخ امارة آخايا بعد معركة بلاجونيا راجع : =

وهذا ما حدث بالفعل ، اذ قبل أن يكتمل العامان على هذه المعركة ، تم لامبراطورية نيقية البيزنطية اسـترداد العاصمة القسطنطينية فى ٢٥ يوليو ١٢٦١م • ودخل ميخائيل باليولوجوس العاصمة الام فى ١٥ اغسطس ١٢٦١ ، وتم تتويجه للمرة الثانية هو وزوجته ثيـودورا فى سـبتمبر ١٢٦١(١) •

وقد كان التتويج هذه المرة فى الكنيسة الرئيسية معقـل المذهب الارثوذكسى آيا صوفيا ليسترد مجد آبائه وأجداده ، ويرفع عن اليونان عار الهزيمة والنفى والتشرد ، بعد أن عادت القسطنطينية مرة أخرى عاصمة ومقرا وقلبا نابضا للامبراطورية البيزنطية •

Setton : The latins in Greece and the Aegean from the Fourth Crusade to the End of the Middle Ages. C. M ed. H. vol. IV, part 1, ed; Hussey, Cambridge, 1975, PP. 401-408.

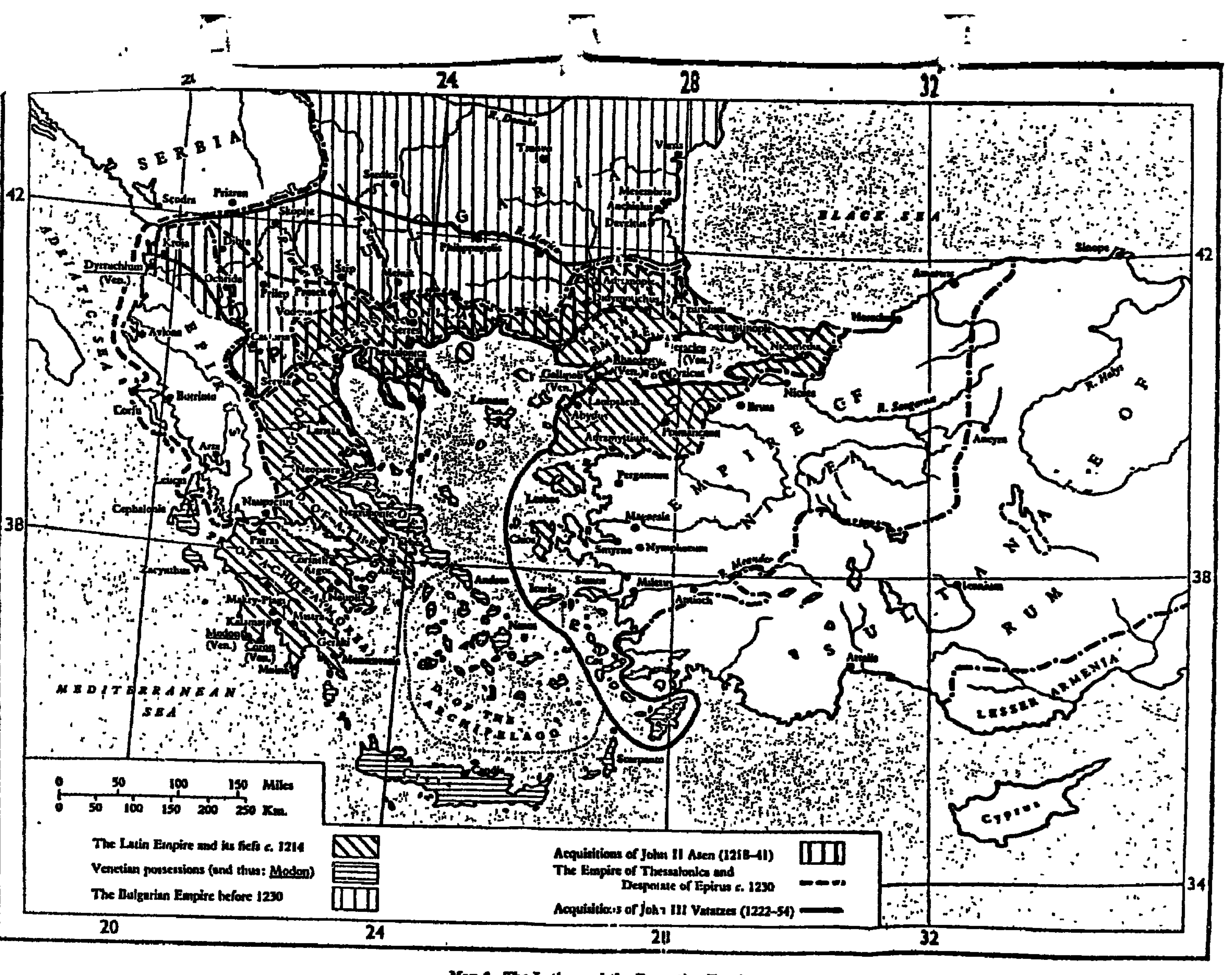
Miller : The latins in the Levant, A history of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908, P. 109 ff.

(١) بعد عدة شـهور من تتويج ميخـائيل باليولوجوس فى كنيسة أيا صوفيا ، تم له ابعاد صاحب الحق الشرعى فى العرش يوحنـا الرابع لاسكاريس ، عن طريق سمل عينيه وبذلك أصبح ميخائيل باليولوجوس امبراطور وحيدا على العرش البيزنطى ، وأسس أسرة جديدة هى أسرة باليولوجوس التى تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من الزمان ، حتى تم للاتراك العثمانيين فتـح القسطنطينية فى ١٤٥٣م راجع :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. 11, PP. 580-722.

Brehier : Vie et Mort de Byzance, PP. 321-432.

Nicol : The End of the Byzantine Empire, London, 1979, PP. 13-96.



Map 6. The Latins and the Byzantine Empire.

C. Med. H. ed. Hussey, vol IV, part 1, p. 288.



المراجع والمصادر

1 — A cropolites (C.) : Opera, ed. Heisnberg; Leipzeg, 1903.

2 — Angold : Aby zantine Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975.

3 — Barrachough (G.) : The Medieval papacy, London, 1975.

4 — Brehier (L.) : Vie et Mort de By Zance, ed. A Ibin Mickel, Paris, 1969.

5 — Buchon (Y.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moree, et ces hautes baronnies, 1, Paris, 1845.

6 — Choniates (N.) : Historia, ed. Bekker, in corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae, 1935.

7 — Finlay (G.) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time, B. C. 146 A. D. 1864. AMS Press. New York.

8 — Foord : The Byzantine Empire, London, 1911.

9 — Garnder (A.) : The lascarids of Nicaea, London, 1912.

10 — Geanakoplos (D.) : Emperor Michael Paleologus and the west 1285-1282, Harvard University Press, 1959.

11 — Gelzer (H.) : A briss der Byzantiaiscfsen kaiesergeschicht, Munich, 1897.

12 — Gibbon (E.) : The decline and Fall of the Roman Empire, 6 vols, New York, 1976.

13 — Gregoras (N.) : Historiae Byzantinae ed. weberi, Bonn, 1829.

14 — Grousset (R.) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jersalem, Paris, 1956.

15 — Hussey (Y.) : The Byzantine world, London, 1967.

16 — The Ill ustrated Encyclopedia of Medieval Civilization U.S.A. 1980.

17 — Labis : Histoire de France, Paris, 1976.

18 — Laurent (V.) : La Genealogie Des premiers paleologues, dans Byzantion) Revue Internationale des Etudes Byzantines, Tome VIII, Brux elles, 1933.

19 — The Lincoln library of Essential Information, The Frontier Press Company, Columbus, Ohio, U. S. A. Thirty Ninth Edition 1978.

20 — Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon publication, New York, 1983.

21 — Magic : Roman Rule in A Sia Minor, 2 vols, 1975.

22. — Miller (W.) : The latins in The levant, A istory of Frankish creece (1204-1566) London, 1908; The Empire of Nicaea and the recove‹y of contantinople, in C. Med. H., ed. Bury, vol. IV, Cambridge, 1923.

23 — Nicol (D.) : The Fourth Crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, in C. Med. H. Vol. IV, Part 1, ed. Hussey Cambridge, 1975.

: The End of The Byzantine Empire, London, 1979.

: Byzantium, its ecclesiastical History and relations with the western world, London, 1972.

24 — Norden : Der Viere kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zubyzanz. Berlin, 1898.

25 — Ostrogorsky : History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968.

26 — Pachymeres : Historiae Byzantinae, liber 1, De Michaele Palalologo. weheri, MDCCCXXXV, Bonnae.

27 — Painter (S.) : A history of the middle Ages, New York, 1954.

28 — Pappadopoulos (J.) : Theodore 11 Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1908.

29 — Pears (E.) : The Fall of constantinople being the story of the Fourth crusade New York, 1975.

30 — Previté-Orton : Italy, 1250 - 1290, C. Med. H. Vol. VI, ed Hussey, Cambridge, 1968.

31 — Runciman (S.) : The History of the crusades, Vol. 3, Cambridge, University press, 1966.

32 — Schlumberger (C.) : Le Tombeau d'une imperatrice Byzantine A Valence En Espagne, dans la liver de (Byzance et croisedes), Pages Medievales, Paris, 1927.

33 — Setton : The latins in Greece and the Aegean From the Fourth orusades to the End of the Middle Ages. C. Med. H. Vol. IV, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

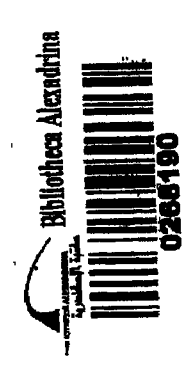
34 — Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (324-1453), U.S.A. 1971.

35 — Walter : la Ruine de Byzance (1204-1453), ed. Albin Michel, Paris, 1958.

36 — Wolff (R.) : Studies in the latin Empire of constantinople London, 1976.

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع جوده - إبراهيمية - الاسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠




Bibliotheca Alexandrina
0266190